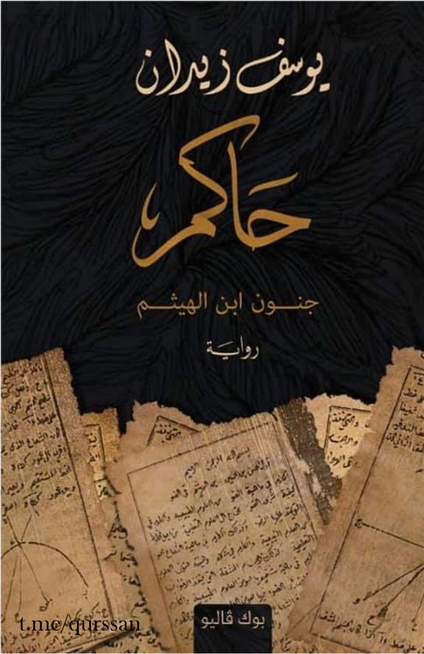

يوسف زيدان
حاكم
جنون ابن الهيثم
رواية
بوك ڤاليو
t.me/qurssan

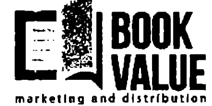
حاكم

جنون ابن الهيثم

د. يوسف زيدان

بوك فاليو

للتسويق والتوزيع



رقم الإيداع : 2043 / 2021   الترقيم الدولي : 9 - 0 - 85821 - 977 - 978

Tel (002) 02 33 444 09 9 - 02 330 20 11 3 - 02 330 20 11 4

Add 11 Sphinx Square, Elmuhandisin. Egypt

web www.bookvalue.com.eg

E-mail info@book-value.net

يوسف زيدان

حاكم

جنون ابن الهيثم

رواية

.. وتلك الأيامُ يتداولها الحاكمون، لا الحكماء.

راضي

عصر يوم الأربعاء المُصادف في ظنِّ الناس للرابع والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ٢٠١٨ للميلاد المُختلف في توقيته، المشكوك في حدوثه، وعلى وقع الاهتزاز الرتيب والحشرجة الصادرة من محرك السيارة الكبيرة. وبكل ما في الكون من مللٍ. راحت خطفاتُ الوَسَن تُطبق جفن الفتى الأسمر، النحيل، الجالس محشورًا بمنتصف المقعد العريض الخلفي في سيارة الأجرة. سَكَنَ الفتى في جلسه كأنه جزءٌ من السيارة التي أنهكها الحبو بالأحياء بين الأنحاء والأحياء، وهي مثقلةٌ من داخلها بالركاب المستسلمين لأقدارهم، ومحاطةٌ من خارجها باختناقات النهار القاهري وبالقيظ المتجاهل انقضاء الصيف.

أثناء سير تلك السيارة المسماة هنا «الميكروباص» وخلال تأرجحه بين إغواء الغياب في النعاس، وأهمية الانتباه. حوَّمتْ برأس الفتى «راضي» الهادئة هيئتُه، مشاهدُ عديدةٌ تتالت من ذاكرته بغير انتظامٍ، وبازدحامٍ، فور مغادرة الميكروباص منطقة «إمبابة» الهادرة، وتوالت على ذهنه خلال المسير السقيم مشاعرُ مشوَّشةٌ وأفكارٌ دافقة لا تسلسل لها، ولا اتساق فيها، حتى استجلبت إليه

النعاس. في البدء، تقافزت بداخله الخواطرُ حماسيةً، بما يتناسب مع ذهابه لأولى محاضرات الدراسات العليا الممهِّدة للماجستير. وبما يليق باعتقاده اليقينيّ أن شأنه سيرتفع بعد سنواتٍ معدودات، عندما يحصل على درجتَي الماجستير والدكتوراة، ويصير أستاذًا جامعيًّا مرموقًا يُعار إلى إحدى دول النفط براتبٍ مرتفع.. وبعد نصف ساعة من الحصار بين ركاب السيارة المحاصرة بالسيارات، تباطأت أفكاره وصارت متواضعة، بما يناسب السأم المحيط ووفرة الأنفاس الساخنة من حوله، مع شُحّ الهواء ونفاد الصبر.

قبل عامين وبضعة أشهر، وبعد عامين وبضعة أشهر من تخرُّجه في قسم التاريخ بجامعة جنوب الوادي، هاجر «راضي» إلى القاهرة مقهورًا، مثل غالبية الذين يهاجرون ويهجرون ذواتهم وديعةً بالمكان ومستودعةً بالذاكرة. ومضطرًّا، هجر الهجير مودعًا أوهام الاعتزاز بالعيش في قريته «نجع العِزْوة» الواقعة بقلب الصعيد بين مركز دِشْنا ونجع سعيد، وجاء ليستقر بحُجرته الحالية المنخفضة درجتين عن أرض حارة «الرِّمش» المستلقية بكسلٍ في وسط «عزبة الصعايدة» الكائنة بالناحية القاهرية الشهيرة، المنطوق اسمها «إمبابة» فصاحةً، أو تصحيفًا للصفة المأخوذ منها اسمها البوابة، لأنها كانت باب الدخول إلى القاهرة من شمالها الغربي.

سُمرةُ الفتى مألوفةٌ في أهل الصعيد، ووسامته غير لافتةٍ ولا تخطف النظر ابتداءً، وإنما يحتاج إدراكها بعض الإمعان وإطالة التأمل في دقة الملامح وملاحة القَسَمات. واسمه «راضي» هو

تخفيفٌ أو تلطيفٌ لاسمه المفرد، والخماسي: عبد الراضي عبد المولى عبد اللاه عبد المحسن عبد الراضي.. وكان نزوحه إلى القاهرة هروبًا أو محاولةً للخلاص من مواجهة العدمية التامة، النابعة من انعدام نفعه، وعدم استطاعته بعد تخرُّجه الفوزَ بوظيفة حكومية أو خاصة. وبالتالي عدم استطاعته الزواج لاستكمال النصف الناقص من دينه، ولإطفاء التحرُّق المستعر بخيالاته نهارًا وبسريره السطوحي في أمسيات السُّهْد. ومع تزايد شعوره بالعجز والعدمية، حاصره الإحساسُ بالضآلة وانعدمت ثقته في جدوى الأمنيات.

مضت به أيامه بالصعيد ثقيلةَ الوطء عسرةَ التحمل، حتى كانت تلك الظهيرة اللاهبة التي سبقت مجيئه للقاهرة بيومين. إذ أرسلت تستدعيه إلى بيتها المجاور، أختُه الكبرى المتزوجة من ابن عمِّهما المغترب منذ سنين. وحين جاءها وجدها قد أعدَّت له غَدَاءً شهيًّا وفراشًا للقيلولة، فالتهم مبتهجًا نصفَ الحمامة المحشوَّة بفريكٍ دسمٍ يكاد ينفزر من جلدها البرَّاق، وأتى بالرغيف الشمسي على الطبقين المعتادين في الصعيد: الملوخية الخضراء اللامع سطحها، والويكا الفوَّاحة برائحة الثوم المقلي. وما كان المسكين يدري لحظتها، ما ينتظره بعد حين من وجومٍ وحيرة.

راضيًا، قام من جلسته السعيدة أمام الطبلية البلاستيكية حائلة اللون، متجعِّدة السطح، وتهيَّأ لنوم الظهيرة وهو ساهٍ لوهلةٍ عن بؤسه، وعن إحساسه المزمن بانعدام المعنى، وباللاجدوى.. وهي تطرد الذباب من حول فِراشه بستر رأسها الأسود الشفَّاف،

ذي الخروق، تحدَّثت إليه أخته بما يعلمه الجميع من أن الأرزاق الشحيحة بنواحي الصعيد وفيرةٌ في مصر، تقصد القاهرة، وأن كثيرًا من الفتيان والكهول ذهبوا إليها، فوجدوا لأنفسهم من الفقر مهربًا ومن الهموم، وبعضهم صادف هناك حُسن الحظ فاغتنى. استغرب «راضي» توقيت كلامها ولم يدرِ ما مناسبته، فطلب منها وهو يعتدل من اتكائه بكوعه على المخدَّة الخشنة، أن تُفصح بوضوح عما تريد قوله.

جلستْ برفقٍ على حافة الفراش عند أطراف قدميه، وقالت بصوت خفيض وهي تُعيد إلى رأسها سترها، إن أباهما صبر سنواتٍ من بعد وفاة أمهما، وهو الآن ينوي الزواج، لكنه يتحرَّج من إتمام الزيجة مع وجود شابٌ أعزب في البيت، عاطلٍ عن العمل، ولا زوجة معه. أضافت بنبرةٍ لا تخلو من الحيرة المغموسة بالأسى، أن أباهما سيقترن بفاطمة بنت الحاج عبد الفضيل الفرَّاتي، فزعق «راضي» كمن لسعته عقرب:

ـ كِيفْ! يعني هوَّ ما يعرفش اللي حصل زمان؟

ـ يمكن ما حصل شيّ.. يا خُوي أهو كلام.. ومحدش يعرف الحقيقة فين.

صَمَتا وقد ألجم الخجلُ لسانيهما عن الحديث الصريح عما يعلمانه، ويعرفه الجميعُ. إذ شاع على ألسنة الناس همسًا قبل عشر سنوات، أن الحاج «عبد الفضيل الفرَّاتي» المزواج، كثير الذرية، اكتشف أن ابنه البالغ من العمر عشرين عامًا وَاقَعَ أخته «فاطمة»

ذات السنوات الخمس عشرة فأحبلها، فاحتالت حتى أسقطت سرًّا حملها. ومع رعدة الصدمة لم يملك الرجل التكتم والتروِّي، فأسرع إلى المثوى الذي دسَّ فيه مسدَّسه غير المرخَّص، واستخرجه من بطن الأرض. وفكَّ وهو يرتجف لفافته المثقلة بالخِرق المليئة بشحم الماكينات، لحفظه من الصدأ، وبيدين ترتعشان أراد الرجلُ المصدومُ أن يداوي خطأ الانحراف بخطيئة القتل، فأطاش أعيرةً لم تُصب بحمد الله أحدًا ممن حوله. وفي غمرة هذا الهرج، هرب الابنُ الآثمُ من وجه أبيه ومن النواحي المحيطة، ولم يعد من بعد اختفائه للظهور. وفرَّت البنتُ من البيت وتوارت بين الزروع، فلم يستطع أبوها العثور عليها طيلة يومين، وأقعده في اليوم الثالث الفالجُ. وبعد بضعة أسابيع مات المسكين متحسِّرًا مقهورًا، وحلَّقت الفضيحةُ بأجنحتها عاليًا وتحلَّقت غيومها حول الرجل بين عائلته، وحول عائلته بين عوائل البلدة، وحول عوائل البلدة بين المحيطين من أهل النجوع والبلدات. ومع مرور الليالي خفَّت الصدمةُ وخَفَت الكلامُ، وما عاد الناسُ يتهامسون بما جرى أو يذكرونه إلا لمامًا، وعلى هون.

نَعَقَ غرابٌ ينعبُ منزعجًا من فوق نخلةٍ قريبة، واعترت «راضي» بعد كلام أخته غُصَّةُ حَلْقٍ، وضيقُ صدر، فأزاح عنه الغطاء بساقيه وقام من فراشه الشوكي فَزِعًا، وبسرعةٍ وضع قدميه في حذائه العتيق يابس الجلد، وهَمَّ بالهروب من أمامها إلى حيث لا يدري.. تعلَّقت بجلبابه وهي ترجوه أن يبقى قليلًا، ويهدأ، فانعقد بقوةٍ حاجباه من فرط الحسرة، وغَمَرَ الهمُّ ملامحه وهو يسألها منفعلًا عما تريد منه.

أجابته بنبراتٍ ترتجف، بأن لا ذنب لها في الأمر ولا حيلة، غير أن الأحوال تتحكم والظروف تُجبر. وجارهم الحاج «إسماعيل» إمام المسجد، قال إن الزواج بالبنت المسكينة فيه ثواب كبير عند ربنا الحليم الستَّار.

ـ فهمت، يعني دلوقت عايزين تخلصوا مني وخلاص، صح؟

ـ سافر يا خُوي. سافر، يمكن ربنا يكرمك هناك.

بكت، فتركها خلفه متكومةً على ما بها من وجعٍ وذهب مغاضبًا تحوطه الحيرةُ المسيَّجة بالحسرات.. وبعد يومين جلس ساكنًا أمام أبيه وبينهما حقيبةُ السفر الممسوكةُ من منتصفها بحبلٍ قويٍّ يحفظ شقَّيها من الانفلات أثناء سفره، وبعدما دسَّ في جيبه ممتعضًا آخر جنيهات يمنحها له أبوه، استمع منه صاغرًا للنصائح المشتملة على علامات طريقه المرتقب، ومساره المفضي به إلى المجهول: القطار القادم من أسوان سيصل إلى محطة «دشْنا» الساعة الثامنة مساءً، وقد يتأخر عن موعده ساعةً أو أكثر، وسوف يصل إلى محطة «الجيزة» بعد تسع ساعاتٍ أو أكثر، تنزل منه وتركب ميكروباصًا إلى «إمبابة» وتذهب إلى شارع «عسران» بعزبة الصعايدة، وستجد في منتصف الشارع «مندرة أولاد عمرو» فتسأل أقاربنا هناك عن عمك الحاج عبد العاطي العطار، هو صديق طفولتي وسوف يهتم بك ويجد لك مسكنًا وعملًا، ويمكنك في البداية أن تشتغل بأيِّ شيءٍ حتى تجد وظيفةً بشهادتك. وانتبه لنفسك هناك يا ولدي،

وإياك والنسوان. الحرام واعر، وكما تدين تُدان. حدّ الله بينًا وبين الحرام. إنت سامعني؟

ـ أيوه يا بُوي سامعك، حاضر. السلام عليكم.

ومع ما يعتمل بقلبه من اضطرابٍ وتصدُّع، وَدَّ «راضي» لو يحتضن أباه قبل الرحيل، غير أنه استحى. أما أخته المكلومة التي كانت وهو يتلقّى الوصايا جالسةً خَلف باب الحجرة، فقد همَّت نحو «راضي» بالْتياعٍ ودموعٍ تسحُّ، فاحتضنته بقوةٍ احتراقها بنار الافتراق القاسي، وعندما توارى أخوها الوحيد بحقيبته خَلف باب البيت، أقعدها الحزنُ على التراب وأجهشتْ.

* * *

لن ينسى «راضي» ما دام حيًّا، تلك اللحظة السحرية المبكرة التي رأى فيها لأول مرةٍ قُبة «جامعة القاهرة» فانبثق بجُوَّانيه الحلم الذي يبدأ اليوم في تحقيقه. كانت هذه اللحظة الفارقة، عقيب الفجر وفورَ إطلالة شمس يوم «الجمعة» الذي وصل فيه من الصعيد إلى العاصمة، ومن محطة القطار بالجيزة ركب سيارة الأجرة الذاهبة إلى إمبابة، أو بالأحرى انحشر فيها بين الحقائب وأصحابها. جلس ساعتها إلى جوار الشباك واضعًا فوق ركبتيه حقيبة السفر المثابرة معه، وبعدما عبرت السيارةُ ميدان الجيزة بيُسرٍ، ثم سارت مسرعةً في الشارع الواسع المؤطر بأشجارٍ عتيقة ومبانٍ كبار، مسَّت حواسه نسماتُ الهواء ولمساتُ الأمنيات.. وهو يتطلع مندهشًا نحو كل ما يمر به من مشاهد قاهرية، اتسع المدى أمام عينيه عند بوابة الجامعة

وظهر له من خَلف المدخل الأنيق، برجُ الجامعة. لحظتها، ومع احتدام إحساسه بالوحدة وبالحرية، هامت به الأحلام والأماني المستحيلات فتخيَّل بذهنٍ بريء ساذج أنه درس في هذه الجامعة المرموقة، رحبة الأنحاء، وأحب أثناء دراسته فتاةً قاهرية الإقامة صعيدية الأصل. رشيقةً، وشهية، وطيِّعة، ومطيعة، وطيبة القلب، ومدلَّلة، ومهذَّبة. وبعد تخرُّجه وَجَدَ وظيفةً دائمةً ومسكنًا، فاستكان بعد الزواج بمحبوبته وعاشا في ثباتٍ ونباتٍ، وأنجبا الصبيان والبنات.. يا سلام.. الأحلامُ مريحةٌ للروح الحائرة، وساحرة، مهما كانت جامحةً أو مستحيلة.

يومها وبعد أقل من نصف ساعة، في حدود السابعة صباحًا، استفاق «راضي» من دغدغة الأمنيات والأوهام والرهبة، حين نزل من سيارة الأجرة عند التقاء شارعَي «ترعة السواحل» و«عسران» حاملًا حقيبته التي ثقلت عليه بسبب تعبه وعدم نومه طيلة ليلة سفره الطويلة. وَخَزته المخاوفُ المبهمة وداخله القلقُ حين نظر في شارع عسران، فوجده هادئًا مُرِيبًا متشابهة بيوتُه القصيرةُ المتلاصقة، المحرومة من الملامح المميَّزة. وما كان يعلم آنذاك، أن تلك هي الساعة الوحيدة التي يسكن فيها الشارعُ، وتهدأ الأنحاءُ المحيطة به.

سار في وسط الشارع الممتد متمهلًا، ومتلفِّتًا نحو ما يصبُّ فيه من الأزقة والمسارب غير المستقيمة، الشبيهة بالترع المتصلة بالرَّيَّاح القادم من مجرى النيل، وعندما بلغ الانعطافة غير البعيدة عن بداية الشارع المنعرج، وجد هناك مقصده. مندرة أولاد عمرو. هي بوابةٌ حديدية مغلقة بقفلٍ كبير، صدئ، يعلوها مبنى مغلق النوافذ يرتفع لعدة طوابق، مكتوب على مدخله أنه مستوصف

طبي، ويلاصقه مسجدٌ عاليةٌ مئذنته، أمام بابه المرتفع المغلق درجٌ يعلو ستّ عتباتٍ غير عاليات، وغير تامة الاستدارة.

لم يجد أحدًا عند «المندرة» فجلس ساكنًا على دَرَجِ المسجد وعند قدميه حقيبته التي تعذَّبت معه، وتعذَّب بها. وبعد سويعةٍ من سكونٍ غير تامٍّ وسكينةٍ مبهمة، جاءه من أقصى الزقاق المجاور رجلٌ يسعى، وسأله بلهجة صعيدية لا تشوبها اللكنةُ القاهرية: خير يا ولدي؟.. استقام «راضي» واقفًا وهو يخبر الرجل الستيني بأنه يريد الحاج «عبد العاطي العطار» فأعاد الرجل النحيل سؤاله السابق، وأضاف إليه سؤالًا بدا من نظرته الهادئة، أنه يعرف مُسبقًا إجابته. قال: خير يا ولدي؟ إنت لسَّاك واصل من البلد؟

ـ صحّ يا عم الحاج، جيت من الصعيد في قطر الفجر، وأبوي وصَّاني أسأل هنا عن الحاج «عبد العاطي».

ـ إنت من ولاد عمرو؟

ـ أيوه، بس احنا ساكنين في نجع العزوة.

ـ آه، تبقى من بيت عبد الراضي.

ـ صحّ، واسمي عبد الراضي عبد المولى.

ـ عاشت الأسامي، تعال يا ولدي.

أدخله الرجلُ الطيب إلى «المندرة» من باب دار المناسبات المليئة بالأرائك الخشبية والكراسي المعدنية المعدة لاستقبال التعازي. وعند زاوية فيها فراشٌ غيرُ وثيرٍ، نصحه بأن يغفو ساعتين

ليرتاح من تعب السفر، ثم استدار عنه وهو يقول: بعد الصلاة ربنا يسهِّل.. قبيل صلاة الجمعة، رأى «راضي» فور استيقاظه وخروجه من الباب، كأن قيامة الناس قد قامت فجأةً أثناء نومه، وابتدأ يوم حَشْرِهم. ما لا حصر له من البشر الذين كانوا لحظة وصوله، متحشِّرين في الحجرات والبيوت المتلاصقة. وقف مستغربًا ينظر مدهوشًا نحو ما يحيط به: نسوةٌ مدرَّعات بالأثداء العظيمة. فتياتٌ رشيقات يتبخترن بخطوهنَّ، بلا خجل من كونهنَّ إناثًا. أطفالٌ يلعبون ويعملون ويتعاملون مع الكبار، كأنهم كبار. باعةٌ كثيرون، ومشترون أكثر. مُصلون كثيرون، وغير المصلين أكثر.. كل ما في القاهرة كثير.. بعد الصلاة عرف أن قريبه «الحاج عبد العاطي» انتقل قبل أعوام للعيش بمدينة السويس، وصارت له هناك عطارةٌ كبيرة وبقالةٌ ذات بابين، وفتح الله عليه من أبواب الرزق الوفير ما دعا الناس للظن بأنه يتاجر في المخدرات.

وما العمل الآن؟.. سأل راضي نفسه والذين حوله من «بلدياته» فطمأنوه بأن أموره سوف تستقيم في أقرب وقتٍ، فلا داعي للقلق. وبعد يومين من المبيت بدار المناسبات أوجدوا له حُجرةً بائسةً، نفاذة الرائحة، في حارة «الرمش» القريبة. الحجرة رطبة مثل جُحور الفئران، وعطنة الزوايا، وزهيدة الإيجار. وبعد عدة أيام لم تبلغ أسبوعًا، عثروا له على عملٍ متواضع في دكانٍ بائسٍ بابه مفتوح على حارة ضيقة، مفتوحة على زقاق متعرج، مفتوح على شارع ترعة السواحل. الدكان يملكه شابٌّ ثلاثينيٌّ مهووسٌ بذاته ومبهورٌ بها، يسمِّي نفسه «زُوءة» ويصرُّ على أن يُنادى بذلك، لأنه لا يحب

اسمه الفعلي «مرزوق» ويعتقد أنه لا يناسبه ولا يليق حسبما يظنُّ إلا بمن كان كنَّاسًا أو فرَّانًا. بأعلى الدكان لافتةٌ معلَّقة بسلكٍ، مكتوبٌ بأعلاها بخطٍّ عريضٍ غير جميل «عالم الموبايل شوب» ومكتوبٌ تحتها بخطٍّ أدق وأبشع: قطع غيار، تصليح، اكسسوار، بيع وشراء واستبدال، كروت شحن. وتحت ذلك كله، مكتوبٌ بفرشاةٍ صغيرة ويدٍ كانت تهتز: ليس لنا فروع أخرى.

أمضى راضي أشهرًا في ذاك الدكان، كان خلالها يأخذ الهواتف المعطَّلة لإصلاحها بشارع عبد العزيز، الصاخب، بالحيِّ القاهري الشهير: العتبة. ولم يجد في نفسه الميل لمعرفة فن إصلاح الهواتف، لكنه تعلَّم خلال تلك الأشهر قدرًا وفيرًا من تفاصيل الحياة القاهرية، وعرف بعض مباهجها ومآسيها وأسرارها، وأحَسَّ بسحرها الأخَّاذ. وضحك كثيرًا في سرِّه من سماجة «زُوءة» الذي لم يكن يتحدث عن العمل إلا لمامًا، بينما لا يملّ من الكلام عن فتوحاته النسائية ومغامراته مع اللواتي عرفهنَّ أو يعرفهنَّ أو سيعرفهنَّ عما قريب، كأنه بحاجةٍ مُلحّةٍ لتأكيد ذكورته وتفوقه على بقية أقرانه. وكان دومًا يفتخر بأنه لم تستعص عليه من الإناث إلا اثنتان، هذا اللتان تزوجهما تباعًا فأنجب من الأولى وَلَدًا قبل أن يطلقها، والأخرى شبع منها فطلَّقها قبل أن تحبل. كان يحكي بافتخار عن أدق الأمور الفراشية المسكوت عنها، وعن كونه يميل مع ميوله مهما جَمَحَتْ، وعن كونه لم يعرف الحرمان! وغير ذلك مما لا يستساغ الافتخار به، ولا يصحُّ. وكان يصف نفسه في ثنايا كلامه بأنه شخص «سكسمانيا» وهي كلمة لم يعرف راضي معناها،

ولما سأله عنها بعدما سمعها منه مرات، أجابه «زوءة» متبجِّحًا بقوله: يعني باموت في النسوان.

بعد مرور عامين وبضعة أشهر من تركه العمل بالدكان، سوف تضحك «أُمنية» حين يحكي لها راضي عن صاحبه هذا، ثم تخبره وهي تبتسم بأنه مجرد شخص تافه، بل فادح الجهل. وما وصف نفسه به، هو أحد الأمراض النفسية التي تحتاج العلاج، والمصاب به يسمى «مكس مانيك» وتكون شهوته الجنسية غالبًا... قاطعها راضي بقوله وقد سخنت فجأة وجنتاه، لأنهما كانا آنذاك في زمن البدايات المخملية، الخجول: خلاص يا أُمنية، خلاص، عيب الكلام ده.

وحكى راضي لأمنية أنه بعد الأشهر التي أمضاها في هذا العمل الممل، الذي كان يكفي بالكاد حد الكفاف، اقترحت عليه جارته «سمسمة» أيام كان الودُّ بينهما موصولًا، أن يعطي أبناء الجيران دروسًا خصوصية في التاريخ والجغرافيا، عوضًا عن المدرس السابق الذي نجح في الهجاج من البلاد.. تردَّد في قبول الأمر أيامًا، ثم بدأ التدريس الخاص وهو لا يدري أن نجاح تلاميذه سوف يفتح أمامه في السنة التالية، بابًا للرزق الوفير الذي ما كان يتوقَّعه.

في الفترة الأولى من إقامته القاهرية، عرف «راضي» رويدًا أن الحياة في «إمبابة» وبقية الأنحاء القاهرية، ساحرةٌ، ومتنوعةٌ إلى درجة التناقض. وأعجبه أن كل شيء متاح: محادثة النساء بلا وَجَل،

اختلاس النظرات نحو مؤخرات العابرات بلا خجل، تنوُّع أصناف الأطعمة، السهر بمقهى «وادي الملوك» بلا قلقٍ من اللوم، العزوة بين الأقارب، الثراء المحتمل حدوثه، الحرية اللامحدودة، ضفاف النيل، الحدائق.. وجامعة القاهرة.

كان راضي قد مرَّ مرارًا من أمام جامعة القاهرة، وتأمَّلها مليًّا من وراء البوابات والسور ذي القضبان الحديدية، متحسِّرًا على عبثية التعليم الجامعي الذي تلقَّاه سابقًا، وكان قوامه الحشو المؤقت بملخَّصات المقرَّرات قبيل الامتحانات. وتدريجيًّا، تولَّد بداخله حلمُ استكمال دراسته العليا، استغلالًا لتقدير «جيد جدًّا» الذي حصل عليه عند تخرُّجه، ولم يتحصَّل منه ولا من التخرُّج على شيء. الدراسات العليا. اعتقد أولًا أنها أُمنية مستحيلة، فلما سعى وجدها رجاءً مشروعًا وأملًا ممكنًا، وكان لُطف «مدام فايزة» موظفة شؤون الطلاب المسؤولة عن برنامج الدراسات العليا، له أبلغ الأثر في استكماله للإجراءات المطلوبة وإتمامه الالتحاق على نحوٍ ميسور.. وها هو البرنامج الدراسي العالي قد حانت اليوم بدايته.

* * *

من مؤخرة الميكروباص الذي اقترب من جامعة القاهرة، لمح راضي من بين رءوس الركاب وأعناقهم المتعرِّقة، قاعدة التمثال المعروف فصاح للسائق من مقعده الخلفي بالعبارة المعتادة: «هنا يا اسطى لو سمحت».. وبمجهودٍ محدودٍ تملَّص من بين أكتاف الراكبين، حتى تخلَّص من أسر الأنفاس الحارة إلى رحابة الهواء

الطلق. نزل أمام البوابة الكبرى لحديقة الحيوان، وألقى نظرةً سريعةً نحو أعالي تمثال «نهضة مصر» وأزاح عن ذهنه السؤال الذي طفر بخاطره بغير مناسبةٍ ولا توقيت مقبول: لماذا تتجاور حديقة الحيوان وقبة الجامعة ونهضة مصر؟

برشاقةٍ واشتياق، نشطت خطاهُ على الرصيف العريض الملتف حول حديقة الحيوان، وهو مبتهجٌ بأنه الآن يسير على الدرب الصاعد نحو العلوّ ورفعة الشأن. لمح ساعة يده وارتاح حين وجد في الوقت فسحةً، فالمحاضرة الأولى موعدها بعد ساعةٍ، وهو يحتاج فقط إلى عشر دقائق ليصل من مكانه الحالي إلى قسم التاريخ بكلية الآداب، حيث ستبدأ مسيرته نحو الحياة الراقية.. عند بوابة الجامعة استوقفه بحركةٍ من يده فَرْدُ الأمن، الضخم، فقال له «راضي» باعتزازٍ فيه تواضع ومعه ابتسامة: دراسات عليا. أفسح الحارسُ له مجال الدخول، دون أن يطلب الاطلاع على بطاقة الهوية الجامعية.

عبر البوابة بخُطى الواثقين وانعطف يمينًا نحو مباني كلية الآداب، ولما بلغ المدخل الأنيق ارتقى الدرج برهبة العارج إلى الذُّرى.. القاعة الصغيرة نسبيًّا، بداخلها وعند بابها طُلابٌ يتحلّقون بلا انتظام، عددهم يقترب من الثلاثين. ثلثهم من الشباب، والبقية منهم إناثٌ متفاوتةٌ أعمارهن.

هادئًا ومُخفيًا اضطراب قلبه، دخل «راضي» إلى آخر القاعة واستوى على كرسيٍّ منفردٍ من تلك المقاعد المتناثرة بالمكان، وراح يختلس النظرات الخجلى نحو الحاضرين، ويرمقهم

بحذر. زملاؤه الجدد المحتشدون لدى الباب، يتعارفون، وعند النافذة الواسعة المنخفضة تقف منفردةً، فتاةٌ لطيفةٌ. بيضاءُ من غير سوء، رشيقة القوام، أنيقةُ الهندام. رجَّح راضي أنها مسيحيةٌ لأن شعرها مكشوف، وأنها قاهريةٌ لأنها واثقة الهيئة هادئة النظرات. ولابد أنها ابنة ضابطٍ كبيرٍ أو مسؤولٍ مهم، لأنها تبدو غير قلقةٍ وبالأحرى مستهينة بما يحوطها، ولا ينتابها أيُّ اضطراب.. سوف يعرف «راضي» بعد حينٍ، أن ترجيحاته كلها لم تكن راجحة، فهي ابنة أستاذ جامعي سابق وتقيم في بلدة «بنها» القريبة من القاهرة، ومسلمة، واسمها «أمنية».

حين التفتت الفتاةُ ناحية «راضي» وتلاقت النظرات، تبادلا ابتسامـةً هادئـةً متحفِّظـة، عاد بعدها كُلٌّ منهما إلى عالمه المنعزل. وبعد لحظاتٍ، جاء للجمع عاملُ البوفيه ليـ`بر الجميع بأن أستاذهم «دكتـور حفظي» سـوف يتأخر عليهم ساعةً، إلى حين الانتهاء من اجتماع القسم.. تعالت الهمهماتُ، وتتالت على الرجل طلبات المشروبات، وقلَّ الاحتشاد الذي كان لدى الباب.

المفروضُ والمتوقع حسبما كان «راضي» يظنُّ ويتوهَّم، أن الذي يبدأ الكلام بين الأغراب من الجنسين ويفتتح الحوار، هو الشاب. وهو طبعًا لن يفعل ذلك، لفرط حيائه وانعدام خبرته بحكم فروض نشأته، ولأن الجمال الرائق الوقور له هيبة. ولهذا، فقد ابتهج واندهش عندما قرَّبت الفتاةُ الأنيقة الحسناءُ كرسيًّا، وجلست إلى جواره وهي تقول بنبرةٍ متبرِّمة، ملطَّفة بضحكةٍ خافتة: من أوَّلها تأخير.. وكأنها أدركت بطريقةٍ خفية أنه شخصٌ خجولٌ، فبادرته

بالسؤال عن اسمه وسنة تخرُّجه، وحين أجابها عن سبب اختلاف لُكْنة لسانه. فأخبرها عنه بقدر ما سمح به حالُ الابتداء، وأخبرته عنها ببعض الأمور العمومية.

أثناء حديثها معه، ومع حرصه على غضِّ البصر بقدر المستطاع، استراحت عيناه لملاحة ملامحها، واستطابت أذناه صوتها الهادئ مستريح النبرات، المريح للروح. الأنوثةُ ساحرةٌ بطبيعتها وبلا شرط القابل، والمليحاتُ من الإناث سحرهن وافرٌ، واعدٌ، من دون منح عهود.

قبل تمام الساعة الخامسة عصرًا بدقائق قليلة، أقبل الطلابُ نحو مقاعدهم دَفْعةً، ودخل خلفهم الأستاذُ منهكًا معقودَ الحاجبين صارمَ القسمات، وفور جلوسه بدأ محاضرته قائلًا إن برنامج الدراسات العليا، تختلف طبيعته عن المقررات الدراسية التي اعتاد عليها الطلاب في مرحلة الليسانس. والدراسات العليا تحتاج منهم أمورًا لا غنى عنها أهمها الصبرُ على المواصلة، والالتزام بالمنهجية العلمية، والجدية في البحث، واحترام التخصُّص.. نقر الأستاذُ بطرف قلمه مرتين على سطح الطاولة العتيقة، ثم أضاف أن معاناة العمل الأكاديمي تقترن بمتعة المعرفة ولذة الاكتشاف، وأن التوثيق الدقيق والمنهجية الرصينة، هما أهم صفة لازمة للباحث. وبعد أمثلةٍ كثيرةٍ أكَّد بها ما سبق وفصَّل مجمله، ختم كلامه بأن المجلس الأعلى للجامعات دعا الأقسام العلمية المرتبطة بالتراث القديم، إلى الاهتمام بالمخطوطات.

ـ يعني إيه مخطوطات يا دكتور؟

نظر الأستاذ نحو السائلة السمينة لينة الصوت والنظرات، بصبرٍ يوشك على النفاد، وأجابها من دون ضيقٍ واضحٍ بأن المخطوطات هي الكتب القديمة التي كانت تُنسخ على يد الورَّاقين قبل اختراع يوهان جوتنبرج الطباعة. رفع «راضي» يُمناه طالبًا التعقيب وحين سمح له الأستاذ بايماءةٍ هادئةٍ، قال إنه قرأ مقالةً منشورةً على الإنترنت، تؤكد أن الطباعة كانت معروفة في جنوب شرق آسيا قبل مطبعة جوتنبرج بمئات السنين.

هَزَّ الدكتور «حفظي» رأسه الصلعاء وهو يقول برفق إن «الإنترنت» في ذاتها ليست مصدرًا موثوقًا للمعرفة، ومع ذلك فالمعلومة صحيحة، وهناك بحوث أكاديمية كثيرة أثبتت هذه الحقيقة. نظرت «أُمنية» نحو «راضي» برضا وعادت السائلةُ السمينةُ سيَّالةُ النظرات للكلام، قائلةً بنبرةٍ فيها دلال وليس فيها ذكاء: والمخطوطات دي يا دكتور نهتم بيها إزاي يعني، وممكن نلاقيها فين؟.. فأجابها الأستاذُ باقتضابٍ وجبينٍ مقطَّب:

ـ موجودة في دار الكتب المصرية، وفي المكتبات القديمة.

بدون استئذان وبحماسٍ مفاجئ قال «راضي» إن بمنزلهم في الصعيد مكتبةً كبيرةً فيها كتبٌ قديمة ومخطوطات، ثم استدرك قائلًا للأستاذ: أنا آسف لحضرتك على المقاطعة.. ردَّ عليه الدكتور «حفظي» بصوتٍ مجهد، مؤكِّدًا أنه لا بأس من المناقشة في هذه المحاضرات، بل هي واجبة. وسكت لحظةً قبل أن يسأله بلطفٍ عن اسمه، وعن كيفية وصول هذه المكتبة لمنزلهم.

ـ اسمي عبد الراضي، والكتب دي تخص جدّي «عبد المحسن» عليه رحمة الله. كان قاضي شرعي في محكمة دِشْنا، وكان معاه شهادة «العالمية» من الأزهر.

ـ جميل. ابقى اتكلم في الموضوع ده مع الدكتور «سيد فؤاد» هوَّ أستاذ مادة الوثائق والمصادر التاريخية، وموجود دايما في غرفة اجتماعات الأساتذة. وكفاية كده النهارده يا حَضَرات، أشوفكم الأسبوع الجاي.

همَّ الأستاذُ بالقيام مُنهيًا محاضراته، فتحلَّق حوله عددٌ من الطلاب وراحوا يتقرَّبون إليه بالكلام معه، بلا اعتبار للإجهاد البادي عليه. وتباعًا، قام بقية الطلاب ولملموا متكاسلين أوراقهم، ليهبطوا الدرج خَلف زملائهم المحيطين بمُعلمهم.. وهو يتهيّأ للذهاب متمشيًا بمناقشته مع الأستاذ، نظر «راضي» نحو «أمنية» فوجدها تهز رأسها أسفًا، وعلى شفتيها ابتسامة لا تدل على الرضا. سألها عن السبب باهتمامٍ بريء، فأجابته مرحبةً باهتمامه بأن القطار فاتها، وسوف تضطر إلى البقاء في المحطة حتى الثامنة والربع مساءً، وهو موعد آخر قطار ينطلق من القاهرة إلى بنها. حديثها الهادئُ الودودُ بدا كأنه إذنٌ صريح بمواصلة الكلام، وأكَّد ذلك إشراقُ شفتيها بما يشبه الابتسام، ولمعانُ عينيها ببريقٍ أَخَّا . تشجَّع راضي فاستأذن منها، متأدبًا، أن يصحبها إلى محطة القطار.

هزَّت رأسها راضيةً مرضيةً، ومتجاورين وهادئين هبطا الدرج وهما يتحادثان، مثلما تحادث نسماتُ الغروب أطراف الشجيرات.. خرجا من مبنى الكلية، إلى الحديقة الصغيرة الموصلة

لبوابة الجامعة، إلى الأرصفة الواسعة والشوارع المؤطرة بعوالي الأشجار وشواهق البنايات، إلى محطات «مترو» الأنفاق الأنيقة المختبئة تحت سطح الأرض. وصعدا من محطة المترو المسماة عند الناس «رمسيس» وكانت الحكومة تسميها «مبارك» ثم صارت تسميها «الشهداء». ودخلا من هناك إلى محطة القطارات الرئيسة وجلسا عند الطاولة الأبعد، بالزاوية اليمنى المواجهة لباب كافتيريا المحطة.. ساعتان سريعتان، وكانتا عند «راضي» من أجمل ما مرَّ به من لحظات الحياة، حتى إنه توهَّم أن أيامه التي اعتقد دومًا أنها جافة بطبعها ويابسة، قد اخضرَّتْ أرضُها وأزهرت.

تحادثا ببراءةٍ طفولية، وطمأنينةٍ، وكان كلامهما المتدفق يسبق أفكارهما فينساب بينهما رقراقًا، فيه شفافيةُ البوح وراحةُ الوضوح. عرف «راضي» منها، أن أباها كان أستاذًا بكلية العلوم لكنه لم يعد يعمل بالجامعة، وأنه إنسانٌ هادئ باهرُ الذكاء، واسعُ الاطلاع، يهوى الرصد الفلكي ويهيم مسحورًا بأسرار الكون العلوي، اللانهائي، الغامض. وهو بحسب وصفها، أذكى وأطيب وأجمل إنسان في العالم. سألها «راضي» عن سبب ترك أبيها للعمل بالجامعة، فأجابت بسرعة بأن الوظائف اضطرارٌ وهو غير مضطر. لم يفهم مقصدها، لكنه آثر الصمت مراعاةً للرفق المرافق عادةً للبدايات.

تحدثت عن أبيها بافتخارٍ وشغف، وذكرت عنه تفاصيل كثيرة بحماسةٍ ومحبةٍ وانحياز، وحكت عن أمها بإيجازٍ وبغير انبهار. فلم تزد عن أنها موظفة بوزارة التضامن الاجتماعي، لكنها لا تكاد

تذهب لعملها المجاور لبيتها إلا سويعات معدودات كل أسبوع، لأن مديرها «وكيل الوزارة» ابن عمها. ولأنها ليست في احتياج للراتب الحكومي الهزيل، الهزلي، ومع ذلك تظن أن الوظيفة تستكمل شخصيتها. وهي حسبما وصفتها «أمنية» بمرحٍ ماكر: حنون ومسالمة، تنظر للحياة بعين البساطة وعدم التعقيد وتحياها على نحو رتيب. تقضي الصباحات مع صاحباتها بنادي بنها للتجديف، والأمسيات مع قريباتها بالنادي الرياضي، ولا هواية لها أو لهنَّ إلا متابعة عروض الأزياء التلفزيونية والمسلسلات المملة، والحديث عن وجبات الطعام المبتكرة التي تقدمها برامج الطبخ، مع أنهنَّ لا يطبخن عادةً في بيوتهنَّ، ويتباهين بترك هذه المهمة لخادماتٍ وطباخاتٍ مقيمات وغير مقيمات.

وعرفت «أمنية» عن راضي أنه جاء إلى القاهرة من الصعيد بعد تخرُّجه، وبعدما ضاقت عليه سُبُل العيش في الصعيد وانعدمت. وأنه ينتمي لجماعة عائلية عريقة وممتدة، معروفة باسم «أولاد عمرو» وفي أصلهم وسبب تسميتهم اختلافٌ، ما بين قائل إن جدهم الأعلى هو فاتح مصر «عمرو بن العاص» وقائلٍ إن جدهم أحد الأشراف، يعني من آل بيت النبوة، كان اسمه الشيخ عمرو. وبعض خبراء التفاخر واللاشيء، يؤكدون أن كلا القولين صحيح، لأن جدهم الشيخ «عمرو» كان من ذرية عمرو بن العاص، وكان شريفًا من جهة أمه.. وأولاد عمرو «بَدَنة» يعني عائلات كثيرة، تسكن بلدة كبيرة تسمى باسمهم في مركز قنا، لكن «راضي» لم ينشأ بينهم، لأن جده الرابع «القاضي عبد المحسن» انتقل للعيش بإحدى القرى الصغيرة بمركز «دشنا» اسمها نجع العزوة، ليكون

قريبًا من محل عمله بمحكمة دشنا، واشترى هناك عشرة أفدنة أقام بطرفها بيتًا واسع الأنحاء، وأنجب من الأولاد ستةً ورثوه، وثلاثَ إناثٍ تزوَّجن في الأنحاء المحيطة.. سألته مندهشةً عن السبب في عدم توريث البنات، وضحكت مستغربةً حين أجابها بأن المعتاد في الصعيد ألا يرث الأرض والبيوت إلا الأبناء الذكور، ثم اكتسى وجهها بالجدية حين قالت، خفيضة الصوت ومتأدِّبةً بقدر ما قدرت:

ـ بس كده ظلم.

ـ دي تقاليدنا يا أُمنية.

ـ عادات وتقاليد غريبة. كويس إني مش صعيدية، المهم، احكي لي عملت إيه لما جيت من الصعيد.

أخبرها بأنه عانى في البداية بعض الشيء، وعاش شهورًا صعبة تناوشته فيها صوادمُ المدينة الحاشدة، وأدهشته خلالها المباهج القاهرية. وصار بعد حين راضيًا بحياته الجديدة، الحرة، وساعده أقاربُه القاهريون الذين ما كانوا يعرفونه، فعمل في البداية بدكانٍ لخدمات التلفونات المحمولة الذي يملكه «زُوءة».. ضحكتْ أمنية بلطفٍ حين سمعت هذا الاسم، واستكمل كلامه حاكيًا أنه بعد ذاك العمل العقيم اشتغل شهرين مشرف عمالٍ مع مقاول هدد، براتب أسبوعيٍّ زهيد، ثم صار يعطي دروسًا خصوصيةً لتلاميذ المرحلة الإعدادية، ثم الثانوية. ومدخوله المالي الآن جيد، ولهذا ينوي الاستمرار في التدريس للتلاميذ، حتى يحصل على الدكتوراة ويدرِّس لطلاب الجامعة.

سألته عن أمه، فأجاب بأنها توفيت عندما كان في منتصف السنة الثانية من المرحلة الثانوية، وكاد ينصرف آنذاك عن التعليم ويصرف النظر عن استكمال طريقه، لغلبة الأسى عليه، لولا أن العناية الإلهية أدركته..

- يعني إيه العناية الإلهية؟

- يعني رحمة ربنا. وعلى فكرة، أنا أول ما شفتك النهارده افتكرتك مسيحية. وبعدين عرفت إنك مسلمة، لما قلتِ اسمك.

- بس أنا مش مسيحية ولا مسلمة، بعدين أفهّمك، لازم نقوم حالًا.

أسرعا الخطى حتى لحقا بالقطار الذي صفَّر إيذانًا بالرحيل، وقبل أن يبتعد بها أخبرته بأنها ستأتي غدًا في قطار العاشرة والنصف صباحًا، ويصل القاهرة بعد قرابة أربعين دقيقة، وسوف تبقى في مكتبة الكلية حتى يأتي موعد المحاضرة في الرابعة عصرًا. فأخبرها وهو مبتهجٌ، بأنها سوف تجده غدًا عند وصولها عند باب المكتبة.

في طريق عودته إلى حُجرته الجُحرية بحارة الرمش، ظل ذهنه مشغولًا بما أشارت إليه من أنها ليست مسيحية ولا مسلمة.. كيف.. ربما تقصد أنها ليست متدينة، ربما.. لكن ذلك في النساء خطير، فالمرأةُ حسبما يعلم الجميع لا تكون فاضلةً إلا حين تخاف من ربها، ومن أبيها وعائلتها، ثم من زوجها. لكن «أمنية» تبدو فاضلة، وذكية. فربما تكون من أتباع إحدى الديانات غير المعروفة، كهذه الديانة الغريبة. ماذا تُسمى؟ آه، اسمها البهائية والبابية. أهي ديانةٌ واحدة، أم اثنتان بينهما صلة؟ لا أعرف. سأبحثُ عن حقيقة هذه الديانة،

فلابد لي أن أكون مستعدًا حين تفصح لي عن حقيقة معتقدها. ولكن ما أدراني بأنها كانت تقصد فعلًا البابية أو البهائية؟ يجب الانتظار حتى يتضح الأمر غدًا. لا أطيق الانتظار حتى يتضح الأمر. ولعلها لم تقصد أصلًا أي شيء، أو ربما كانت تمزح. لا، لا يصح المزاح في أمور الدين.. ما الذي كانت تقصده؟ لقد أخطأتُ. كان يجب أن أركب معها القطار فأحظى منها بأربعين دقيقة إضافية، أو ساعة، ونسير معًا إلى بيتها. وبعد توصيلها الممهَّد لوصالها، أبيتُ في أحد الفنادق الصغيرة في «بنها» أو حتى في أحد المساجد هناك، وأعود معها غدًا إلى القاهرة.. ما هذا الذي يجري معي، ولماذا أشتاق إليها بقوةٍ وأنا لم أرها إلا اليوم، ولم يمتد حديثنا إلا ساعتين أو ثلاثًا. لعلني عرفتها روحيًا قبل وجود هذا الوجود، عندما كانت الأرواح جنودٌ مجندة من قبل أن يوجد هذا الكون. ابتسامتها صادقة صافيةٌ وفاتنة، وضحكاتها الخافتة الساحرة تسلب العقل والقلب والروح والإرادة.. وعيناها.. وشعرها اللامع الناعم.. ونعومة كفيها. متى سأنام؟ لا أريد أن أنام.. كأنني جُننتُ.

قبل انتصاف الليل، رأى «راضي» من الواجب عليه أن يراسلها هاتفيًا للاطمئنان على وصولها سالمةً، ففعل، فتحادثا وامتدت بينهما المكالمة الهاتفية المتلهِّفة أكثر من ساعة، ولولا مقاطعة أمها للمحادثة الحانية، لدام الكلام بينهما حتى الصباح. حديثها شهيٌّ مبهجٌ. أخبرته بأنها تحب اللكنة التي يتكلم بها، وطريقة نطقه للحروف، ولم يخبرها بأن صوتها يغوص في داخله ويحلِّق بروحه، ويُسكره. ولما سألها ليطيل بينهما الحوار، عما تود أن تتعمَّق فيه من أنواع الدراسات التاريخية، قالت: التاريخ القديم جدًّا.

ـ يعني إيه القديم «جدًّا».

ـ يعني تاريخ ما قبل التاريخ.

ـ آه، تقصدي نشأة الحضارات؟

ـ لأ، أقصد ما قبل الحضارات. شوف يا راضي، إحنا دايما نتجاهل حاجات مهمة في التاريخ، مع إنها محتاجة وقفة..

ـ زي إيه مثلًا؟

أسهبتُ في الإجابة عن سؤاله الأخير، بما خلاصته أن هناك أمثلة كثيرة تؤكد التجاهل القَصْدي للبدايات. فنحن على سبيل المثال، نبدأ التاريخ المصري القديم بالملك «مينا» موحد القطرين، ونكتفي بإشارة سريعة إلى ما كان قبله من زمن تأسيسي، نُسميه إجمالًا «عصر ما قبل الأُسرات» ونتجاهل أنه كان قبل موحد القطرين. قطران أو مملكتان، يحتاج ظهورهما إلى حيز الوجود زمنًا طويلًا ربما امتد لآلاف السنين. وكذلك نفعل، حين نبدأ تاريخ العراق بالممالك السومرية المبكرة، وتاريخ الصين بالإمبراطوريات الأولى. ولا يمكن فهم التاريخ الإنساني، إلا بعد دراسة البدايات الأولى والتاريخ القديم «جدًّا» أو ما يمكن أن نسميه: تاريخ ما قبل التاريخ.

ـ أيوه يا أُمنية، بس فين المصادر؟ إحنا بنعرف التاريخ بالآثار والنقوش القديمة والكتابات..

ـ وبالعقل والمنطق كمان يا راضي. يعني لا يمكن نفهم أي

شيء في التاريخ، حتى لو كان تاريخ حديث ومعاصر، إلا لو عرفنا أصوله والصورة الكلية للأسباب المؤدية للأحداث. أصل مفيش حاجة بتظهر كده فجأة، من غير شروط إنتاجها.

ـ أيوه طبعًا، بس كده إنتِ هتخرجي من مجال التاريخ، وتروحي حتة تانية خالص.

ـ قصدك الأنثربولوجيا والفلسفة؟ صح. وعلشان كده أنا دلوقت مهتمّة بالأنثربولوجي، وناوية بعد الدكتوراة أسافر أوروبا، وأعمل دكتوراة تانية في فلسفة الحضارة.

ـ ياه. بس ده مشوار طويل وهيحتاج سنين، هتشتغلي إمتى بشهاداتك؟

ـ واشتغل ليه؟!

ـ ليه. علشان العمل واجب، العمل عبادة.

ضحكتْ برقةٍ آسرةٍ فأشاعت بقلب «راضي» الرضا وأضاءت بسماواته نجوم البهجة، ثم قالت بلطفٍ إن العبارات معتادة التكرار مثل «العمل عبادة، العمل حياة، العمل كرامة، العمل فرض، لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد» هي مجرد مخادعات. فالإنسان لم يوجد في هذا الكون المليء بالمدهشات، لكي يكدح. طبعًا للإنسان احتياجاتٌ ضرورية وأخرى ثانوية، وعليه أن يجد وسيلة لتلبية احتياجاته، فإن تيسَّر له ذلك بدون العمل، استطاع أن يعيش بعمق ويستمتع بعمره، ويعرف معنى العالم المحيط به ويدرك أسرار الكون، فإذا لم يتيسَّر له ذلك فهو مضطرٌّ

للعمل بالقدر اللازم للوفاء باحتياجاته. ولكن أصحاب السلطة منذ القدم يؤكدون دومًا وبطرقٍ متعددة، ضرورة العمل في المطلق، كأنه هدف في ذاته. لأن جزءًا من ناتج عمل المحكومين والمؤمنين، يذهب إلى الحاكم والمتحكِّم، أي إلى السياسي ورجل الدين، فيضمن كلاهما العيش في رفاهية ويستمتع بالحكم وطاعة التابعين، وبالناتج من عمل الخاضعين سواءً كانوا عبيدًا يعملون بلا أجر، أو أناسًا عاديين يتقاضون أجورًا يتقاضى الحاكم الدنيوي والمتحكم الديني، نسبةً منها على شكل ضرائب أو جزية أو مكوس أو زكاة وصَدَقات، وهو ما يضمن له رغد العيش في بحبوحةٍ ورفاهية ومظهرية كاذبة، يوفرها له الذين يعملون برغبتهم لأنهم مخدوعون، أو اضطرارًا لأنهم مهددون بالعقوبات. ولأنها مجرد مخادعات، تجد الذين يعملون كثيرًا ويكدحون طويلًا، هم الذين لا يحصلون عادةً إلا على أقل القليل، في حين تجد الحاكمين والمتحكمين هم الأثرياء وذوي الدخل الوفير، مع أنهم الأقل عملًا وبذلًا للمجهود. أما هؤلاء الذين ينهمكون في العمل لأنهم مهووسون بجمع المزيد والمزيد من المال، فهم مرضى بحاجةٍ للعلاج.

قاطعها قائلًا: والوظائف.. فقطعت عليه من فورها طريق المقاطعة بقولها: عبودية مستترة، كل الموظفين عبيدٌ بنسبٍ متفاوتة، وتروس مختلفة الحجم في آلة إنتاج.

ـ كلامك غريب.. يعني..

ـ لحظة يا راضي، ماما بتنادى عليا. هاسيبك دلوقت، ونكمِّل كلامنا لما نتقابل بكرة الصبح.

وضع إلى جانبه هاتفه الموصول بالشاحن وسرح بناظريه في

أعالي جُحره، وهو لا يرى شيئًا. وطال به ذهوله حتى أحسَّ بدوارٍ لذيذٍ فأغمض عينيه وقال بصوتٍ هامس، بالعامية، وقد أدركه الإجهادُ: وآخرتها يا راضي، هتعمل إيه مع البنت القمر دي، ودماغها المصفَّحة؟

صباح اليوم التالي، الخميس، وبعد طولِ ترقُّبٍ اقتربت «أُمنية» من الباب الهابط إلى البدروم الذي فيه مكتبة الكلية، بعدما كانت عقارب الساعة قد سارت متكاسلةً بشكلٍ يغيظ، حتى بلغت الثانية عشرة ظهرًا. حين لمحت «راضي» واقفاً ينتظرها بقامته الفارعة، وقميصه الجديد الأنيق، أضاء الفرحُ ملامح وجهها الصبوح وأسرعت نحوه بخطوها، وبروحها. وحين لمحها من قبل أن تلمحه، كاد قلبه المتوثب بين ضلوعه يعلو بأجنحة الخفقان حتى يمس السماء. لكنه الآن لا يريد شيئًا من السماء، فمراده الأوحد يمشي على الأرض مقبلًا نحوه. امتدحت أناقته، فردَّ مداعبًا: والله يا فندم ده العادي بتاعي.

- يا سلام، وإيه اللي مش عادي؟

- الجبَّة الصعيدي والشال.

- الله، نفسي أشوفك وانتَ لابسهم..

- إن شاء الله، لما نروح الصعيد.

من فرط الاشتياق المبهم، راحا يتحادثان كأن بينهما معرفةً عميقة وصحبةً مديدة، وبدا لهما من الأوفق قبل دخول المكتبة أن يتناولا مشروبًا من منفذ البيع الذي خَلف قبة الجامعة، ويجلسا هناك وقتًا قليلًا. وصار القليلُ كثيرًا، فاستطالت الجلسة لأربع

ساعاتٍ مرت مثل الأحلام ولمح البصر، حتى أزف فجأة موعدُ المحاضرة. فور جلوسه خلف القبَّة وفي يده الكوب الكرتوني المملوء بقهوة البن، وفي يدها كوب صغير فيه «الإسْبرسّو» قوي النكهة، وسعيًا منه لمداعبتها، نظر «راضي» عاليًا وهو يقول ممازحًا: تحت القبة شيخ! فجاوبته غير موافقةٍ وهي تهز رأسها الجميل: لأ، القبة دي تحتها رئيس الجامعة، وعلى فكرة هوَّ قريب ماما، بس من بعيد.

لم يعقِّب «راضي» على معلومة القرابة، لا من قريب ولا من بعيد، وحكى لها عن انطباعاته القوية يوم رأى فجرًا، قبة الجامعة هذه. وحكت له عن حرص أبيها على استكمالها الدراسة العليا، وتباهي أمها وتفاخرها بذلك أمام معارفها مع أنها لا تحب القراءة، ولا تميل إلى البحث.. وجرت جداولُ الحوار الحلو بينهما، صافيةً رقراقة، حتى استفهم منها عن إشارتها المحيرة إلى معتقدها الديني أمس، فاستمهلته وسألته عما فعله بعدما أنهيا المهاتفة الليلية المتأخرة. تردَّد لحظةً ثم باح بأنها أبهجته بحديثها، وبعد المكالمة بقيت معه في خياله. وباح خَجِلًا بأنه لم ينم منذ الأمس، فقد بقي محلقًا في أنحاء بعيدة حالمة حتى جاء إلى الجامعة في التاسعة صباحًا، وانتظرها عند باب المكتبة. أدهشها مجيئه المبكر وانتظاره الطويل بلا داعٍ، فجاوبها بأنه أحبَّ أن يتزامن خروجهما من البيت، هناك وهنا، فيكونا معًا من قبل أن يلتقيا.. أطرقتْ خجلى، وبعد برهةٍ همست إليه بقولها: بس كده كثير يا راضي.

امتد الصمتُ بينهما حينًا، ثم انكسر جداره مع سؤالها المباغت: مالك يا راضي ساكت ليه، أكيد بتفكَّر في حاجة مهمة، صح؟ فأجاب

من فوره بمسكنةِ المستسلم: حاجة مهمة جدًّا، إنتِ. ضحكتْ بحياءٍ واستغراب من إجابته السريعة ولمعتْ عيناها، فاشتد من حوله سطوعُ النهار وخَفَت في أذنيه صخبُ الطلاب المحيطين بهما.. وتوهَّم أن الأوان قد حان للبوح الصريح بينهما، فهمس إليها بأنه يريد أن يعرفها أكثر. سألته عما يريد معرفته وهي تُميل وجهها الباسم بدلالٍ، فأجاب من فوره مندفعًا: كل حاجة. اتسعت ابتسامتها، وهي تقول إن معرفة كل شيء، أمرٌ مستحيل. فاستدرك قائلًا بالعامية الجنوبية: قصدي يعني، أهم الحاجات.

ـ ممكن تسألني، وأنا أجاويك بكل صراحة.

بالنفي أجابت على أسئلته الثلاثة الأولى، التي مفادها: هل سبق لكِ الزواج أو الخطبة؟ هل أنتِ حاليًّا مرتبطة بعلاقة عاطفية؟ هل يزعجكِ اقترابي منكِ؟.. وحين همَّ مجددًا ليسألها السؤال الرابع، الأهم، حذَّرته مداعبةً بقولها وقد ازداد لمعانُ عينيها وبريق حُسنها الخلاب، إنها سوف تلقي عليه أسئلةً بعدد أسئلته، ولابد أن يجيب عليها بصراحة.. فضحك وهو يقول: ربنا يستر.

بدا له أن الحال يسمح، فأعاد عليها رجاءه أن تخبره بديانتها، فنظرت نحوه متعجبةً من إصراره. وخشي أن يزعجها هذا الأمر، الذي يزعجه، فسكت على مضض وهو يتحسَّر على فوات الفرصة. إذ كان الأوْلى به، حسبما يظن، أن يبدأ أسئلته السابقة بالاستفسار عن معتقدها، وعن معنى قولها إنها غير مسلمة ولا مسيحية.. لا يبدو مع صفاء روحها أنها ملحدة، أو مرتدة عن الدين الحنيف، ولا يعقل هذا أصلًا.. الدين مهم، بل هو الأهم.. فهو مفتاح باب القربى

منها، والارتباط الأبدي بها، والهناء.. هو بطاقة الولوج إلى الأرض، والارتقاء إلى السماء.

ساد بينهما صمتٌ هادئ هنيهةً، راحت خلالها هذه الأفكار تدور برأس «راضي» وتديره في مختلف الجهات. أما «أُمنية» فكانت في تلك الأثناء، شاردةَ الذهن فيما طرحه جيمس فريزر بكتابه «الغصن الذهبي» المغلقة عليه حقيبةُ يدها الكبيرة، الأنيقة، إذ كانت تقرؤه صباحًا في القطار. كان كلٌّ منهما يدور وحده في فَلَكِ، وقد بُوعِد بين المدارين. فكيف يلتقيان؟

عقب انتهاء المحاضرة، همس لها بأنه لم يعد قادرًا على مقاومة انجذابه إليها، فابتسمت راضية، وبغير صَدٍّ نصحته بالتريث. تشجَّع، فأضاف أنها ذات جاذبية ساحرة فاتسعت ابتسامتها وهي تقول إن الجاذبية قوة في المنجذب، لا الجاذب. وبخجلٍ صادقٍ أضافت: أنا كمان منجذبة ناحيتك، بس لازم الأول نعرف بعض أكتر، وبعدين نشوف.

أطلق الفرحُ لسانه بعد عبارتها الأخيرة، لأنه لم يدرك مرادها، فقال متحمسًا إنه سيذهب معها إلى محطة القطارات. ويجب أن يفوتها القطار كما حدث بالأمس، فيبقيا في كافتيريا المحطة حتى موعد القطار الأخير، ثم يركب معها إلى «بنها» لأن غدًا الجمعة إجازة وبعد غدٍ لا محاضرات فيه، فسوف يبقيان بلا لقاء حتى يوم الأحد.. سألته مستغربةً اقتراحه: وهترجع من بنها إزاي؟

ـ المواصلات كتير.

ـ لأ، كده تعب عليك. حرام.

ـ بالعكس، حلال جدًّا ومريح جدًّا، المهم تكوني مبسوطة بالصحبة.

ـ طبعًا، هاكون مبسوطة جدًّا. وعلى فكرة، فيه مكان حلو عند المحطة، اسمه كافتيريا «إفرست».

فور وصولهما إلى الموضع العالي الذي اقترحته، طلبت منه «أمنية» ما لم يفهم سببه، إلا بعد يومين. إذ أخذت وهما يجلسان بالكافتيريا بطاقة هويته الشخصية المسماة «الرقم القومي» والتقطت لها صورةً بتلفونها المحمول، ثم صوَّرته هو صورة شخصية. وحين التقيا صباح يوم الأحد، أعطته دفترًا صغيرًا فيه صورته مطبوعةً، ومكتوبًا على غلافه أنه «اشتراك كيلومتري» مدفوعُ القيمة مقدمًا، يسمح له بركوب الدرجة الأولى بالقطارات لمدة ستة أشهر.. اندهش مما فعلته واستغرب أن تسدِّد هذا المبلغ الكبير لاستخراج الاشتراك، واعترض، فلم تزد حرفًا على قولها الحاسم: خلاص يا راضي، دي هدية بسيطة.

بعد أسبوع من يوم لقائهما الأول، انتظمت الأحوالُ بينهما، فقد صار «راضي» يعطي لتلاميذه الدروس الخصوصية طيلة يومي الجمعة والسبت، حيث لا محاضرات ولا أمنية. وفي الأيام الخمسة الباقية يذهب ساعة الضحى إلى محطة القطار، وحين تصل محبوبته يصحبها إلى الجامعة، ويرجع معها مساءً إلى «بنها» ثم يعود وحده إلى القاهرة بآخر قطارٍ، أو في سيارة ميكروباص. وكانا عند وصولهما إلى «بنها» يفترقان قبل خروجها من محطة القطار، تلافيًا لعيون الذين يعرفونها، ومراعاةً لما هو سائد من عاداتٍ علنيةٍ وتقاليد

مظهرية. وكانا في معظم الأيام يقضيان الساعات الرائقات التي تسبق ركوبهما القطار، في كافتيريا فندق «إفرست» حيث الشرفة، شاهقة الارتفاع، المطلة على ميدان المحطة. ويومًا من بعد يوم، عرفا الطريق إلى المتنزهات القليلة بقلب القاهرة، فتطاوفا في حدائق الحرية والأندلس والحيوان والأسماك والأورمان والأوبرا. وتطرَّفا في أيام المحاضرات الملغاة، فزارا الأنحاء القاهرية المتباعدة مثل منطقة الأهرامات وقلعة الجبل ومسجد الحسين والأحياء الفاطمية والمملوكية. ولأنهما في زمن الابتداء البريء، كانا كثيرًا ما يشعران أثناء التجوال الحُرّ في الأنحاء، بأنهما يملكان الكون. ولكن، لا أحد يملك الكون، بل لا يملك أحد كونه.

وبعد شهرٍ من يوم لقائهما الأول، ذكَّرته بأنه مدينٌ لها بالإجابة الصريحة على ثلاثة أسئلة، فقال مستخفًّا ومبتسمًا إنه مستعدٌّ للإجابة على ثلاثين، وقهقه بتلقائيةٍ صبيانية. لكنه سرعان ما عَبَس واكتست بالجدية الصعيدية ملامحه، حين صدمه سؤالها الأول عما إذا كان قد عرف سابقًا، العلاقة الكاملة مع امرأة؟.. تلعثم في ابتداء كلامه وهو يؤكد لها أن هذه العلاقات في الصعيد، غير متاحة لغير المتزوجين، لعدم الاختلاط وقلة وقوعه. وسكت لحظة ثم قال بصوتٍ خفيض ونبرة خجلٍ، إنه كان يستحضر في أحلام يقظته الليلية المحمومة، معظم اللواتي يعرفهن. وأخريات غيرهنَّ، كان يخلقهن في خياله ويجعلهنَّ طيِّعات. ولما سكن بالقاهرة، وقعت الأمورُ المخجلة مع جارةٍ له في حارة «الرمش» كان زوجها الهزيلُ يجمع بين وظيفته الحكومية البائسة نهارًا، ووظيفةٍ مسائية في بوفيه مكتب مقاولات. كان اسمها سُميَّة، لكن الكل ينادونها باسم

سمسمة. وهي امرأةٌ فتيةٌ عتية، ضحوك لعوب، عمرها في حدود الثلاثين سنة، على وجهها مسحةٌ من الملاحة وحُسن القَسَمات، ولها من المثيرات القوامُ المتقن والعنفوان والعينان الصريحتان.

بعدما أفاض بغير داعٍ، انتبه «راضي» إلى أن أُمنية تسمعه باهتمامٍ وفير وفي عينيها نظرةٌ جادّة، بل بالغة الجدية، فظنها غَيْرى. ابتلع ريقه وأبطل رنين هاتفه بأصابع تضطرب، ثم استأنف الحكاية على جهة الإيجاز قائلًا إن «سمسمة» صادقته ثم راودته عن نفسه في بيتها، فاستعصم وانصد عنها وانصدع. إذ صدمته لحظة الهَمِّ بها، نصيحةُ أبيه: الحرام واعر، حَدّ الله بينًا وبين الحرام.. واكتفى راضي بذكر ما سبق، ولم يجد داعيًا لإخبار محبوبته بالمزيد، ولا وجد لديه جرأة لحكاية ما جرى بعد ذلك من إخباره لربِّ عمله «زُوءة» بما كان يحدث من سمسمة. فكان ذلك سببًا في سعي رب العمل إلى رية المتعة، وفوزه بها فور لقائه العابر بها في عُرسٍ شعبيٍّ صاخبٍ أُقيم بشارع «عسران» واستطاعا خلاله خلسةً، بعد تبادل كلمات التحية وتبادل النظرات تبادل أرقام الهواتف.

سكت راضي بعد البوح، المنقوص آخره، وتنهَّد كأنه كان يصعد الجبل الشرقي بالصعيد.. عاد الابتسامُ لمخايلة شفتَي «أمنية» وبدت بعينيها تلك النظرة السمحاء، الولهى، فصارت أرقَّ وأشهى. سألته سؤالها الثاني المريحة إجابته، عن سبب اشتغاله بالدروس الخصوصية، وكيف اكتسب خلال عامين سمعته الجيدة في هذا المجال؟.. أجابها بلا اجتزاءٍ ولا حرج، بأن العام الجاري هو عامه الدراسي الثالث، وليس الثاني. وقد صار أمره إلى هذا المسار بغير

قصد، ففي الفترة القاهرية الأولى كان يعمل لدى مقاول هدم هربًا من ملل العمل في محل التلفونات المحمولة، وكانت نهاية العام الدراسي ستأتي بعد شهرين، وأيامها اقترحت عليه «سمسمة» أن يساعد بالتدريس ابنة جارةٍ لهما، سافر مدرسها الخصوصي بلا سابق إنذار. ففعل. ولما طلب منه بعضُ أقاربه ومعارفه الجدد مساعدة أبنائهم بالتدريس لهم، لأن مدارسهم لا تعلم شيئًا ومدرِّسهم الخصوصي التعيس سافر إلى البلد النفطي فجأةً. وقد وجد «راضي» في ذلك فرصةً لرد الجميل لأقاربه بعد مؤازرتهم له في أيامه القاهرية الأولى، واجتهد مع التلامذة فاجتازوا امتحانات التاريخ والجغرافيا بنتائج جيدةٍ، ما كان الأهل يتوقعونها ولا اعتادوا من قبل على مثلها، فتحدثوا بذلك. وفي العام التالي، كثر عليه الطلب فجعل تلامذته في مجموعات، وصار يعطي بعض دروسه لأبناء الساكنين في الأحياء الأرقى من «إمبابة» مثل الدقي والمهندسين والجيزة، وبأجرٍ أعلى بطبيعة الحال. ولما جاءت نتائج الامتحانات مُرضيةً لذويهم، بل مبهجة، دخل عليه العام الدراسي الحالي بعملٍ كثير ومالٍ وفير.

ـ كويس. بس ليه ساكن لحد دلوقت في إمبابة؟ انت تقدر تسكن في مكان أحسن وأقرب، زي الدقي؟

ـ هوَّ ده سؤالك الثالث؟

ـههه، لأ يا نصَّاب، ده بقية السؤال التاني.

لم تسأله ثالثًا، فقد توقف بينهما الكلامُ حين جلسا متجاورين في القطار، وكانت العربة قليلة الركاب على غير المعتاد، فمسَّ بظاهر كفِّه ظاهرَ يدها اليمنى ثم تداخلت من خلفِ أصابعهما، فأسبلا

الجفون كأنهما نائمان وراحا يمرحان بالتحليق في آفاقٍ بعيدة، كلٌ منهما في سماء ذاته.. تمنَّى «راضي» دوام هذا الهدوء الداخلي والسكينة، واضطرب قلبه حين وصل بهما القطارُ إلى محطة بنها، إذ كان يتمنى أيضًا أن يسير بهما القطار، بلا وصول، حتى آخر الزمان.

وبعد شهرين من لقائهما الأول، ارتفعت بينهما معظم الأستار والاستارات والحُجب، وأحبَّا البوح، فحكى لها عن دقائق حياته الأولى بالصعيد، وكيف أمضى الليلات الطويلات يحدِّق في النجوم حتى كاد يجن. لأنه بعد وفاة والدته صار ينام منفردًا على السطح الفسيح لمنزلهم القائم منفردًا عند طرف النجع، وكان يشعر أيامها بأنفاس أمه قريبةً من شعر رأسه، وأحيانًا يرى روحها كخيوط دخانٍ ترتحل عنه متوغلةً بين مجموعة نجمات الثريا. قالت له «أمنيه» إن كثيرًا من النجوم البادية لنا على صفحة الليل، لم تعد الآن موجودة، وهذا الذي نراه هو ضوء انفجارها الذي حدث بالسديم الكوني، قبل أن تخبو وتختفي منذ أعوامٍ يُعد بعضها بالملايين. اندهش وسألها إن كانت متأكدة مما تقول، فضحكت وهي تقول إنها مجرد معلومة عامة. وأردفت أنها مغرمة بالفلك وأبوها أستاذٌ متخصِّصٌ فيه، وهما يتناقشان طويلًا في الأمور الفلكية. فتذكر «راضي» أباه، والصمت الفاصل دومًا بينهما.

وحكت له أن جدّها لأبيها كان مهندسًا مرموقًا، ومن رجال الأعمال المعروفين، وكان قد اشترى في شبابه بأطراف «بنها» أرضًا واسعةً. وبعد سنواتٍ أقام فيها مجموعة بنايات ضخمة، من تلك التي يسميها الناس «الأبراج» فتضاعفت ثروته وتضخَّمت، ولما توفي قبل ست سنوات ورثه أبوها وأختان له من أمٍّ أخرى. فاقتسم أبوها

الميراث مع أختيه بالتساوي، ومن يومها اختلفت الأحوال. فقد ثارت أمها لأن أباها لم يطبق الشريعة في اقتسام الميراث، وحنقت عليه لأنه لم يحقِّق لها رغبتها في شراء شقة بأحد الأحياء القاهرية الراقية، كي تتباهى بها بين قريناتها الثريات. ثم احتدَّ حنقها عليه عندما ترك عمله بالجامعة، وتفرَّغ للتأمل والبحث الحر.. سكت «راضي» ولم يعقب على كلامها بشيء، لأنه لم يستوعبه بشكل كامل، فقالت:

ـ مالك ساكت كده، وسَرْحان؟

ـ لا، أبدًا. بس يعني ما قادرش أفهم، ليه ما طبَّق شرع الله! وليه يترك وظيفته؟

وهو مبهورُ النظرات بما تقول، وغير قادرٍ على فهمه بشكل تام، استمع «راضي» لما لخَّصت به «أمنية» وجهة نظر أبيها، العجيبة، ومفادها أنه يرى الشرائع منذ قوانين «حمورابي» ونصوص «الخروج إلى النهار» ووصايا «أحيقار الحكيم» هي مجرد وسائل تهدف لتحقيق العدالة والسلام بين البشر، لكن معظم الناس وخصوصًا الجهلاء منهم، ينسون الهدف والغاية ويتشبثون بالوسيلة. الجهلُ جعل الوسائل غايات. ومن المجحف في الزمن الحالي، أن ترث المرأة نصف مقدار الرجل، فأحيانًا تكون التزاماتها المالية أثقل وطأةٍ من أخيها، كما هو الحال مع عمتيها اللتين أنجبت إحداهما أربعة والأخرى ثلاثة، وأم الأبناء الثلاثة أرملة. ولهذا يأخذ الحكماءُ الروحانيون بما قررته بعض المذاهب الدينية، من اقتسام الميراث بالتساوي دون تفرقة بين الإناث والذكور.

ـ بس كده غلط شرعًا، وحرام.

ـ وهوَّ يعني يا راضي، مش غلط وحرام، إنكم في الصعيد بتحرموا البنت من ميراثها؟

ـ لأ.. أصل يعني.. والله عندك حق! بس الناس هناك خلاص، تعوَّدوا على كده من زمان.

ـ تبقى مسألة عادة، مش شريعة أو دين.

ـ جايز.. طيب ليه ترك الوظيفة؟ ومين الحكماء الروحانيين دُول؟

بصوتٍ خافتٍ قالت إن أباها أحسَّ بالاستغناء عن العمل، وبأن ما صار لديه من المال يزيد عن مقدار احتياجه الحالي والمستقبلي. والجامعة لم تعد كما كان يتمنى ويحلم، وصارت حالتها المتدهورة تصيبه باليأس والأسى، وليس بيده أن يصلح الأمور لكنه يملك أن يتحرر. وهو منذ سنواتٍ يعيش خاليَ البال من صخب الكذب الاجتماعي المحيط بالناس، المتحكم في حياتهم، ويقضي معظم أوقاته في القراءة والتأمل، ويسافر كثيرًا. وأهنأ أيامه تكون في سيوة والواحات، حيث صفحة السماء المسائية أصفى، ورصد النجوم أجمل وأبهى. هذه هواياته التي يحيا بها، ولها.

ـ بس العمل عبادة.

ـ تقصد خدعة.

رنَّ هاتفه المحمول فنظر إليه «راضي» بعين الوجل والرهبة،

وسمعته «أمنية» يردُّ على المتصل بعد تردُّد ثم صمتٍ صاغرٍ، فيقول: حاضر يا بُوي، إن شاء الله في إجازة نص السنة.. لم تسأله، فلم يخبرها بأن المتصل أبوه، وقد قال له بخشونة صادمة: مالك يا ولدي، أنت قطعت خالص، ولّا مش لاقي تمن التذكرة؟ بقالك ستين وعشر شهور ما جيت البلد، إنت إيه يا ولدي، خلاص، نسيت ناسك!

كان موعد المحاضرة قد أزف فقاما إليها مسرعينِ، وانذهل ذهنُ «راضي» عما كانا يتحدثان فيه، وعن الحكماء الروحانيين. وفي اليوم التالي عرفا بعد ركوب «أمنية» القطار القادم إلى القاهرة، أن الدكتور «حفظي» ألغى محاضراته، فأمضيا اليوم كاملًا في حديقة الأندلس المطلّة على النيل، وحين استويا جالسين بآخر الحديقة أخبرها بأنه ينتظر منذ فترة، أن توضِّح معنى قولها في أول لقاءٍ جمع بينهما، إنها ليست مسلمة ولا مسيحية. وأضاف بين الجد والهزل: إوعي تكوني يهودية.

ـ ههه. لأ، ماتخافش.

بألفاظٍ قليلة منتقاةٍ، قالت إن لها معتقدًا خاصًّا ولكنها لا تحب الكلام عنه، فعبس. استرضته بلمسةٍ من أنامل يُمناها على ظاهر كفِّه، وهي تقول بنبرةٍ رقيقة إن المعتقدات شيءٌ شديد الخصوصية، ومعرفة عقائد الناس ليست بالأهمية التي يتوهَّمها. فهي مسألة شخصية جدًّا، ولا يجوز الخوض فيها، لأن ذلك يقود إلى الجدال الذي يؤدي إلى تأجيج الخلاف، وشيوع الكراهية بين الناس. وهذا شيءٌ خطيرٌ، ويجب الحذر منه بحظره.

مغاضبًا، تولَّى راضي بوجهه إلى الجهة الأخرى، وقد كساه أسفٌ

ممزوج بالخجل وقال متحسِّرًا، إنه اعتقد أنهما تقاربا حتى تجاوزا هذه الفواصل الداعية لمثل هذا الحذر. لم ترد، فلم يواصل كلامه وساد بينهما سكونٌ لا سكينة معه، حتى قطعت الصمت بقولها إنها تستغرب إصراره على الخوض في هذه المسألة، ثم أضافت مداعبةً: ويعدين شكلك كده مُش حلو وانتَ زعلان.

ـ ما تقولي وخلاص يا أُمنية.. إنتِ مؤمنة بالإسلام؟

ـ أنا مؤمنة بكل الأديان.

ـ تبقي غير مؤمنة بأي دين.

ثقُل الهواءُ وكثر مرتادو الحديقة، فقاما منها صامتينِ ليمشيا على غير هُدى.. سارا يسارًا، مرتين، حتى عبرا على مهلٍ كوبري «قصر النيل» الذي لا يُفضي طرفاه إلى قصور، واجتازا ميدان التحرير الذي كان سابقًا ساحةً للحرية، واستقرا في ختام التطواف بمقهى أنيقٍ قيل لهما إنه كان فيما سبق، موئلًا للكُتّاب والمفكرين.. خشيةَ الصدام وتلافيًا له، لم يتكلما إلا قليلًا، وتناولا من مطعمٍ مجاورٍ شطائر نباتية الحشو، توافق ذوق أُمنية ولا يرضى بمثلها راضي.

وهما ينتظران القطار في مكانهما المعتاد، العالي، وبلا سببٍ أو تمهيد سألها عن رأيها في الزواج، فاندهشت وعلا حاجباها متفاجئةً وهي تستفهم عن مقصده من هذا السؤال.

ـ أبدًا، بس عايز أعرف رأيك في الجواز.. الزواج.. الرباط المقدس؟

ثبَّت عينيه نحو عينيها ليبدو جادًّا، فابتسمت ثم ضحكت من

طفوليته حين يحنق، إذ أدركت أنه يريد الحديث الحر ليتصالحا. وهي تنظر في عينيه بحنوٍّ يحتاجه همست إليه راجيةً ألا يقسو عليها، فهي لأسبابٍ قمريةٍ ليست اليوم على ما يرام، وبعد يومين ستكون بحالٍ أفضل، وسوف يلتقيان يوم الاثنين القادم كالمعتاد وتحدثه عن رأيها في الزواج، وتخبره عن معتقدها.

ارتبك راضي وسكت، مع أنه ودَّ لو يسألها عما تقصده بقولها «الأسباب القمرية» ومرَّ عليهما آخرُ اليوم بسلام.. ويوم الاثنين المصادف لسابع أيام الشهر الأول من السنة الجديدة التاسعة عشرة بعد الألفين، للميلاد، حدثته بوضوحٍ حين التقيا صباحًا عن رأيها في الزواج ولم تسهب، وبعد المحاضرة أفصحت له عن معتقدها الروحاني.

أخبرته بأنه ليس من الصواب الخلط بين الحب والزواج، مثلما يفعل معظم الناس. لأن الحب عاطفةٌ ومشاعرُ روحية الطابع، أما الزواج فهو تنظيمٌ اجتماعي يلبي الاحتياج الغريزي لإشباع الاشتهاء، ولإنجاب الأطفال وتربيتهم. وهذا غير ذاك. وقد يجتمعان في بعض الأحيان ولكن في أغلبها يفترقان، فيقع النفور بين الأزواج مهما كانوا من قبل عُشاقًا. ولا يصح وصف الزواج بالرباط المقدس، لأنه لا يوجد مقدس إلا ما يعتقده جماعةٌ من الناس، ذات عدد يُعتد به. ولا يوجد مقدس عام عند جميع البشر، فما هو مقدس عند جماعةٍ قد لا يكون مقدسًا عند غيرها. ونظرة المتشددين للزواج، تختلف عن نظرة المستنيرين إليه، وعن نظرة الذين لا يكترثون كثيرًا بالمعتقدات الدينية.

احتج راضي على كلامها بأن الحبَّ مقدَّسٌ عند جميع البشر، أو على الأقل عند معظمهم، وكذلك الزواج الذي يقدسه الناس في مختلف الثقافات، ويحتفون به ويحتفلون. وختم كلامه بالعامية قائلًا: يعني الموضوع بسيط، ومُش محتاج كل الفلسفة دي.

سكتتْ لحظةً، وبدا في أفق عينيها البعيد طيفُ أسفٍ شفيف وحيرةٌ، ثم عادت إليه وهي تصطنع ابتسامةً خَجْلى وقالت بنبرةٍ خافتة فيها صبر الأمهات، إن تبسيط الأمور المركبة يزيدها تعقيدًا. ولابد من التفرقة بين العواطف والمشاعر المتغيرة بطبيعتها لأن القلوب تتقلَّب، وبين المؤسسة الاجتماعية الراسخة المسماة الزواج. لأن رياح الحب هوجاء، بينما الثبات من شروط المؤسسة الاجتماعية الناجحة. فالمسألة مرتبطة في الحب بصدق الإحساس، وفي الزواج بقدرة الشريكين على التكيف.

- شريكين إيه يا أُمنية، هوَّ مشروع تجاري! الجواز حاجة تانية خالص.. الجواز راحة، لذيذة.. وعسل نحل.

- إنت كده بتتكلم عن إشباع الشهوة، ودي حاجة تالتة غير الحب، وغير الزواج.

- خلاص يا أُمنية، خلاص. كل الكلام ده مش مهم، المهم إحنا في الآخر هنعمل إيه.. هتتجوز صح؟

- ههه. نخلص الأول الدراسات العليا، وبعدين نتكلم في الموضوع الحلو ده.. عسل نحل.. ههه.

* * *

في الأسبوع الذي سبق عطلة منتصف العام الدراسي، صار «راضي» مشغول البال بل مخطوف الخواطر، ما بين امتحانات النصف الأول من البرنامج الدراسي، وإشفاقه من وجع الاشتياق المتوقع عند ابتعاده عن «أمنية» لأسبوعين في الصعيد، بعدما اعتاد قربها المؤنس واطمأن إليه طيلة الشهور الأربعة السابقة. كما كان يؤرقه انتقاله المرتقب بعد يومين من جوار جيرانه الحاليين وأقاربه القاهريين، للسُّكنى منفردًا بالشقة الأنيقة الصغيرة التي استأجرها بشارع جانبيٍّ هادئ في حيِّ «الدقي» الراقي. وكان يُربكه كذلك، اضطراره لتنظيم وقته بما يتناسب مع ازدياد عدد التلامذة الذين يعطيهم دروسه الخصوصية، فرادى ومجموعات.

وفي غمرة هذا الخضم، كاد كلام محبوبته عن أفكارها ومذهبها يُذهب بعقله ويوقعه في بحارٍ من الحيرة. مع أن وجودها بقربه في الأشهر الماضية، كان معينًا له وداعمًا في مسارات كثيرة. فهي التي اقترحت عليه أن ينتقل من مقامه الإمبابيِّ، الجُحريِّ، إلى ما هو أرقى وأنسب. وبحثتْ في الإنترنت، حتى أوجدت له شقة «الدقي» الراقية الأنيقة. وهي التي دعته إلى عمل حسابٍ بنكي يُودع فيه مدخراته المخبوءة، ففعل، واستراح بذلك من قلق فقدان ماله. وهي التي نصحته بالتأنق في مظهره وملبسه، بما يناسب كونه مدرسًا خصوصيًّا مرموقًا، وقامت معه بالتجوال بين دكاكين الملابس والمحلات الراقية، فصار مَنْ يعرفونه يمتدحون ذوقه وأناقته. وهي التي ذكَّرته بأن يلتقي «د. سيد فؤاد» للحديث معه عن المخطوطات الموجودة بمنزل أسرته في الصعيد، عساه يجد منها مخطوطة تصلح موضوعًا لرسالته لنيل درجة الماجستير.

صبيحة يوم الثلاثاء الموافق للثامن من شهر يناير، ذهب راضي لمقابلة الدكتور «سيد فؤاد» في مكانه المعتاد بغرفة اجتماعات الأساتذة. إذ ليس لهذا الأستاذ مكتبٌ خاصٌ، لأنه أستاذ متفرِّغ ولأنه ميَّالٌ بطبعه إلى العزلة واعتزال زملائه من أساتذة القسم. كان يجلس وحيدًا وبين يديه طبعة عتيقة من كتابٍ مجلَّد ينظر فيه حينًا، ويحدِّق أحيانًا نحو الفضاء المطل عليه من النافذة. سوف يعرف راضي بعد شهور، سرَّ الأسى البادي دومًا على هيئة وملامح أستاذ المخطوطات، وسبب اغترابه عن واقعه المحيط. فقد عانى هذا الرجل المجتهد، عاثر الحظِّ، كثيرًا في حياته منذ كان معيدًا وحتى بلوغه من العمر السبعين، واعتقل في شبابه بسبب آرائه السياسية وانتقاداته الحادة لإدارة الجامعة. وعاش فقيرًا، لأنه لم يقم في مسيرته الجامعية بأي إعارة، وكان يضايق أقرانه الساعين إلى الإعارات الخليجية استجلابًا للمال، بقوله إن الإعارة مشتقة من مادة «عَرَرَ» التي منها تُشتق كلمات: عَار، عِرَر، عَوَار.. ويزيد غيظهم منه، بقوله إن الإعارة والاستعارة تكون للجماد المادي وليس للإنسان، فمن رضي بها لنفسه مهما كان مضطرًّا، فقد صار جمادًا ماديًّا.

.. جلس «راضي» متأدبًا أمام الأستاذ المتمترس ببدنه الضخم خَلف الطاولة الطويلة، وأخبره بألفاظٍ مهذبة أن الدكتور «حفظي» نصحه منذ فترة بهذا اللقاء. حدَّق فيه الدكتور «سيد فؤاد» من خَلف نظارته السميكة وهو يسأله مستغربًا عن سبب التعجل في المقابلة، مع أنه سوف يدرِّس لهم مادة «الأوعية والمصادر التاريخية» في النصف الثاني من برنامج التمهيد للماجستير، يعني بعد شهر، وآنذاك ستكون لديهما الفرصة لمناقشة هذا الموضوع.

ـ أصل يافندم أنا رايح الصعيد الأسبوع الجاي، بعد الامتحانات على طول، وهاقضي كام يوم هناك. فقلت يمكن حضرتك تحب مثلًا، إني أصوَّر لك مخطوطة معينة.

ـ إنت متأكد إنها مخطوطات، يعني مكتوبة بخط اليد؟

ـ متأكد حضرتك. مخطوطات، وقديمة جدًّا.

ـ فاكر منها بعض العناوين؟

ـ أيوه. فيه كتاب مزخرف من أوله، اسمه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى.

ـ القاضي عِياض اليحصبي، لأ، ده كتاب منتشر جدًّا. فيه إيه غيره؟

ـ تفسير الجلالين، كبير. والقاموس المحيط، كبير برضه. شوف حضرتك هُمَّ في حدود سبعين مخطوطة، وفيهم حوالي عشرة بدون عنوان.

نظر الأستاذ ناحية شباك الغرفة، وقد بدت على ملامحه بعض علامات الاهتمام، وبعد لحظة صمت عاد إلى فنجان قهوته وارتشف منه ببطء، ثم قال لراضي وهو يحدِّق بقوة في قلب عينيه: طيب، وانت هناك اعمل قايمة بالعناوين الموجودة، وصوَّر أول وآخر صفحتين من المخطوطات مجهولة العنوان، وبعدين نشوف. وخُد رقم تلفوني الخاص، يمكن تحب تسأل عن حاجة وانت هناك.

غافلًا عن المخبوء عنه، خرج «راضي» من مكتب الأستاذ فخورًا بنفسه، ومتحمسًا، ومسرعًا ذهب إلى خَلف قبة الجامعة

حيث الموضع المعتاد لانتظار أُمنية. وما كان آنذاك يعلم أن لقاءه هذا بالأستاذ، سوف يقوده إلى مخطوطةٍ تقوده إلى إدراك ما كان قرب هذا المكان قبل ألف عام، وأن ساقَيه المسرعتين تأخذانه الآن إلى حالٍ لا يُحتمل، سوف يظهر له أساه بعد أسابيع، ويمتد معه بقية عمره.

لما جاءت أُمنيته تتهادى مثل رباب الصيف، اقترح عليها أن يعبرا الشارع للجلوس في حديقة «الأورمان» الهادئة، فأمامهما قرابة أربع ساعات حتى يأتي موعد محاضرة «مناهج البحث» المملة. وعندما جلسا في ظل الشجرة العتيقة الواقفة على يسار مدخل الحديقة، أخرجت من شنطة يدها الشطائر الشهية، النباتية، التي تأتي بنوعٍ مختلف منها كل مرة. مازحًا، قال لها راضي إنه لن يأكل شيئًا، وقد يُضرب تمامًا عن كل مأكول ومشروب، حتى تفصح له عن السر المكتوم منذ أربعة شهور. يقصد عقيدتها. وأضاف أنه يخشى أن يكون هذا الموضوع حاجزًا بينهما، وهذا يثير قلقه وخوفه.

ـ لأ، ماتخافش. إحكي لي الأول عملت إيه مع الدكتور «سيد» وبعد كده هاقولك كل حاجة عن الموضوع اللي محيَّرك ده.

قصَّ عليها بسرعة ما كان في الصباح مع الأستاذ، وبقيتْ تنصتُ باسمةً ومستبشرةً بما تسمع حتى انتهى من كلامه.. أطرقت لحظةً رفعت بعدها وجهها الوضاء، وأزاحت بأطراف أناملها ما انساب على وجهها من شعرها. ولما رأته متحمسًا للاستماع، أشرق وجهها بتلك الابتسامة الخجلى التي تكسوه حين تبدأ الحديث، واستهلَّت كلامها بقولها ممازحةً: شوف يا أستاذ راضي، يا عنيد.

راحت عيناه تتسعان مع تزايد دهشته مما تخبره به من أمور تدرَّجت بها من أبسط الأفكار والمعاني، إلى أعقدها وأكثرها رهافةً وإثارةً للاستغراب.. قالت «أمنية» بتمهلٍ، إن البشرية لم تعرف الديانات في البداية، سواءً كانت هذه البداية هي «آدم» التوراتي وحواء، أو «مَشْيا ومَشْيانا» في الزرادشتية، أو غير ذلك من معتقدات تتعلق بكيفية البدايات. ولم تزعم أيُّ جماعة بشرية طيلة المليون عام التي مارس فيها الإنسان الأول «القَنْص» أنهم سلالة تنتسب إلى شخص واحد، هو أول البشر. ولم تظهر هذه الفكرة إلا بعدما اجتمع الناس في وديان الأنهار، ومارسوا الزراعة وتربية الحيوان الداجن والمستأنس، وصارت لهم تأملات في الكون الفسيح. فكانت أولى عقائدهم مرتبطة بالطوطم والتابو، ثم بالألوهة المؤنثة، مع أنه بحسب النصوص الدينية التي ظهرت للناس في الألفَي سنة الأخيرة، كان الإنسان الأول قد تعامل مع الخالق مباشرةً وهناك وقائع ومحاورات جرت بينهما، فكان من الطبيعي أن يأتي معه بالدين الهادي لذريته. باعتبار أنه أولُ البشر. ولكن لم يحدث ذلك، لأن للبشر آباء كثيرين «أوادم» كانوا يعيشون حياةً حيوانيةً لفترة تمتد لعشرات الآلاف بل مئات الآلاف من السنين، حسبما تقول أشهر النظريات الأنثروبولوجية. والمعروف أن الديانات ظهرت بعد نشأة اللغة وبزوغ فجر الحضارات للتعبير عن وعي الإنسان بذاته وبالكون، ولدعم الحياة المجتمعية وضبطها بقدر المستطاع، وسعيًا لتخليصِ البشر من النوازع الغريزية والرغبات الهمجية الموروثة من أزمنة ما قبل الحضارات.

نظرت «أمنية» نحو غصن الشجرة المتأرجح على مقربة منهما،

وارتفع حاجباها قليلًا وهي تهمس بأن هذه الأرض بكل ما عليها، بالنسبة للكون اللامتناهي: لا شيء. وسكتت لحظةً كأن خاطرةً عابرةً مرَّت بجوف رأسها، ثم استعادت استرسالها مضيفةً أن الديانات بعامةٍ، نوعان: هابطٌ برسالةٍ من السماء عبر الوحي والإلهام والكهانة، وصاعدٌ من الأرض إلى الإله بنوعٍ من العرفان أو الغُنوص.

ـ غُموص!

ـ هِهِه، غموص إيه بس يا راضي. غنووووص. دي كلمة قديمة جدًّا، يونانية، معناها المعرفة المباشرة. يعني إدراك الحقائق من غير وسيط، ولا رسول ولا نبي.

ـ وهوَّ فيه ديانات كده؟.. زي إيه مثلًا؟

ـ ديانات كتير، زي البوذية والفيثاغورية والهرمسية.

ـ إيه يا أُمنية! دي كلها ديانات غلط، ومفيش حد بيؤمن بيها بجد.

ـ يا راضي خليك هادي، البوذيين لوحدهم عددهم ٥٠٠ مليون إنسان في العالم.

ـ أنا كده تهت منك يا أُمنية. قولي ديانتك إنتِ وخلاص، بلاش الدوخة دي.

أفهمته بأقصى ما أمكنها من مهادنةٍ وهدوءٍ، أن معتقدها ليس ديانة بالمعنى المعتاد لهذه الكلمة، وإنما هو اتجاه أو مذهب فكري أو معتقد عام يسمى «الحكمة الروحانية المتعالية» وهو منهج تفكير

عام. قديم جدًّا، ومعاصر. يضم أفاضل الحكماء وتابعيهم منذ قديم الأزل، وليس فيه طقوس أو تقديس أو عبادة، إلا التأمل في الكونين. الكبير والصغير. يعني عالم الأفلاك العلوية اللامتناهية، وعالم الكائنات الدقيقة. قاطعها مجددًا، قائلًا بشغفٍ وصبرٍ نافدٍ ومشاعر أخرى متضاربة:

ـ يعني إيه عالم الكائنات الدقيقة؟

ـ شايف ورقة الشجرة الناشفة دي. إنت فاكرها جماد ساكن، بدون روح ولا حركة، لأنك شايفها بالعين المجردة يعني بالحواس، لكن لو شفتها بميكروسكوب إلكتروني، هتلاقي جواها كائنات دقيقة متحركة حركة سريعة، اسمها دلوقتي «كواركس» وحركتها ملهاش اتجاهات محددة، وقبل كده بشوية ظهر مبدأ «اللاتحديد» في الفيزيا عند هايزنبرج.

ـ يووووه. مين «هايزنبرج» ده؟ وإيه دخل الفيزيا في الدين. هوَّ فيه إيه يا أُمنية؟!

حاولت «أُمنية» الحائرة مع مُحبِّها، أن تُرجِئ الحديث إلى حين عودتهما من إجازة منتصف العام، فظهر عليه الحزن الممزوج بأسفٍ وغضب، واشتكى من فرط تسويفها مع شدة اشتياقه لمعرفة الأمر، ومن وفرة اهتمامه به وقلة اهتمامها. استرضته بنظرةٍ باسمة ولمسةٍ حانية من راحتها الحريرية على ذراعه، واقترحت عليه أن تعطيه بعض الكتب ليقرأها على مهلٍ، فيفهم طبيعة مذهبها وقواعده العامة. احتجَّ بأن الامتحانات اقتربت، ولا وقت عنده لقراءة كتب غير تلك المقررة. تذمَّر كطفلٍ جميل فحنَّت عليه كأمٍّ رحوم، وعادت

للتبيان قائلةً بهدوءٍ إن الانفصال بين العلم والدين أدى إلى كوارث كثيرة وخسائر فادحة وحروب طاحنة. ولابد أن يعتني الناس بترقية عقولهم، حتى يتطور عندهم العلم ويبلغ بهم الدين مأموله. لكن أكثر البشر لا يفعلون الصواب الذي فيه صالحهم، لنقص الحكمة فيهم ولعدم اعتنائهم بالمعرفة، ولانعدام إدراكهم للروحانية السارية في الموجودات. ناهيك عن سطوة المتوسِّلين إلى الدنيا بالدين، والمتحدثين كذبًا بلسان الإله المتخيَّل في أوهام العوام.. هَزَّ راضي رأسه كأنه فهم ما قالته، وموافق عليه، فأضافت أن السقف الأعلى للإدراك بالنسبة للنفس الإنسانية العاقلة، هو الحكمة الروحانية المتعالية عن المادة. وأما قاع الوعي في النفوس، فهو المحسوس المادي حيث تكمن النوازع والغرائز والميول العنيفة، الموروثة من زمن الهمجية والجاهلية الأولى.

لم يستطع معها صبرًا، وقاطعها مجددًا بأن قال بغيظٍ كظيم: إنتِ جبتِ الكلام ده منين؟ فجاوبته بأن مذهبها هذا قديم، وله تاريخ ممتد عبر الحضارات المتعاقبة خلال الخمسة آلاف سنة الأخيرة، وله أعلامٌ كبارٌ هم الروحانيون الأفاضل. الشرقيون والغربيون. لكنهم كانوا يسترون عن العوام أفكارهم، صونًا لها عن الابتذال وحتى لا تشيع في غير أهلها المؤهلين لها. وقد تعرَّفت هي إلى هذا الاتجاه ثم اعتنقته عن طريق أبيها، وعرفه هو عن طريق الأستاذ الإنجليزي الذي كان مشرفًا على رسالته للدكتوراه في علم الفلك. وهي عقيدةٌ بلا كتابٍ تتكوَّم حوله شروحه والتأويلات المراوغة. ولكن لها قواعد عامة تتعدَّل دومًا مع تزايد الخبرات الروحانية وتطورها، ومع اتساع الوعي الإنساني بذاته وبالكون اللامحدود. وهذه القواعد العامة

عددها اليوم عشرون، وهي متاحة بمعظم اللغات، ومن السهل الاطلاع عليها عبر الإنترنت. ولها باللغة العربية عدة ترجمات، أجملها الترجمة التي صاغها قبل سنوات قليلة الفاضل «نعيم فهمي».. سألها راضي وهو منفعلٌ، إن كان بإمكانه الوصول إلى هذه الترجمة بالبحث عنها في الإنترنت، فأجابته وهي هادئةٌ: طبعًا، وعلى فكرة الترجمة دي حلوة جدًّا يا راضي، أنا من كُتر ما بحبها حفظتها وتحب تسمعها؟.. فقال من فوره: أحب جدًّا.

نظرت في عمق عينيه مُستريبةً أو متشككةً في قدرته على الاستيعاب، وتحيَّرتْ لحظةً قبل أن تتلو عليه متمهلةً، بصوتٍ رائق النبرات، هذه القواعد العشرين:

* كل ما في الكون اللامحدود، له روحٌ لا مرئية. وللأرواح أغلفةٌ ماديةٌ محسوسة، هي تلك الأجسام الساكنة والمتحركة.

* مآلُ الأرواح إذا تحرَّرت من الحسِّ بالموت الفيزيائي، يكون إلى أقرب ثقب أسود بالكون الفسيح. ثم تلحق بها تباعًا، بقوة الجذب، الموجوداتُ جميعها.

* الجاذبيةُ قوةٌ في المجذوب، لا الجاذب.

* في كل ذَكَرٍ بركانٌ ينشط حينًا، ويخمد أحيانًا، وفي كل أنثى مثالُ الثقب الأسود.

* للروح الخيالُ، والحسُّ للمادة.

* العدُّ التنازلي لفناء واختفاء كل موجود، يبدأ من لحظة الوجود والميلاد.

* الإيجادُ ثم الوعيدُ بالمَحْو والمَحْق، وهمٌ وزعمٌ علويٌّ لا منطقي. لكن قاصري الإدراك يحتاجونه، وقد يَقتلون ويُقتلون من أجله.

* دائرةُ الكون أوسع مما نظن وأعمق، وهي مثل كل الدوائر، لا بدء لها ولا منتهى.

* الناسُ في العموم نوعان، فضلاء وجهلاء. واجتنابُ الجاهل، فرضٌ على الفاضل.

* مجادلةُ أهل المذاهب والمعتقدات في صحة ما يذهبون إليه أو يعتقدون، خَبَلٌ خَطِر. فالعقائدُ مكائدُ متخالفةٌ، وفيها فخاخٌ تستدعي الحذر.

* الشرائعُ والظنونُ المقدسة، وسائلُ جعلها الجهلاءُ غايات.

* الغلو في التقديس، يدلُّ على العطب العقلي.

* التعصبُ في العموم عتوٌّ بشعٌ، لكنه مع الجهل أبشع وأعتى.

* الذي لا يُدرك حقيقة ذاته، ويستوعب تناقضه، ليس بمقدوره معرفة أي شيء.

* لا تكتمل الإنسانيةُ، ولا ترتقي، إلا بالتماسّ السماويِّ بين الأنوثة والذكورة.

* في نفس الإنسان تنوعٌ يتسع، حتى يجمع بين المتناقضات المثيرات للاستغراب.

* نحن في حقيقة الحال، لا شيء اللاشيء، فلا شيء يستحق الحزن. لأن المحزون، وما أحزنه، آيلٌ لا محالة إلى زوال.

* لا يوجد مبررٌ حقيقيٌّ واحدٌ لبدء حرب، وعلةُ معظم النزاعات الواقعة بين الناس، الطمعُ. مع أن الطامع وما يطمع فيه أو يطمح إليه، مسلوبٌ بحتمية الفناء.

* كثيرٌ من الأوائل والسابقين فاقوا بالحكمة، الأواخر واللاحقين.

* الحكمةُ الروحانيةُ المتعالية هي روحُ الحضارات، وهي نورُ المعرفة وسرُّ الفنون.

* * *

أثناء إلقائها الهادئ لقواعد «الحكمة الروحانية المعالية» العشرين، كانت تمسك أطراف أصابع يُمناها بباطن كَفِّها الأخرى، وكان «راضي» مُطرقًا يحدِّق نحو مقدمة حذائه الجديد بعينين تتسعان، وبقلبٍ مفعمٍ بوجيبٍ يضطرب.. ظل ساكنًا، مجتهدًا أن يستجمع عقله لاستيعاب ما يسمعه، حتى أتمت أمنيته المحيرة تلاوتها ونظرت إليه مستكشفةً أثر الكلام فيه. وجدته من بعد سكونه والسكوت الذي استطال، يهز رأسه ثم يقول بالعامية وبمزيج يجمع بين الصدمة والرهبة والدهشة والجد والمزاح: كلام عجيب جدًّا، منِّك لله، قلبتِ دماغي.. وتنهَّد وهو ينظر إلى ساعة يده التي اشترياها معًا قبل أيام، وقال بعدما قام واقفًا: المحاضرة على وَشَك.

سارا إلى مبنى الكلية متجاورين، وصامتين، وفي قاعة المحاضرات جلسا مثلما اعتادا متقاربين في الظاهر، وهما في حقيقة الحال يتباعدان. بعد دقائق جاء الأستاذ وأخبر الجمع أنه سيبقى معهم نصف ساعة فقط، للإجابة عن أي استفسار بخصوص الامتحان، أما المنهج المقرَّر فقد استُوفي في المحاضرات السابقة. انهالت الأسئلة من الطلاب وتخلَّلتها من الأستاذ الإجاباتُ السريعة، وقبل تمام الساعة الخامسة بربع ساعةٍ انصرف الجمعُ صامتين مثل السائرين نيامًا.

وكالهائمين، من فرط الحيرة، خرج راضي ومن خلفه أُمنية.. ومن قاعة المحاضرات إلى محطة المترو إلى محطة القطار إلى مصعد كافتيريا «إفرست» وهما تائهانِ في متاهات الشرود، فلم يتكلما إلا لِمامًا. وحين سألته عن سبب سكوته ردَّ باقتضابٍ بأنه يشعر بصداعٍ غير معتادٍ، وببعض الوجع في معدته. لم تقتنع بهذا التبرير الواهِي، ولم تعقب، ولم يفصح هو عما يثور بصدره ويصطخب في دماغه. كان قد انعكس حاله، فبقدر ما كان في السابق متحمسًا لمعرفة عقيدة محبوبته، صار بعد ما سمعه متوجسًا منها ومما تعتقده. وسعى بصمته إلى اجتناب الخوض في هذا البحر، تحاشيًا للوحشة، مُحتملة الحدوث، لكنه بعد حينٍ لم يجد سبيلًا للهرب بالتجاهل ولم يستطع على الصمت صبرًا.

وهما جالسان بالكافتيريا العالية، متقابلين، كان «راضي» يهيم بنظراته تجاه جبل المقطم الذي بدا أعلاه من مكانهما العالي، قريبًا. احتضنت «أمنية» يُمناه براحتيها، وبرفقٍ لا يخلو من دلالٍ أعادت عليه سؤالها السابق: مالك يا راضي؟

ـ أبدًا، حاسس إني مش تمام، وبافكَّر شوية مع نفسي. آه بالمناسبة. إنتِ مكتوبة في بطاقة الرقم القومي، مسلمة، صح؟

ـ صح، بس عادي يعني. كان ممكن أتولد في أسرة مسيحية، فيكتبوني مسيحية.

غاظه استخفافها بحُجته التي كان يظنها مبهرةً، وأنها ترى الإسلام مثل بقية الأديان، فاحتدَّت ملامحه وهو يقول حانقًا إن الله كرَّمها بالإسلام، فهو الدين الحق. وغيره غلط. قالت له من فورها بالعامية الصريحة، الصادمة: وبعدين معاك يا راضي، حق إيه بس، إنت كان ممكن تتولد مسيحي أو بوذي أو هندوسي أو يهودي، وكنت ساعتها هتقول برضه إن دينك هوَّ الحق، وغيره غلط، وإنت قلت لي قبل كده إنك من ساعة ما جيت من الصعيد، لا بتصوم ولا بتصلِّي، وبصراحة أنا شايفة إن مفيش داعي نتكلم تاني في الموضوع ده، لو سمحت.

الصراحة غير مريحة، ومفجعة.. أحسَّا بأن سماءهما التي كانت دومًا صافية، تكدرت، وأشفقا من فقدان ما بينهما فالتزما بالصمت حينًا، حتى قالت إنها ستلحق بقطار الساعة السادسة والعشرين دقيقة، الأبكر موعدًا، والأفضل ألا يذهب معها كالمعتاد لأن الامتحانات ستبدأ بعد يومين، ويوم غدٍ سوف ينتقل إلى مسكنه الجديد.. مهزومًا، هَزَّ رأسه مستسلمًا كالموافق فقامت واقفةً من فورها، وقبل أن ترتحل عنه ودَّعته بأن مسحت براحتها اليمنى على شعره الخشن بإشفاقٍ، وتركته خلفها

قاعدًا مثل القواعد من العجائز.. لم يقم من فوق كرسيه مدةً بقي خلالها على هيئته مذهولًا، ذاهبَ اللبِّ، معدومَ الرغبة في الذهاب لأي مكان. وبعد ساعةٍ من سكون، لسعته نسماتُ الهواء ورسالةٌ منها وصلته على هاتفه، كتبتْ فيها كلمتين فقط: التعصُّب بشع.

فور وصوله لمأواه مُحطَّمًا من الداخل، وعند دخوله لآخر مرة الحجرة الحفرة في حارة الرمش، رأى جاره الساكن في الجُحر الملاصق يتوضأ على الحوض المشترك بين الغرفتين، فوجدها إشارةً له من السماء، لوصل ما انقطع. وقرَّر أن يصلِّي ركعاتٍ كثيرة، يودِّع بها الفترة التي قضاها بهذا المكان، وأكرمه الله خلالها.. توضأ بعد جاره وأغلق عليه بابه، واكتفى من الصلوات بركعتين سريعتين قام بعدهما لحزم أغراضه. حطامُ دنياه احتوته حقائبُ ثلاث، ليس من بينها تلك المتهتِّكة التي جاء بها من الصعيد، حقيبةٌ منهن للكتب الدراسية وما يرتبط بموضوعاتها من المراجع والمصادر وحقيبتانِ للملابس وما يمكن نقله.

وهو جالس على سريره، وعلى سبيل التشاغل عما يشغله والتأسِّي المقاوم للأسى، أحصى مرتين ما يملكه من مالٍ وابتسم بمرارةٍ حين انتبه إلى أن دخله من الدروس الخصوصية، صار يبلغ في الشهر أكثر مما يتحصَّل عليه أبوه من الأفدنة الثلاثة، في سنةٍ كاملة. الحمد لله. الله رحيمٌ بعباده فعلًا ويجعل لهم من بعد العسر يُسرًا، ويرزق من يشاء بغير حساب، وينصر الصابرين. فلماذا تتمردين على الدين يا أُمنية، وتتوهَّمين أن الأديان سواسية! هل الإسلام الحنيف مثل المجوسية النجسة؟.. يعبدون النار! هل يحب المجوس أن يشويهم الله في نار جهنم؟!

قام مندفعًا إلى هاتفه، وكتب لمحبوبته رسالةً نصُّها: يا أُمنية، يا أغلى شيء في حياتي، هل أنا متعصب لأني أدافع عن ديني؟ وهل الإسلام الحنيف، مثل المجوسية النجسة التي تعبد النار؟.. وبسرعةٍ لافتة، مع أن الليل قد انتصف، ردَّت على رسالته كأنها أعدَّت الجواب قبل أن يصلها السؤال.. كتبتْ إليه: اسمها الزرادشتية، وهي تقدس النار ولا تعبدها، ولعلمك يا راضي، هناك تطابق كبير بينها وبين الإسلام، كبير جدًّا، مع أنها أقدم منه زمنًا بعدة قرون.

احتار راضي، وتقاذفته أنواءُ الخواطر. أُمنية متعبة ومجهدة للذهن ومتمردة، مع أنها هادئة الملامح ومليحة وذكية. لعل الذكاء في النساء ليس من المميزات، ولعل الكتب الأجنبية التي تقرؤها هي السبب في تشوش ذهنها. وهي عاقلةٌ جدًّا، لكنها تدفعني للجنون. ومع ذلك حنون. وراقية ورقيقة، ومع ذلك قويةٌ وتصيبني بالارتباك..

بعد هذا الهمس لنفسه بغير صوت، راح يحادث ذاته بصوتٍ خافتٍ خائف: حرام عليك يا راضي، أُمنية زي الفل، بس دماغها ملخبط شوية. الكمال لله وحده. اصبر عليها وطوِّل بالك، هيَّ بكرة تعقل، والذكاء مش عيب يعني. وانت لا يمكن تطيق واحدة بقرة. أُمنية قمر. يا ترى تنفع زوجة لطول العمر؟ طبعًا تنفع ونص. هي الوحيدة في حياتك، وهي فعلًا المناسبة لك. ويكرة هتعقل وتبطل كلامها العجيب ده. قال الروحاني قال. ههه. روحاني ومتعالي وحكمة! أستغفر الله العظيم. ربنا بس هو الروحاني المتُعالي والحكيم.

نام يا راضي، نام.

* * *

مثلما جاء راضي أول مرةٍ إلى «إمبابة» فجر يوم جمعةٍ، كان رحيله عنها ليسكن شقَّته الجديدة. جاءه «حسَّان أبو هريدي» سائق التاكسي بعد صلاة الفجر، وقت خلوِّ الشوارع من الباعة المتزاحمين والمشترين، فأوقف سيارته بشارع «عسران» على ناصية حارة الرمش، وساعد في نقل حقائب راضي الثلاث ثم انطلق به وبها في الشوارع الخالية، فوصل بعد عشر دقائق إلى منطقة «الدقي» الراقية وقد أطلت على دنيانا شمسُ يوم الجمعة الموافق للحادي عشر من شهر يناير كانون الثاني. وبعد مساعدته لراضي في إيصال الحقائب للطابق الخامس، بالمصعد، انصرف السائق باسمًا، وفي يده المبلغ المتفق سابقًا عليه والزيادة المسماة «الإكرامية».

أغلق راضي عليه الباب، وفتح النوافذ الثلاث وباب الشرفة. وابتسم. الشقة ذات الغرفتين الواسعتين رحبةُ الأنحاء، أنيقة الأثاث، تطل من علٍ على أعالي أشجارٍ كبيرة.. بعد دقائق استفاق راضي من غمرات البهجة والشعور بأنه صار مرموقًا، وأسرع إلى حقائبه فأفرغ ما فيها إلى مواضعه وهو يبتسم أحيانًا ويضحك أحيانًا ويلهث أحيانًا، حتى مرت ثلاث ساعاتٍ أغلق بعدها نوافذه وباب شرفته، وفي صالة الشقة ارتمى من فرط الإرهاق على الأريكة الأمريكية الوثيرة، وراح إلى راحة النوم.

وقت الظهيرة أيقظه جرس الباب، فقام راضي مندهشًا ومتسائلًا عمن يدق الآن جرس الباب؟ لعله بواب العمارة، أو الحارس الجالس في مدخلها متأنقًا بالسترة الزرقاء.. خفق قلبُه بقوة واضطرب باطنه، حين وجد «أمنية» لدى الباب، وخلفها البواب يحمل أكياسًا خفيفة منتفخة مكتوبًا عليها كلمة «مترو» بحروف لاتينية. قالت ببساطة إنها

أحضرت البقالة! وطلبت من البواب أن يضع الأكياس على طاولة الصالة، ونفحته، فخرج مبتهجًا وهو يزجي لها الأدعية المعتادة، وأغلق من خلفه باب الشقة. وقف «راضي» شبه مدهوش، وبقي على اندهاشه وهي تضع أكياس البقالة بالمطبخ والثلاجة الكبيرة، كأنها في بيتها، ولما انتهت من هذه المهمة جاءت إليه وجلست بجواره وهمست إليه بأنها لم تشأ أن تتركه وحده، في هذا اليوم المميز..

ـ بس يا أُمنية. البواب والجيران، هيقولوا علينا إيه؟

ـ ولا حاجة، همَّ مالهم ومالنا..

لم يفهم، فأفهمته أن سكان هذه المناطق الراقية يعيشون على نحوٍ قريب من النمط الأوروبي، ولا يتدخل أحدهم في حياة الآخرين. استغرب من معرفتها بذلك، ومن رضاها عنه، ولم يطمئن تمامًا لما قالته فسألها فجأةً، عما سيقوله الناس عنهما إذا تزوجا بعد فترةٍ؟ فسوف يعتقدون أنهما عاشا في الحرام قبل الحلال.. احمرت وجنتاها إذ بُوغتت بفجاجة كلامه، وأجابته متبرِّمةً بأن لكل شخص أن يعتقد في نفسه ما يشاء، ولكن ليس من حقِّه أن يتدخل في حياة غيره.

لم يقتنع، وأحزنه ما أضافته بعد لحظة صمتٍ لم تطُل، من أن ترديده لمسألة زواجهما وكأنه نهاية محتومة، هو شيء سخيف! وهي لا تفكر فيه، لأنه أمرٌ مستبعد. قال بلا روية إنه يحبها ويشتهيها ويود قضاء العمر معها في الحلال، فصدمته بقولها إن الحرام والحلال أحكامٌ ومفاهيم متفاوتة، تختلف باختلاف الجماعات وقناعات الأشخاص. وأرادتْ دفع التوتر عنهما فقامت من أمامه وأجالتْ النظر فيما حولها، ثم مسَّت كتفه بيدها وهي تدعوه لتعريفها بالشقة

وشرفتها والغرفتين.. تماما مراتٍ وهما يتحركان في الأنحاء، فرحَيْنِ، وفي غرفة النوم مخملية الإيحاء لم يمكنهما مقاومة الإغواء المعتق بسوابق الاشتياق، فتقاربا، وجرفهما تيار النهر الدافق في الدم وأنساهما ما عداهما. ولقد هَمَّ بها، فأهدته بشفتيها أشهى ما يمكن أن تمنحه فتاةٌ فاتنةٌ، مُحبَّة، لفتى مفتون بها.. ومرَّ عليهما الوقت كلمح بالبصر، وبعدما جَنَّ الليلُ هَبَّا مسرعين لتلحق أُمنية بآخر قطارٍ مغادرٍ القاهرة إلى بنها.

* * *

مَرَّت أيام الامتحانات بسرعة، وكانا في كل يوم منها يخرجان من لجنة الامتحان إلى شقة «الدقي» فيقضيان وقتًا هنَاك، هانئين، حتى يأتي المساءُ فتسرع أُمنية إلى منزلها البعيد. وعرف راضي خلال تلك الأيام أن القرب من أُمنية، أجمل وأشهى وأبهى مما تخيَّل، وكان في كل قربٍ منها نوالٌ يحدوه إلى مزيدٍ من القرب ومن النوال. وفور انتهاء أيام العنفوان وإتمام الامتحان، اتصل راضي عصرًا بأخته وأخبرها لتخبر الآخرين بأنه سيصل عندهم مساءَ اليوم التالي، فتصايحت في أذنه فَرِحةً. وفي الموعد الموعود به، نزل من القطار الفاخر في محطة «نجع حمادي» وبعد مفاوضةٍ سريعة، استأجر كأبناء الأكابر سيارةً تذهب به وحده، إلى باب بيتهم في «نجع العزوة».

زحامُ المحطة وبؤسُ الوجوه الجامدة، وسكون الغيطان المثقلة بعيدان قصب السكر الكثيفة، وخِلْفَتُها، والذكرياتُ. كلها أمورٌ توحي إليه بأن هذه النواحي لم تتغيَّر، ولن، وبأن الصعيد ليس فيه سعيد إلا هؤلاء الصبية الذين يمرحون عند حواف القرى والنجوع، بحريةٍ

مؤقتة، غافلين عما يتربَّص بهم بعد حين.. تسارعت مع عجلات العربة المستأجرة أفكاره، وتلاحقت الخواطر والواردات: الحيواتُ حظوظٌ محيرة لا ضابط لها، وليس لها صلة بعدلٍ أو عدالةٍ أو وعدٍ أو وعيد.. لو كانت أُمنية معي الآن، لأبهجتها هذه الأنحاء، ولكانت قد طلبت زيارة مناطق الآثار وانبهرت عندها مثل السائحات الأجنبيات.. لماذا يسحر الماضي سعداء الحاضر، أما البؤساء فلا شيء يعجبهم في حاضرهم أو في الماضي؟! لو كانت أُمنية معي لطوَّفتُ بها في تلك البرابي، وصعدتُ بها الجبل الشرقي حيث تتناثر مغارات فيها قطع أثرية مبعثرة، ولكنتُ قد عبرت بها إلى غرب النيل لترى دندرة. ولكانت الفرص قد سنحت لنا للوصال والنوال، في حنايا الجبل وخلف الأحجار الكبار، وفي الكهوف الكبار والمغارات الصغار، ووسط حقول القصب، وعلى سطح بيتنا في جوف الليالي وقبيل الفجر. وكنت سأُبقيها طيلة الليل بغرفتي السطوحية المغلقة علينا، عاريةً إلا من الوهج والاشتهاء الذي لا يطفئه ارتواء. آهٍ يا أُمنية.. فور بلوغه البيت، وقبل وجبة الغداء المثيرة للشهية والحنين، قدَّم هداياه القاهرية لأبيه ثم لأختيه وأطفالهما، ثم لزوجة أبيه التي قبعت في الزاوية خجلى، مُسدلةً ستر رأسها على وجهها كأنها تستحي من ملامحها، ومن وجودها بهذا العالم.

أتى صوت المؤذن لصلاة المغرب، فدعاه أبوه للصلاة بالمسجد ليُسلِّم على الناس، فيسعدوا بعودته. فطلب «راضي» إرجاء ذلك إلى الصباح، ليكون في حالةٍ أفضل. على مضضٍ وافق أبوه وذهب لتأدية الفرض، وقامت خلفه زوجته وتوارت عنهم حتى عاد أبوه بعد أداء صلاة العشاء. أثناء غيابهما همست لراضي أختُه الكبرى،

بأن زوجة أبيهم مَلَصتْ حملها العام الماضي، وهي الآن حُبلى مجددًا. جمدت ملامحه واعتراه قلقُ الالتحاق بالخدمة العسكرية، الإلزامية إذا أنجبت زوجة أبيه ولدًا. لكنه بطبيعة الحال، لم يجرؤ على الإفصاح عن قلقه الذي ازداد على مائدة العشاء، عندما عرف أن أباه هدم الغرفة الصغيرة القديمة، وفي مكانها بنى على سطح المنزل غرفةً فسيحة خصَّصها لراضي كي يبيت فيها حين يزورهم، ويُسكن فيها امرأته حين يتزوج..

ـ لسه بدري يابُوي على موضوع الجواز.

ـ بدري! الكلام ده تقوله البنات. خلِّيك راجل. وما دام ربنا أكرمك، يبقى الأمر وجب. ولَّا يمكن ناوي تقعد لحد ما تتجوز من بحري وتعيش هناك على طول، وتنسى عادْ أهلك وديارك. لا يا ولدي، إوعاك. وعلى رأي المثل: أهلك، لتهلك.

ـ ربنا يقدِّم ما فيه الخير، بس الأول أخلَّص الدكتوراة.

ـ أيوه يعني، ودي هتخلص بعد سنة مثلًا، ولَّا اكتر؟

ـ أكتر شوية، وحسب ما ربنا يسهل. دعواتك يا حاج. وعلى فكرة، أنا عايز أصوَّر شوية حاجات من كتب جدي، الأستاذ في الجامعة طالبها مني.

ـ وماله، بكرة صوَّر له المطلوب. تصبحوا على خير.

في أول نهارٍ له بالبلدة رأى «راضي» الناس ظهرًا، والكتب صباحًا وعصرًا، وتناول وجبة العشاء العائلي في بيت أخته الكبرى فاستعاد فمه

طعم البط الشهي، الذي يكاد ينفزر منه ما فيه من الفريك. وقبل انتصاف الليل اتصل بمحبوبته ولم تطل المكالمة، لأنها كانت تستعد للسفر فجرًا مع أبيها إلى «سيوة» حيث سيقضيان في قلب الصحراء أسبوعًا.

وفي النهار الثاني، أحضر من قريةٍ مجاورةٍ صاحبَ دكانٍ يبيع المستلزمات الدراسية، ولديه ماكينة التصوير. وخلال عدة ساعات قاما بعمل نسخة مصوَّرة من المخطوطات مصفرة الأوراق، التي بدتْ مهمة. وفي أول الليل وقبل منتصفه اتصل بأمنية، فلم ترد عليه في المرتين، فقدَّر أنها في الطريق أو لعلها وصلت وترتاح من تعب السفر.

وفي النهار الثالث خطرت له فكرةٌ جامحة ونفذها، إذ اتصل تلفونيًّا بالدكتور «سيد فؤاد» وسرد عليه ما وجده من العناوين، ثم سأله عما يجب تصويره من بقية المخطوطات. وقبل أن يُنهي المكالمة التي دامت نصف ساعةٍ، أخبره «راضي» بأنه وجد أربع مخطوطات بلا عنوان وغير مجلدة، فرجَّح الأستاذ أن تكون قيمة هذه المخطوطات الأربع متواضعة، ولكن عليه على سبيل الاحتياط أن يصوِّر منها أول وآخر ورقتينِ، وأي أوراق أخرى داخلية يرى فيها تواريخ أو تعليقات هامشية موقعة.. وفي المساء اتصل «راضي» مراتٍ بمحبوبته البعيدة ليخبرها باشتعال اشتياقه إليها، ويحدِّثها بما جرى مع المخطوطات والأستاذ، فلم ترد. وبعدما بلغ به القلق مداه واهتاجت هواجسه، اتصلت به في وقتٍ متأخر لتخبره بأنها لم ولن تذهب إلى سيوة، فقد جَدَّ جديدٌ أدى إلى إلغاء الرحلة، ولسوف تخبره بالتفاصيل حين يعود ويلتقيان بالقاهرة، لأن أمها ملاصقة لها معظم الوقت بشكلٍ حسبما وصفته: خانق.

في النهار الرابع انتهى من المهمة التي طلبها الأستاذ، ولم

بعد أمامه في النهار الخامس إلا الملل، والأمل في انقضاء اليوم بسرعة ليعود في الغد إلى «أمنية» وإلى أمانيه ومستقره القاهري الجديد، ويعاود الدروس الخصوصية التي تدرُّ عليه ما لا تغلّه أرضُ الأجداد. أمضى ساعات الظهيرة ساكنًا على سطح البيت، ولم يعد لديه في ليلته إلا الانزواءُ بالغرفة السطوحية المستلقية فوق بساط الاسوداد، والإنصاتُ إلى السكون الموشَّى بصفير صراصير الحقل، واحتضان إحدى الوسائد ثم النفور من سخونتها. وبينما هو يتقلَّب فوق وَخزات ولَسْعات سرير السُّهد، سمع صراخًا يأتي من الجهة القبلية، مشوبًا بالعويل الذي لا يكون إلا على الموتى. هبَّ إلى صحن الدار مرتجف الوجدان، فوجد أباه يضع على كتفيه العباءة ويهمُّ بالخروج من البيت مسرعًا.

ـ خير يا بُوي؟

ـ عمك الحاج «هريدي الديب» اتوفى فى المستشفى، الله يرحمه ويحسن إليه. هيدفنوه بكرة بعد صلاة الضهر، أنا رايح لعندهم.

ما هذا؟! موتٌ متأخر، ودفنٌ بالنهار، وعزاءٌ في المساء! يعني لا يمكن العودة للقاهرة إلا بعد تأدية الواجب. العزاءُ يستمر هنا ثلاث ليلات، ولا بد من حضور ليلة منها على الأقل. ما هذا الحظ العاثر العابث العابس؟! أما كان يمكنك يا حاج «هريدي» أن تبقى حيًّا ليوم واحد، تضيفه إلى عمرك الذي استطال حتى تعدَّى الثمانين عامًا؟! أمري لله، أعودُ للقاهرة بعد غدٍ، اللهم احفظ الأحياءَ أحياءً حتى أنفلت من هنا.

في النهار التالي ثقيل الوطء، أتم راضي حزم حقيبته مبكرًا، وغلَّف بورقٍ مقوى ما صوَّره من المخطوطات، وذهب ظهرًا مع المشيعين إلى المقابر القريبة، واستلقى للقيلولة فأطال النوم حتى غابت شمس النهار. وعقب صلاة العشاء، جلس مع المعزين ثم انسلَّ من مجلس العزاء للاستعداد للسفر صباحًا. وكان في غمرة انهماكه في ترتيب المخطوطات المصورات، قد استوقفته بعض العبارات في بداية مخطوطة بلا عنوان، فلما وجد أن الوقت قد تأخر والنوم يستعصي عليه، نزل إلى خزانة الكتب بالطابق الأرضي وجلب من هناك المخطوطة الأصلية التي لفتت صورتها نظره، ودفعًا للسأم جلس تحت مصباح غرفته السطوحية وراح يقلِّب أوراقها.. ويقرأ.. ويندهش.

المخطوطة غير المعنونة تضمُّ أوراقها بغير إحكام، مجلدةٌ قديمة من الرَّقِّ المتقصِّف، المحشو بخرقٍ متهرِّئة وقطع من المسوَّدات. ويبدو من النظرة الأولى، أن الجلد المغلِّف للأوراق كان يخص مخطوطة أخرى أوراقها أكثر عددًا وأكبر مساحةً. قلَّب «راضي» المخطوطة بين يديه، فمسَّ قلبه وَجَلٌ غير مفهوم وغمره شغفٌ غير مسبوق.

المخطوطة تقع في قرابة المائتين من الأوراق السميكة المصقولة، كبيرة القطع، الورقة الواحدة صفحتان. بكل واحدةٍ منها، اثنان وثلاثون سطرًا. ومجلدةُ الغلافِ لا زخرفَةَ فيها، والصفحةُ الداخليةُ بها آثار رطوبة عتيقة وعليها عباراتٌ ممحوة من أثر القِدَم، مكتوبة بعدة أقلام. أما الصفحات الداخلية فهي ناصعة الوضوح واضحة الحروف نظرًا لجودة الورق والحبر، وبأعلى الصفحة الأولى في جهة اليمين، دائرةٌ غير تامة مكتوبٌ بداخلها: في نوبة الفقير إلى مولاه الغني، صابر بن جابر السهمي، عفا الله عنه.. وفي الجهة اليسرى،

المقابلة، ثلاث كلمات مبهمة مكتوبة هكذا: يا كيبكج، يا كيبكج، يا كيبكج.. ومكتوبٌ تحتها: احفظ الورق.

بمنتصف الصفحة الأولى كلماتٌ مطموسة خُطَّتْ بقلم سميك، ومكتوبٌ تحتها بالقلم النسخيِّ الأنيق المكتوبة به بقية المخطوطة، ما يلي: رب يسِّر وأعن، هذا ما نقلته بحروفه من خط جدنا أبي السمحاء موفق الدين مُطيع بن خَلف، من ذرية جدنا المغفور له بإذن الله أبي عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، الصحابي الفاتح. ومكتوب بآخر الصفحة من أسفل، هذا البيت الشِّعري:

وإنْ تجدْ عيبًا فسُدَّ الخللا
فجَلَّ مَـنْ لا عيب فيه وعلا

* * *

راح راضي يقرأ في المخطوطة باندهاشٍ ونهم، حتى أطلت على الكون شمسُ النهار. انشغل بها عن النوم، وعن وداع الأهل قبل السفر بقطار الثامنة مساءً، وعن تناول الغداء الأخير مع أسرته. ولما ألَحَّت عليه أخته في النزول وألمحت إلى أن أباه ينتظر، وهذا لا يصح، نزل معها شارد الذهن. ومسرعًا دسَّ في فمه لقيمات، وقام متعللًا بأنه يحزم حاجياته استعدادًا لسفره، وعاد لاستكمال قراءة المخطوطة من الأصل. فأمضى بعد ليلته الفائتة بقية نهاره في القراءة، ولما غلبه النعاس عصرًا غفا سويعةً وهو جالسٌ ثم عاد للقراءة أمام باب غرفته السطوحية، حتى تضاءل ضوء النهار من حوله، فقام منهكَ الأركان وأعاد المخطوطة إلى مكانها، مقررًا استكمال قراءة الأوراق الباقية، من صورتها الورقية التي بحوزته، بالقطار. فكان جملة ما قرأه منها، هو السبع والثمانين ومائة صفحة التالية:

مُطيع

الحمد لمن يستحق وحده الحمد، سبحانه. المستتر بأسراره وراء ظاهر الأسباب، المتواري بمراده الخفيِّ خَلف المعلن من العلل، سبحانه. فهو الهادي المُضل الذي يعزُّ وقد يذلُّ، بلا تعليل أو تعذير، سبحانه. حيّر الأفهام برحابة رحماته التي وسعت كل شيءٍ، لكنه لحكمةٍ حاكمةٍ حصرها وقصرها على المتقين، وخصَّ بها من بين خَلْقه مصطفين، سبحانه. كلُّ ما يشاء يكون، وأمره الذي لا راد له كائنٌ بين الكاف والنون، سبحانه. لا يُسأل عما يفعل ولا يُبرر أقداره، والجميع ممن عداه وما تعداه يُسألون ويُحاسبون ويتحسَّبون ويتساءلون سرًّا وهمسًا، وعلانيةً وجهرًا، عن جدوى إيجادهم ليعبدوا مَن استغنى بذاته عن العالمين وعن عبادتهم، سبحانه. يخلق ويختار بلا إبانة عن معيار الاختيار، فيجعل في الأرض خليفةً وفي الخلائق خليفةً، ويهدي أحد النجدين ويمحو من أم الكتاب ويثبتُ، ثم يثيب ويعاقب ويعفو عن كثير، سبحانه. يثير فينا الشغف بما حرَّم فيُبقي عقولنا دومًا في الحيرة والانبهار، وبين إصبعين يقلِّب قلوبنا كيف شاء فيدهشنا منه ومنا، ومن حماه الرحب يرتد إلينا البصرُ بعد كرَّتين خاسئًا وهو حسير، سبحانه. وصف نفسه بأحسن الخالقين

ثم قال في قرآنه ﴿هل من خالقٍ غير الله﴾، وقال ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾. صدق الله العظيم. والصلاة والسلام على نبيِّه المصطفى الخاتم، فص فصوص الخواتم، المبعوث بالنص رحمةً للعالمين، المجعول رزقه بالخبر تحت ظلال رمحه المصوَّب ﷺ، سيد وَلَد آدم من وجهٍ، ومن آخر ليس بملكٍ ولا جبار، بل ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد، لا الثريد ﷺ، هو الرحمة المهداة من الإله للعالمين، وهو الغازي المنصور بالرعب ﷺ، بلَّغ عن السماء الرسالة بأمانة، وقَدَر فعفا، واستؤمن فوفَّى، واستُجير به فكفى، وما زاغ برهةً منه البصرُ وما طغى ﷺ، دعا للمكارم والمحاسن وأوصى بالإحسان، وخاض غمار الوغى. عليه وعلى آله وصحابته السلام، مستحقًّا لهم. ولهم الفضلُ والتبجيل، من غير بيانٍ لعلَّةِ التفضيل وسبب التبجيل. فهم المكرَّمون قطعًا بقطع النظر عن السبب، وعما وقع بينهم من التنازع، وعمن غلب منهم غيره أو انغلب. هم بالاتفاق كالنجوم، جميعهم، وهم مهما اختلفوا واقتتلوا فيما بينهم، المهتدون الهادون للدين والشرع المكين. عليهم السلام والرضوان من الله ومن عباده الطائعين المهتدين. آمين.

أراني قد أسهبتُ في التقديم، وتفاصحتُ بلا داعٍ فأطلتُ هذه الديباجة. لا بأس سوف أختصر ما سبق من السطور، عندما أعود لتبييض هذه المسوَّدات بعد الانتهاء من هذا الكتاب. أما الآن، وقبل شروعي في تسويد هذه الوريقات البيضاء البريئة بحكاية كل أو جُل ما كان، ورواية أهم ما وقع معي أو رأيتُ من عجائب المعاينات ودقائق المشاهدات. فإني أشهد الله وهو خير الشاهدين، على أنني لن أسطر فيما سيأتي إلا ما عاينتُ، ولن أسرد سوى ما صحَّ

عندي مما اشتهر أمره أو استتر. ولسوف أقصُّ ما جرى معي، منذ ابتدأ شأني الهين، فمن ذلك نشأتي بالفسطاط يتيمًا في بيت جدّي «خَلَف» ثم ما وقع معي في حداثتي من أمورٍ، منها صحبة الأمير «منصور» الملقب لاحقًا بالحاكم بأمر الله، ولقائي بأخته الخطيرة ست المُلك، وملازمتي للجليل الجدير بالتوقير الوفير «الحسن بن الهيثم» الخليق حقًّا بصفة الحكيم. وغير هؤلاء ممن عرفتهم في حياتي التي ابتُدئت بمقدماتٍ سبقت مولدي، مثلما هو الحال مع كل إنسان، وسوف تمتدُّ بعد موتي في ذريتي حفظهم الله. ولو على سبيل الترحُّم والذكرى. والذكرى، تنفع المؤمنين وغير المؤمنين. ولم أكتب ما سيُقرأ هنا، إلا تذكرةً لنفسي وعبرةً لمن سيأتون بعدي من ذرية جدّي الفاتح «أبي عبد الله عمرو» عفا الله عنه. فكتابي هذا على أفراد أسرتي موقوفٌ، ولا خير لمن يجعله عند عموم العوام مكشوفًا. فليس كل ما هو معروفٌ يصلح لأن يُكتب أو يُقال، وما كلُّ مكتوبٍ أو مُقال يَطيب للأنظار أو تطرب له الأسماع. فما بالك بما يفضح بالمسطور المستورَ من دقائق الأمور، لاسيما ما منها يخالف المتداول المشهور. فهذا بلا جدالٍ يحسُنُ كَتْمُه، ولا يُستحسن بَذْلُه لغير أهله. والله الموفق وهو الهادي للسبيل.

وأما بعد ما تقدَّم، فأقولُ أنا العبد الضعيف الفقير إلى فَضْل مولاه وعطفه «مُطيع بن عرفة بن خَلَف السهمي» المصري موطنًا، الفسطاطي مولدًا ونشأةً وإقامةً، وعلى الأرجح وفاةً:

لم تبدأ قصتي بمولدي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة للهجرة النبوية، بل رُسمت ملامح حياتي من قبل هذه السنة بسنواتٍ قريبة وأخرى قديمة، قد يكون أولها هو العام التاسع عشر للهجرة النبوية،

إذ جاء جدّي «عمرو بن العاص» لمصر غازيًا في زمن الخليفة «عمر» ففتحها أول مرة وأقام الفُسطاط ليعسكر فيه جند الإسلام، ثم جاء البلاد بجيشه مجددًا بعد ثلاثة أعوام، فأعاد فتحها في زمن الخليفة «عثمان» واستردها من الروم، الذين كانوا قد استردوها من المسلمين في فترة عزله من الحكم بقرارٍ مراوغ من الخليفة ابن عفّان. ومن بعد ذلك، مال جدّي «ابنُ العاص» عفا الله عنه إلى جانب الخليفة الأموي «معاوية» حين تنازع مع الإمام الهاشمي «عليّ بن أبي طالب» وطالب بالحكم من دونه. وآزر جدّي عمرو «معاوية» ونصره في مواجهة الإمام «عليّ» فظهرا عليه وغلباه بالخدعة المعروفة بالاحتكام للقرآن، والقرآن كما قيل بحق: لا ينطق وإنما ينطق به الرجال. فظفر معاوية بالخلافة ونال جدّي ولاية مصر، وسكن الفُسطاط، وأسكن ذريته فيها. وفيها أقام الجامع المعروف اليوم بالعتيق، ومَلَك الدُّور والضياع والأرض المزروعة. فلما قضى أجله وانقضى عمله بالانتقال من الفانية إلى الباقية، توالى من بعده على البلاد الولاةُ عُمالًا للأمويين. فلم يلحق الضررُ الفادح بأولاد الفاتح وأحفاده.. حتى خلع العباسيون بني أمية عن الحكم، وأمعنوا في التنكيل بهم عقابًا لهم على التقتيل الذي لقيه سابقًا آلُ بيت النبوة وكثيرٌ من الصحابة والتابعين على يد الأمويين، وبالغوا في ذلك. بل بلغ الأمر بالعباسيين أنهم قطعوا شأفة الأحياء من بني أمية، رجالًا وأطفالًا، ونبشوا قبور الموتى منهم بعد دفنهم بعشرات السنين، ولم يراعوا في ذلك حرمةً أو دين. وكأن جدّي «عمرو بن العاص» كان ببصيرةٍ نافذةٍ، يتوقع ما سيكون بعد تسعين سنةٍ من وفاته، فقد أوصى أن يُدفن في مكان غير معلوم بسفح جبل المقطم القريب من هنا؛ أعني من

الفُسطاط. وأمر بألا تُقام فوق قبره قبة، ولا يُزار، حتى تُطمس آثار مدفنه ويُجهل موضع رفاته. فكان له ما أراد، ولم يعد أحدٌ من بعد وفاته في العام الثالث والأربعين للهجرة يعرف موضع مكان مثواه بين موتى المسلمين إلا الرجال الكبار من ذريته الذين يكتمون ذلك عن بقية الخلق، ويعدونه من جملة الأسرار.

وعندما فرغ الحكامُ العباسيون من الفتك بأفراد بني أمية المعاصرين لهم، غلب الغلُّ عليهم فتعقبوا آل البيت النبوي، ثم نزعوا إلى عقاب ذرية الذين لاذوا بمعاوية. فانتزعوا ظلمًا ما كان بيد أحفاد عمرو بن العاص من مالٍ موروث، فصار أجدادي من «أولاد عمرو» فقراء معدمين، بعدما كانوا الأعزاء الموسرين. وصارت ديارهم الرحبة بالفسطاط، وسائر النواحي، مثل الدِّمَن والخرائب والأطلال ومساكن المساكين. ولم يلتفت بنو العباس إلى أنهم بانتقامهم هذا، كانوا يبعثون من تحت التراب سخائم مضت، لأمةٍ كانت قد خلت قبل قرنٍ من الزمان أو يزيد. وأن معاصريهم أبرياء، لم يشهدوا شيئًا مما جرى في سابق الزمن بين الأجداد، ولم يشارك فيه هؤلاء الأحفاد. بيد أن قلوب العباسيين لم تعرف الرحمة ولم يكترثوا يومًا لحرمة الأرحام، ولم يلتفتوا إلى قول الله في قرآنه ﴿ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى﴾ ولم يعتدُّوا بأن جدّي «عبد الله» بن عمرو بن العاص، اعتزل ما مال إليه أبوه، وابتعد عن كل ما وقع في زمانه بين صحابة النبي والتابعين، من حروبٍ صاخبة وتقتيل مريع واستباحة للمحارم بلا حياءٍ أو تُقى. وعلى كل حال، فقد دلَّت بلايا هذه الأمة على أنها لا تختلف عن بقية الأمم، من حيث سُعار المتهالكين فيها على الحُكم، وهوس الساعين إلى السلطة. فهؤلاء والذين معهم، لا

يأبهون في الغالب إلا لمطلبهم ولسعيهم المسعور المهووس، وفي سبيله يستهينون بالدين المبين والعُرف المكين والعقل الرصين. عفا الله عنهم أجمعين، وغفر لهم ما يمكن نسيانه ويجوز غفرانه.

وقد سألتُ جدّي «خَلَف» أيام صباي عن سبب هذه السخائم والغلّ العباسي تجاه الأمويين ومَنْ وَالَاهم، فقال بإيجاز إنها شهوة الحكم التي تطمس البصائر وتُودي بالمصائر. قلت له إن صحابة النبي وقع بينهم مثل ذلك، فهل شهوة الحكم أقوى من إيمان الأوائل؟ فضحك بحسرة وهو يقول بلا تفصيل: والأواخر.

وفي عهدٍ قريبٍ من زمننا هذا، اضطرب الحال العام في ربوع وأنحاء الديار المصرية والشامية، عقب وفاة حاكمها «كافور الإخشيدي» وهو الخصيّ الذي كان مستوليًا بعساكره وبدهائه على مصر والشام، فحكم البلاد من بعد وفاة محمد بن طُغج الملقَّب بالإخشيد، حتى وفاته هو في العام السابع والخمسين والثلاثمائة للهجرة. وبعدما عمَّت الفوضى وعاث في الأنحاء أراذلُ العيارين وعتاة المجرمين، وتجرءوا على العربدة العلنية في معظم النواحي الشامية والحواضر المصرية. كادت الأمور تنفلت تمامًا من زمامها، فتضيع الدنيا ويندثر الدين. حتى الحج وهو الركن الركين من أركان الدين عند المسلمين، كان قد توقف لعشرات السنين وتقطَّع، لانعدام الأمن بسبب سطو البدو على قوافل الحجيج، وتقتيل القرامطة لزوار بيت الله الحرام، مع أن الله جعله بنص القرآن ﴿مثابةً للناس وأمنًا﴾ فصار على يد هؤلاء العتاة العصاة والسرَّاقين، مخافةً للناس ورُعبًا.

ودام الحالُ المحتدمُ حينًا من الدهر، فاشتد احتياجُ المصريين

والشوام للأمان، وآنذاك وصل إلى مصر جيشٌ أرسله «المعز لدين الله» من بلدة «المهدية» بساحل إفريقية حيث البلدات المعروفة بالقيروان وتونس، وكان قد مرَّ آنذاك عامٌ مرير على وفاة كافور. وكان على رأس هذا الجيش الذي قوامه مائة ألف، القائدُ «جوهر الصَّقْلبي» الذي التقيتُ مرةً في حديقة القصر الكبير، مع ابنه قائد القواد «الحسين بن جوهر» فوجدته حين تحادثنا قليلًا، رجلًا رفيع القدر يجتهد ليبدو متواضعًا. جرى هذا اللقاء صدفةً، قبل فترةٍ من هروب «الحسين بن جوهر» واختفائه حينًا عن عين منصور «الحاكم بأمر الله» خشيةَ بطشه، ثم خروجه من مخبئه ومجيئه معتذرًا للحاكم الذي عفا عنه، وكرَّمه بالمِنَح، وبجَّله، ثم قتله.. وهذا حديثٌ آخر، يطول، وقد تأتي له لاحقًا مناسبةٌ في سياق.

وعندما وصل «جوهر الصَّقْلبي» بجيشه الجرار، جَفَل الناسُ في مصر وتوجسوا خيفةً، خفيةً وعلانية، واصطخبت آراؤهم وتهرَّأ من فرط الكثرة الكلام. وحسبما أخبرني جدّي «خَلَف» أيام كنت في التاسعة من عمري، ليعلِّمني ما كان فاستشرف ما سيكون، فإن أقوال أهل مصر في هؤلاء الوافدين القادمين عليهم ليحكموا البلاد، تناقضت. فمن قائلٍ إنهم فعلًا خلفاء من آل بيت النبوة، من ذرية السيدة «فاطمة الزهراء» بنت النبي، زوج الإمام «عليّ بن أبي طالب» وأم السبطين: الحسن والحسين. إلى قائلٍ إن الخلفاء الفاطميين هؤلاء أدعياء للنسب الشريف، وهم في حقيقة أمرهم عبيديون ينتسبون إلى داعيةٍ أفَّاق، كان لقبه الاستاري «عبيد الله» ولكن اسمه الحقيقي هو ميمون القداح. ومن قائلٍ إنهم أهل علم وفضل، ودولتهم بساحل إفريقية تشهد لهم بحسن السيرة، والعدل مع

الرعية. إلى قائلٍ بأنهم شيعةٌ يرومون القضاء على مذهب السُّنة لنشر مذهبهم. ولسوف يستبيحون البلاد ويستحلُّون حَيَا النساء، وينهبون. لأنهم لا يختلفون في الضلال والميل إلى القتل والسفك، عن دُعاتهم «القرامطة» الذين كانوا يمهّدون لهم ويبشّرون بهم، ثم انشقوا عليهم وحاربوهم. ومن قائلٍ إن البلاد الآن في احتياج إلى سلطانٍ قاهرٍ، يعيد إلى البلاد ما كانَ من الأمن والطمأنينة والسلام اللازم لحفظ الدنيا وإقامة الدين. إلى قائلٍ بوجوب مواجهتهم بالسيف، والانضمام إلى فلول الجند الإخشيديةِ، لمحاربة هؤلاء الغزاة وكسر شوكتهم وطردهم بعيدًا عن البلاد.

وقال لي جدّي إن جماعتنا؛ يقصد ذرية عمرو بن العاص بمصر، كانوا آنذاك في كربٍ عظيمٍ وبلاءٍ لامحدود. إذ أخذوا يتوجَّسون مما سوف يلحق بهم حين يصيرُ الأمر للفاطميين، فالمتوقع منهم قد يكون أنكى مما فعله بنا العباسيون، ثأرًا لجدهم الإمام «عليّ» الذي انحاز جدُّنا «عمرو» علانيةً ضده. غير أن الأمور جرت، ولله الحمد، على الضد مما كان متوقعًا. ولم يلحق الأذى بنا أو بغيرنا بعد مجيء القائد جوهر الصَّقْلبي وجيشه الجرار، ومن بعدهم بأربعة أعوام الخليفة الفاطمي «معد بن منصور» الملقب عند ولايته بالمعز لدين الله.. بل كان المدهش والمبهج، أنه جاءنا مع هؤلاء الفاطميين الخيرُ، حسبما سأذكر بعد قليل.

وكان الناسُ في عموم النواحي المصرية، قبل مجيء الفاطميين وجيشهم، صنفين. كل صنفٍ منهما، فيه صنفان. فهناك بالقسمة الأولى مسلمون هم الأقل عددًا والأكثر عتادًا واعتدادًا بأنفسهم، ونصارى مسالمون هم المغلوبون على أمرهم، مع أنهم الأوفر

تعدادًا. وكلاهما يعمل في مناحي الحياة بمعظم الصناعات، لكن النصارى يختصون أكثر بالزرع والفلاحة، ويسكنون غالبًا بأرض الريف، في قرى تسمى في النصف البحري من البلاد «كُفُور» وفي النصف القِبلي المعروف بالصعيد تُسمى «نجوع». ويختص المسلمون غالبًا بالتجارة والوظائف الديوانية، ويقيمون غالبًا في الفُسطاط والجيزة وغيرهما من المدن الكبيرة.

والعوام وعموم الناس، يسمون «الفُسطاط» مصر، ويسمون المسلمين المقيمين بها وبأنحاء البلد «المصريون». أما النصارى على اختلاف كنائسهم، فيقال لهم إجمالًا «القبط». وقد استغربتُ جدًا في صِباي عندما سمعت من أحد القصَّاصين، قوله إن الخليفة «عثمان بن عفان» قتله المصريون، وظننت أنهم النصارى. لكن جدّي «خَلَف» أفهمني أن المراد بالمصريين، العرب المسلمون المقيمون بمصر من قبل فتحها، ومن بعده.

والصنف الأول وهم المسلمون، فيه صنفان. جماعتنا من «أهل السنة» وهم الأكثرية، وجماعة «الشيعة» الموالون لآل البيت النبوي، المنادون بحقهم في ولاية أمر المسلمين. ومع أن كلا الفريقين يوقِّر آل البيت ويُبجِّل سيرتهم، إلا أنهما دومًا في تنازع وشقاق. فأهل السنة يسمون الشيعة «رافضة» لأن أجدادهم منذ أربعة قرون من الزمان، رفضوا ولاية أبي بكر وعمر وعثمان. والشيعة يسمون أهل السنة «ناصبة» لأنهم ناصبوا الإمام عليّ بن أبي طالب العداء، وناصروا معاوية، ثم ناصبوا ذرية العلويين العداء وناصروا الأمويين والعباسيين. والنارُ بين الفريقين متقدة، تخبو حينًا وتضطرم في معظم الأحيان، وهما دومًا متعاندان. فالله المستعان.

والصنف الآخر «القبط» فيه كذلك صنفان متعاندان، صنفٌ يسمى «الملكانية» أو أتباع مذهب الملك الرومي، والمتعلمون من أهل ديانتهم يسمون هذا الصنف الأقل عددًا والأكثر ثراءً: شعب كنيسة «خلقيدونية». وهي بلدة بنواحي الروم، وقع فيها الخلاف بين رؤساء الكنائس قبل قرابة خمسمائة عام، واشتعلت بينهم نارٌ لم تخمد من يومها. ولن تخمد أبدًا، لارتباط سُلطة رؤساء الكنائس بها.. والصنفُ الآخر من القبط، يسمى «اليعاقبة» أو أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وهم أكثرية القبط من حيث العدد، لا العدة والمكانة. وقد أخبرني جارنا ساويرس ابن القُمُّص، أن هاتين الجماعتين يُسمى أتباعهما باللسان اليوناني «أرثوذكس» يعني أصحاب الإيمان القويم، تميزًا لهم عن الكنائس النسطورية والمذاهب الأريوسية التي يراها الأرثوذكس كافرة بالديانة، وأتباعها يعدون عندهم كُفارًا أو بحسب تعبيرهم: هراطقة. كما أخبرني بأن الخلاف بين الأرثوذكس الملكانية الروم، والأرثوذكس القبط اليعاقبة، احتدم قديمًا حتى اقتتلوا فيما بينهم أعوامًا مديدةً مريرة، وكانت الغلبة للملكانيين. فلما جاء جَدّي «عمرو بن العاص» أنصف اليعاقبة وأمَّنهم، فصاروا اليوم بعد مرور الأعوام الكثيرة، هم الأكثرية.

وبعدما جاء الفاطميون إلى هنا، اختلف الحال فوقع الناس في حيرة، إذ صارت أصناف الناس في مصر من حيث العقيدة خمسة، بينهم من التداخل ما يستوجب التحيُّر ويستدعي التعجب. فالفاطميون بطبيعة الحال مسلمون، لكن كثيرًا من كبارهم تزوَّج بنصرانيات ملكانيات، وأنجبوا منهن. ويقال، والعهدة في ذلك على القائل، إن زوجة «المعز لدين الله» وأم ابنه «العزيز بالله» المسماة «تغريد» كانت

نصرانية ملكانية. وكذلك كانت زوجة «العزيز بالله» التي أنجبت له «ستّ المُلك» أخت منصور الكبرى. ولكن لم يثبت عندي أن الخلفاء الفاطميين تزوَّجوا قبل «المعز» من نصرانيات، وقد تحرَّجت من سؤال «منصور» عن ذلك أيام كنا صغارًا، تحشّمًا منه واستسخافًا للسؤال.

لكن الثابت عندي والبادي للجميع أن الفاطميين، مع أنهم شيعة، لم يكونوا كهؤلاء الشيعة «الإمامية» الذين يعرفهم الناس. بل بين الفرقتين الشيعتين من الخلاف، ما يصل بهما إلى حافة الوصم المتبادل بالانحراف عن العقيدة، وينزلق إلى هوة الاتهام بالكفر والعياذ بالله. وخلافهم هذا كان لسبب أراه هينًا، وهو عندهم عظيم، إذ يعتقد الشيعة الإمامية باثني عشر إمامًا من ذرية «علي بن أبي طالب» سابقًا عن سابق، بينما يقف الفاطميون بهذه الإمامة عند إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو الإمام السابع. ومن هنا يسمى الشيعة الإمامية «اثنا عشرية» والشيعة الإسماعيلية الفاطميون «سبعية» وهذا عندي من جملة الأمور العصية على الفهم. فهم بدلًا من التوافق على الأئمة السبعة المشتركين، تنازعوا فيمن جاء بعدهم واختلفوا على ثبوت إمامة اللاحقين. ولله في خلقه شؤون. ولطالما تحيَّرتُ في أمر هذه التنازعات العقائدية التي لا تنتهي، وانتهيتُ بعد طول تأمل وتدبُّر إلى أن لها سببين، هما الجهلُ والتهالكُ على السلطة. واسترحتُ سنواتٍ إلى هذا التفسير، حتى كان عصر ذلك اليوم من صيف العام المتمِّم أربعمائة للهجرة، وكنا على ظهر المركب النيلي المسافر بنا إلى جنوب الصعيد. وأثناء هدأة ما بعد الغداء، تحادثتُ في الأمر مع العلامة «ابن الهيثم» وهو على معتاده، عازفٌ عن الخوض فيه وفي مثله مما يتعلق بالعقائد والأديان. فلما أطلتُ في بيان تفسيري

لسبب التنازع بين الاعتقادات، تركني قاعدًا وقام من جواري إلى مقدمة المركب بعد أن قال تلميحًا، ما يستحيل التصريح به، موضحًا سرَّ الخلاف وسبب الاختلاف حسبما يراه، قال:

ـ يا مُطيع، ألم يمر بك قوله في القرآن ﴿كان الناس أمةً واحدة، فبعث الله النبيين﴾.

ـ تقصد يا سيدي أن التنازع الواقع بين المعتقدات، والابتعاد عن الفطرة، سببه النبوات..

ـ دعك من الخوض في تلك الأمور، فلا فائدة فيها.

* * *

وكان القائد «جوهر الصَّقْلبي» قد وَفَد بجيشه الجرار إلى مصر، سنة ثماني وخمسين وثلاثمائة، بعدما كانت الفوضى بالديار قد بلغت مداها واشتد القحط لنقص ماء النيل وانعدام الأمن، فاحتشدت في نفوس الناس المخاوف. غير أن الأمور جرت بعكس ما كان متوقعًا ومتوجَّسًا منه، إذ أمَّن «جوهر» الناس في عموم الأنحاء، ودَحَرَ بيسرٍ فلول الإخشيديين والذين لاذوا بهم، ثم جدد عهد الأمان لعموم الناس ولم يسمح لعساكره باستباحة الأنحاء، وجعل همَّه في ثلاثة أمور: إرساء الأمن بين ربوع البلاد، وصدّ هجمات القرامطة، وبناء بلدةٍ مسوَّرة ليسكنها الخليفة الفاطمي «المعز» عندما يصل إلى مصر من بلدة «المهدية».

وبعدما عسكر أيامًا بجيشه في الجيزة، اختار جوهر الصَّقْلبي للبلدة المسوَّرة، موضعًا قريبًا من الفُسطاط وبعيدًا بعض الشيء عن

جبل المقطم، وعن الأرض التي يغمرها الماء عند فيضان النيل. وهي ربوةٌ غير عاليةٍ، عريضةٌ منبسطة، تقع ناحية الشمال الشرقي من الفُسطاط، على الطريق المؤدي إلى الناحية المسماة عين شمس. وقد أخبرني جارنا الطبيب «ساويرس ابن القمص» نقلًا عن أبيه أن اسم عين شمس، هو تعريب لاسمها اليوناني القديم «هليوبوليس» الذي يعني حرفيًّا: مدينة الشمس، وهو بدوره بديلٌ للاسم المصري الأقدم الذي كان مستعملًا في زمن الملوك الفراعنة «أون، رع» وقد كانت في زمنهم الغابر مدينةً عامرة، ومركزًا لتقديس قرص الشمس المنطوق اسمه باللسان القديم «رع» ثم خفَّف القبطُ لاحقًا نُطقه وصاروا تسهيلًا للفظه يسمون هذا الموضع: كاهي را.. استغربتُ من كلامه، لأنني لم أجد في كُتُبنا ما يؤكِّده، ولا وجدته في إجابات جدي وأساتذتي على أسئلتي. لكنني لاحظت لاحقًا أن كثيرًا من الكلمات المتداولة اليوم على ألسنة الناس، فيها تخفيف لكلمة «رع» بلفظ «را» مثل اسم الشهر الصيفي: مَسَرًّا، والشهر الشتوي: إمشيرا. فالشهرانِ يشيران إلى الإله «رع» بنُطقه المخفَّف، مثلما يشير شهر «توت» إلى إلهٍ كان يسمى: تحوت، وشهر «هاتور» إلى ربةٍ كان اسمها عندهم: حتحور.. هكذا قال، والعهدة في ذلك عليه.

ولم يكن بموضع البلدة الجديدة وحوله، وقتما شرع جوهر الصَّقْلبي في بناء البلدة المتأنقة بالقصور والحدائق، إلا اثنان من المباني القديمة المحاطة بالفراغ. الأول بيتٌ كبير كالقصر، كانت تسكنه قديمًا جماعة من القبيلة العربية «بنو عُذرة» المعروفة بعفاف المحبين من رجالها وشعرائها. وكان مكانهم هذا مسيجًا من حول أسواره العالية بالعوسج؛ وهو النبات العشبي ذو الأشواك شديدة

الوخز، فلما تكاثر العوسج حوله أطلق عليه الناس اسم: قصر الشوك. وقد عوَّض الصَّقْلبي «بني عذرة» عن قصرهم القديم هذا بالمال، وأعاد بناءه وعدَّله ونزع من حوله العشب المشوِّك، فصار قصرًا بديع الهيئة وصار الناس يسمونه: قصر الشوق.

وكان المبنى الآخر، وهو الأقدم زمنًا والأقل من القصر مساحةً، ديرًا لرهبان النصارى. وكانت به بئرٌ جافة يلقون فيها عظام القديسين والقسيسين والرهبان ليتبرك العوام بزيارته. فكان الدير يسمى أولًا «دير العظام» ثم تبدَّل اسمه على ألسنة العوام، فصار «دير العظمة». وقد عوضهم عنه القائد جوهر، وهدمه، ولم يجعل في موضعه بناءً. وترك البئر على حالها، لكنه لم يترك الدير. إذ لا يُعقل أن يكون في قلب قصور وحدائق عاصمة الخلافة الإسلامية، ديرٌ مسيحيٌّ.

وحكى لي «ساويرس» أيام كان يعد أثاث عُرسي، إذ هو نجارٌ ماهرٌ بديع الصنعة، أن أباه «القمص» كان يعمل كاهنًا لكنيسة دير العظام، وقد ترقَّى في الرتبة الدينية حتى أصبح مدبِّر الدير والمعاون الأول لرئيسه، لكنه كان يُسمِّي نفسه تواضعًا «خادم الدير». فلما انهدم الدير انتقل بخدمته إلى الكنيسة الملاصقة للفسطاط، وهي تلك المسماة بالكنيسة المعلَّقة، لأنها ذات سُلم مرتفع عن الأرض بدرجاتٍ كثيرة. وهي في الأصل، برجٌ من أبراج الحصن القديم المسمى عند عموم الناس «باب إليون» وقيل لي إن صواب اسمه «حصن بابليون» أي حصن الفرس، أهل بابل، هم الذين ملكوا البلاد لسنوات شيَّدوا خلالها هذا الحصن. وبعد عشر سنوات انتزع الروم مصر من أيدي الفُرس، ثم انتزعها المسلمون من أيدي الروم.. وكانت وقائع عديدة

قد جرت مع جدّي الفاتح «عمرو» عند هذا الحصن، كثيرًا ما يحكيها الناس، وأتذكرها كلما مررتُ من هناك. لكنني لن أطيل كتابي هذا بذكرها.

وخلال السنوات الأربع التي بنى فيها القائد «جوهر» البلدة الجديدة، أنفق ما لا حصر له من المال حتى جعلها أعجوبة البلاد، من حيث رحابة القصور وفخامة الدور واتساع الساحات وكثرة المتنزهات والحدائق. وكان يريد تسميتها «المنصورية» تيمنًا باسم الخليفة الفاطمي «المنصور بنصر الله» وهو أبو الخليفة «المعز لدين الله» لكن البلدة الجديدة غلب عليها الاسم القديم للوادي المطلة عليه، المنطوق باللسان القبطي «كاهي را» وسرعان ما تصحَّف فنُطق «القاهرة». ولم يعترض أصحاب البلدة ولا خليفتهم على هذا الاسم، لاسيما أن لهم بلدة أخرى بساحل إفريقية، كان الخليفة «المنصور» قد بناها وأسماها المنصورية، فلم يكن من المستحسن أن تسمى البلدتان بالاسم ذاته.

وفور اكتمال بناء «القاهرة» والسور المحيط بها، جاء الخليفةُ «المعز» لسكناها ومعه عائلته وأقاربه وخدمه الكثيرون وأمواله التي لا تحصى من كثرتها، ورفات أجداده.. أخبرتني عمتي «تمنِّي» في طفولتي، بأن جدّي «خَلَف» كان واحدًا من الرجال الثلاثين الذين ذهبوا من الفُسطاط إلى الإسكندرية، لمقابلة الخليفة «المعز» يوم وصوله إلى مصر. وما كنتُ قد سمعتُ بذلك من قبل. في اليوم التالي سألتُ جدّي في المساء بعد رفع مائدة العشاء، عن هذا الأمر، فأومأ برأسه مؤكِّدًا حدوثه. طلبت منه أن يحكي لي ما جرى في ذاك اليوم، وكان ليلتها ميالًا للحكي، فقَصَّ عليَّ القصص. قال: كان ذلك قبل

ثلاثين سنة؛ يقصد أنه كان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة للهجرة، وكنت آنذاك في حدود الأربعين من عمري، وقيل لنا آنذاك إن القائد جوهر سوف يخرج بعد أسبوع إلى الإسكندرية لاستقبال الخليفة، ولا مانع لديه من اصطحاب وفدٍ من أعيان القبائل وآل البيت الساكنين بالفسطاط وبقية النواحي، بل هو يريد ذلك ويدعو إليه. وكانت الرسائل أيامها تصل للفسطاط من دار الخلافة ببغداد، بكثرة، وفيها قدحٌ في الفاطميين وتكذيبٌ لنسبهم الشريف. وكثر اللغط عدة أيام حتى انحسم أمر الذهاب واختيار نخبة الرجال الذاهبين، وكان من المفترض أن يكون بينهم عمي «عبد الودود» موفدًا عن «بني سهم» لكن مرض موته أقعده عن ذلك، فذهبتُ بدلًا منه. كانت السفرة مريحة وامتدت أيامًا ثلاثة، لم يتوقف خلالها الجدال والتخاصم بين المصريين، مع أنه ليس بيدهم من الأمر شيء. وكان معنا ثلاثة من رجال كنيستَي القبط، وانضم إليهم في الإسكندرية الأسقفان اللذان يرأسان الكنيستين، ويقيمان هناك. وصبيحة ليلة وصولنا، وصل الخليفة «المعز لدين الله» صباحًا، فالتقينا به عصرًا في ساحةٍ منمقةٍ بالنمارق أُعدَّت لهذا الغرض، وكان عمر «المعز» آنذاك في حدود الأربعين عامًا..

ـ هل كان فظًّا معكم يا جَدّ؟

ـ لا. كان على العكس من ذلك، سمحًا. باسم القسمات، واثقًا، فاخر الهندام. وكان في عمامته من الجوهر النفيس كثيرٌ.

ليلتها كنت أسمع حَكْي جدّي خَلَف مبهورًا، وقد بدا لي وجهه

النحيل بلحيته البيضاء، كأنه طيف خيالٍ آتٍ من زمن سحيق. وبدت عيناه الناظرتان في ظلام زاوية الحجرة، كأنهما تستعيدان من الذاكرة المطمورة مشهدًا كان شديد النصوع، فصار مع مرور الزمن كالوشم القديم. علت لحيته وشفتيه ابتسامةٌ خفيفةٌ، وهو يقول برويةٍ وأناة: ألقى علينا «المعز» ما يشبه الخطبة القصيرة، ذكر فيها فضل آبائه وأجداده، وأثنى مطوّلًا على النبي وابنته فاطمة. وما كاد يُنهي كلامه الافتتاحي هذا، حتى تحامق نقيبُ الأشراف السيد «محمد الحموي» رحمه الله، ومن دون تمهيد قال بصوته المتحشرج فحيحيّ البحّة وهو يهز برأسه عمامته العالية، مخاطبًا المعز: أخبرنا عن نَسَبك وحَسَبك! فتشجّع من الأشراف محمد بن عبد الله بن طباطبا، وأبو إسماعيل الرَّسّي، وقالا وكأن صوتهما الصدى: نعم، أخبرنا عن نَسَبك وحَسَبك..

ـ وطبعًا، غضب منهم الخليفة المعز. صح يا جَدّ؟

ـ لم يظهر عليه غضبٌ، وفعل ما فعله وهو هادئ.

ـ وما الذي فعله؟

أخرج «المعزُّ» سيفه من الغمد المحلّى بالجواهر، بمقدار شبرين، وقال بنبرة حاسمة: هذا نَسَبي. ثم التقط من جواره صرة دنانير، ونثرها بيمناه على سامعيه وهو يقول: وهذا حَسَبي! فانكب القوم على ما وقع أمامهم من الدنانير، ودسوها في أكمامهم وهم يبتهجون. وكان ديناران قد وقعا في متناول جدّي «خَلَف» أحدهما في حِجره والآخر بين قدميه، فتعفّف عن أخذهما وتحرّج من ذلك القريبون منه. وانتبه «المعزُّ» لما جرى، إذ كان قوي الملاحظة، لكنه لم يعلّق عليه. وحين

أشار للجمع بالانصراف من حضرته، قام جدّي معهم وترك على الأرض الدينارين، فاستوقفه «المعزّ» حتى انصرف الوفدُ ثم سأله: أأنت غنيٌّ أم مستغنٍ عن المال؟

ـ المالُ يا سيدي لا يستغني عنه الغنيُّ ولا الفقير، وكل الناس فقراء إلى الله تعالى، وهو وحده الغنيُّ عن العالمين.

ـ فلماذا لم تأخذ ما وقع لك؟

ـ لم يقع لي شيء. وقد كان أبي يقول لي دومًا: السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

ـ ما اسمك، ومن أبوك؟

ـ أنا يا سيدي، خَلَف بن عبد الرحيم بن زيد السهمي القرشي.

ـ أنت إذن من ذرية عمرو بن العاص..

ـ نعم يا أمير المؤمنين، رحم الله الجميع وعفا عنهم.

«أمير المؤمنين، هذا والله أحبُّ الألقاب إلى قلبي».. قال المعزُّ عبارته هذه وقد انبسطت أسارير وجهه، وجعل يحرك حبات اللؤلؤ في خيط مِسْبحته وهو مطرقٌ، ثم رفع عينيه نحو وجه جدّي وقال له بصوتٍ خفيض: جدك «ابن العاص» هذا يحيِّرني، فقد قرأت عنه وسمعتُ في سِيَرِ الأوائل، ما لا يسهل فهمه. ففي ابتداء أمره عارض جدّي المصطفى صلوات الله عليه، وعاداه، ثم التحق به وخدمه بإخلاصٍ. وقاد من بعدُ جيوش الإسلام ففتح البلاد، وكان في الحرب يستهين بالموت كمن يجتهد في نيل الشهادة، وفي زمن السلم

يتولى الرياسات ويقبل على الدنيا كأنها منتهى مناه، ويقتني الضياع والزروع والذهب. وأمره في معاونة «معاوية» ودعمه معروفٌ، لكنه حين وجد معاوية بعد أن تمَّ الأمر له، وتملَّك، يقع في جدّي الإمام الوصيِّ «عليّ» ويتكلم عنه بسوءٍ وسط الحاشية ورجال دولته. فإذا بجدك عمرو بن العاص يزعق في معاوية على الملأ في المجلس، قائلًا: يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك، أترانا خالفنا «عليَّ بن أبي طالب» لفضل منا عليه؟! لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وأيمُ الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأُنابذنك! هو رجلٌ محير، وبليغ العبارة.. وكان جدّي المصطفى ﷺ يحبه ويقرِّبه، ويتجاوز عن أفعاله. هل تعلم أن جدك هذا، عجيب الشأن، صلَّى مرةً إمامًا بجماعةٍ من كبار الصحابة كان فيهم أبو بكر وعمر، وهو جُنبٌ، فتيمَّم ولم يغتسل قبل الصلاة. ولما اشتكوه لجدي المصطفى ﷺ وسأله عن ذلك، رد عليه عمرو بن العاص بقوله إن البرد كان قارسًا وكانت صلاة الفجر، ولو اغتسلتُ متُّ، ولهذا قرأتُ عليهم في الصلاة قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا﴾، فضحك النبي.. هل بلغك ذلك يا خَلَف؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين، سمعت الحديث من ثقات الرواة وقرأته في كتاب ابن إسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح من أمور الرسول وسُننه وأيامه. ومنه جاءت القاعدة الشرعية «الضرورات تبيح المحظورات» وعلى كل حالٍ يا سيدي، وكما قال تعالى في كتابه الكريم ﴿تلك أمةٌ قد خلت، لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتم﴾.

ـ صدق الله العظيم. أخبرني يا خَلَف، هل لك عمل؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين، أقومُ بتدريس الفقه في الجامع العتيق، وأفتي للناس إذا سألوني الفتوى.

ـ وعلى أي مذهبٍ فقهيٍّ يكون إفتاؤك؟

ـ مذهب الليث بن سعد، ومذهب الشافعي.

ـ الشافعي كان رجلًا جليل القَدْر، ومحبًّا لآل بيت النبوة.

ـ كل المسلمين يا سيدي يحبون آل البيت.

ـ بارك الله فيك يا «خَلَف».. انصرف في أمان الله.

وبعدما دامت خلافة «المعز» بمصر لثلاث سنواتٍ حاسمةٍ انتهت بوفاته، تولَّى الخلافة من بعده ابنه «العزيز بالله» وهو أبو الأمير «منصور» الذي درست معه العلوم قرابة أربعة عشر شهرًا. وفي السنة الأولى من أيام «المعز» القاهرية، أصدر أمرًا لم يكن متوقعًا على الإطلاق، إذ أجرى أرزاقًا ديوانية على ذرية «عمرو بن العاص» المقيمين بمصر، فانتشل بذلك عائلتنا من شظف العيش ومن غلواء الغلاء الناشب بمخلبه في الأرزاق بسبب نقص فيضان النيل، لعامين متتاليين، وقصور الفيضان عن الحد اللازم للزروع. وبقدر ما كان فعله هذا معينًا على قسوة الحال، كان مثيرًا للحسد وكثرة الكلام من سفلة الناس بالفسطاط، ضدنا. فمنهم من زعم أن «المعز» يستميل قلوب أولاد عمرو إليه، ليشق صف أهل السنة ويوقع بينهم الفتن. ومنهم من ادَّعى أن «المعز» يستعبدهم بإحسانه، كي يتجسَّسوا له على ساكني الفُسطاط. ومنهم من انخبل وقال إن كبار الرجال في

أسرتنا، يُبطنون التشيع ويُظهرون للناس التسنُّن، تقيةً. سامحهم الله أجمعين، أو جمعهم في قاع الجحيم بما اكتسبت ألسنتهم من الخوض في أعراض جيرانهم بسوء المقال. سألتُ جدّي «خَلَف» في صباي عن تلك الفترة، فقال باقتضاب إنها كانت قاسية على ذرية عمرو بن العاص، بعامة، وبالخصوص عليه هو. لأنه الذي تحدَّث منفردًا مع «المعز» يوم مجيئه لمصر، ولم يخبر أحدًا بما دار بينهما. سألته: فكيف احتملت كلام الناس وقتذاك؟

ـ بالصبر يا مُطيع، وبالانقطاع عن مجالسة معظم الناس.

ـ أظن هذا الأمر، كان أشد ما مررت به يا جَدّ. صح؟

ـ لا يا وليدي. فلا شيء أشدّ على النفس، من إظهار الجَلَد عند فَقْد الولد.

وفي السنة الأخيرة من حُكم «المعز» أمر بردِّ أملاكنا التي حُبست سابقًا أو صودرت بغير الحق، فصرنا بذلك من سراة الناس وأثريائهم في الفُسطاط، من بعد معاناة العَوَز لعشرات السنين. وأيامها قام جدّي «خَلَف» بإصلاح بيوتنا القديمة، المتهدمة والخربة والمهجورة، أعني تلك الكائنة بقلب الفُسطاط خَلف الجامع العتيق. وقسَّمها إلى منازل صغيرة للسُّكنى، وجعل تحتها حوانيت كثيرة، فصارت جميعها تُستأجر بمال وفير. لأنها مشرفة على الرحبة والشارع، حيث يقام السوق ويجتمع الناس كل أسبوع للبيع والشراء. وخرج هو بأسرته الصغيرة من وسط الفُسطاط الصاخب المزدحم، إلى طرفها الذي كان آنذاك قفرًا خاليًا، وشيَّد فيه، فأسكننا بهذا البيت الفسيح الذي بناه بالربوة المجاورة

للفُسطاط من جهة الشرق، وجعله على مساحة نصف فدان. وجعل قواعده المحيطة به سميكةً، ومبثوثًا فيها الصفائح وقطع الحديد المتقاطعة والزجاج، ليصعب نقبها. وأعلى حوائطه وشوَّك أطرافها العليا، حمايةً للبيت وأهله من تسلُّق السرَّاقين وتسلُّل العيارين والشطار الذين كانوا يأتون ليلًا من كل صوبٍ للنهب، ويسكن كثيرٌ من أراذلهم في حواف الناحية القريبة المسماة ويا للعجب «حلوان» مع أنه ليس فيها مع البؤس وسُكنى المجرمين، أي حلاوة. وأيام بناء هذه الدار استعان جدّي بساويرس ابن القمص، لعمل نجارة البيت من حلوقٍ وبواباتٍ وأبواب غرف ونوافذ صغيرةٍ عالية وأسرّة وأرائك، وكان ساويرس وقتها شابًّا دون العشرين ومزوَّجًا ومنجبًا. ولما عاين جدّي حسن أخلاقه وجودة عمله، استبقاه بجوارنا ومنحه حجرتين واسعتين خلف دارنا، ليسكن فيهما بأهله ويمارس أمام مسكنه صنعة يده.

ومع مرور الأيام، جاء جماعةٌ من سُراة الفُسطاط والقطائع فأقاموا الدور حولنا وسكنوها، فعمُر الموضع. وكان أولهم مجاورةً لنا، صديقُ جدّي الأسنُّ منه «أبو الفضل بن الفرات» وهو شيخٌ أشيب، فاضلٌ، كان في شبابه وزيرًا. وقد بنى داره الرحيبة المجاورة لنا على أحسن ما يكون، وجعلها مقسومةً من منتصفها بحائطٍ عالٍ ليس فيه باب، ليفصل به بين الذكور والإناث من أسرته كبيرة العدد. إذ كان الرجل مزواجًا ومُنجبًا، وجرى في بيته القديم أمرٌ جلل. إذ بلغه عن بعض أولاده أنه واقع أختًا له فأحبلها، فصار الرجل يحجب أولاده الكبار عن حرمه وأهله، وعن أمهاتهم. ومن ثَمَّ، لم ترحمه ألسنةُ السفلة من الناس وأسموه في تهامسهم، على سبيل السخرية: حارس الفروج.

وفي سنة «المعز» الأخيرة وقبل وفاته بعدة أشهر، خَطَب في الناس بجامع القاهرة وقال ما تناقله المسلمون جميعهم من سُنَّةٍ وشيعةٍ، وكتبوه في الرقاع من فرط الفرح به، وتداولوه فيما بينهم. وكان نص خطبته حسبما رأيتها مكتوبةً: «قد أنعم الله عز وجل، وتفضَّل وخوَّل ومَكَّن، ونريد الحج وزيارة قبر جدّي رسول الله، والجهاد. فإيش بقصِّر عن هذا؟ إنْ قُلت: ليس عندي مال! إني لكاذبٌ. وإن قلت: ليس عندي كراعٌ وسلاح! إني لكاذبٌ. وإن قلتُ: ليس عندي رجال! إني لكاذب. اللهم أعنِّي بنيةٍ أقوى من نيَّتي».

وقد وقع كلام «المعز» هذا على قلوب المسلمين، مثلما ينزل الغيث الرحيم على الأرض التي جفَّت حتى تشقَّقت. وتعالت الألسنةُ بالتكبير والبكاء، كأن ملة الإسلام قد غابت عن الدنيا ثم عادت بعودة شعيرة الحج، التي كانت بعد تقطُّع قد انقطعت تمامًا من بعد سنة الهول القرمطي. أعني السنة السابعة عشرة بعد الثلاثمائة للهجرة. ولأعوام عديدة، عربد البدو واعتادوا على نهب القوافل والأنحاء بمكة والمدينةَ وما حولهما، وعَجَزَ الأمراءُ عن تأمين قوافل الحجيج، وقَعَد عن ذلك الخليفةُ العباسي في بغداد الذي قيل له أن يُسيِّر إلى مكة القوافل محروسةً من سطوة السراقين والنهابين، فقال إنه لا يملك ذلك، بل لا يكاد يملك قوت يومه. مشيرًا بذلك إلى تضييق أمراء البويهيين عليه، وإلزامهم له بتقليل نفقة قصره الذي كان من قبل باذخًا، فصار الخليفة مع عَنَت البويهيين كالمتسولين.

وحين تحقق حُلم الخليفة المعز، ومع أول قافلة حجيج مصرية، ذهب جدّي «خَلَف» للحج في حراسة جند الخلافة، وحملوا معهم كسوةً للكعبة وأرزاقًا للمقيمين هناك من المجاورين وخُدام البيت

الحرام وأهل مكة المحاطين بالجدب والعوز. وكان أبي يودُّ لو ذهب للحج معه، لكن جدّي أرجأ ذلك لقابلٍ لأن الأحوال لم تكن تسمح بغيابهما معًا. وفي طريق عودته من مكةَ والمدينة، عرَّج جدّي على أقارينا الساكنين بأطراف الحجاز، وكانوا قد استردوا ميراث جدنا «عمرو بن العاص» المعروف هناك باسم «الوهط» وهو أرضٌ واسعةٌ مزروعة، كانت قد انتزعت من وارثيها وحُبس عنهم ريعها، ظلمًا وعدوانًا، وكانت لنا فيها حصة.

وعقب رجوع جدّي «خَلَف» سالمًا من رحلة الحج، وغانمًا، انتقلت أسرتنا الصغيرة من الفُسطاط إلى دارنا هذه وقد جهزتْ للسكنى فيها. ولأنها منعزلةٌ بموضعها عن بيوت الفُسطاط الضيقة المتلاصقة، وبعيدةٌ عن قصور القاهرة وبيوتها العامرة وأسواقها، نجتْ أسرتي من الوباء الذي اجتاح أنحاء مصر قبل مولدي بسبعة أعوام. وزاد الطين بلَّةً في ذاك العام نقصانُ ماء النيل، إذ بلغ المقياس في تحاريق سنة سبع وستين وثلاثمائة خمس أذرع، ولم يزد من بعد الفيضان عن خمس عشرة ذراعًا، وهو مقدار لا يكفي لزرع معظم الأراضي. وفي تلك السنة وقع الغلاءُ أولًا، ثم اشتد القحطُ وفسد الهواءُ فانتشر الوباءُ، ومات من الناس خلقٌ كثير يُعد بالألوف بل بالعشرات منها والمئات. وقد أخبرني جدّي «خَلَف» وغيره، أن بؤس الحال وصل بالناس إلى أنهم كانوا يدفنون موتاهم أيامها بلا كفن، وكثرت الأجداثُ بالطرق والدروب، فكان الناجون من الوباء يدفنون مَنْ لا يعرفون من الموتى. وهكذا اشتدت وطأة الوباء الذي هلك فيه جماعةٌ من أقاربنا الأباعد والأقربين، كان منهم «القاضي سند بن عبد الرحيم السهمي» وهو الأخُ الأصغر لجدي «خَلَف» وماتت معه زوجته وأبناؤه الاثنان لكونهم في قلب معترك الوباء،

إذ كانوا يسكنون بوسط الفُسطاط المزدحم بالناس، حيث عربد إعصاره. ولم تنجُ منهم إلا ابنته الصغيرة، عمتي تمنِّي، التي جاء بها جدِّي «خَلَف» لتعيش معنا وتصير ريحانة الدار وأجمل ما في الوجود. ولكن لَحقَ بها لاحقًا ما لا ذنب لها فيه، فقيل إنها «شؤم» لوفاة أسرتها سنة مولدها. وشاع ذلك عنها وهي منه بريئة، لكن الجهال والعوام من الناس لا يفقهون، ولا يتورعون عن أذية غيرهم بساقط الكلام وفاحش الصفات. ولله الأمر.

حدث كل ما حكيته قبل مولدي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، لكنه رسم ملامح حياتي. وفي العام الموافق للثمانين بعد الثلاثمائة، يعني عندما كنتُ في الخامسة من عمري، ذهب أبي إلى الحجاز لأداء المناسك مع قافلة الحجيج المصرية، واستجاب لتوسُّلات أمي فأخذها معه، مع أنها كانت حبلى. ولكن حملها لم يكن قد استعلن بعد، وكانت تتوهَّم أنها إن احتملت مشقة الحج وفي بطنها الجنين، فسوف يمسه المددُ الإلهي ويصير من قبل مولده مباركًا. هكذا خيَّلت لها ظنونها، أو بالأصح أمانيها التي كانت أوهامًا. وكان يرافق أمي وأبي في تلك الرحلة الحجازية، ابن عم أبي الذي لا أذكر الآن كيف كان شكله، ولا أتذكَّر عنه سوى أن اسمه «حبيب» وأنه كان وحيد أمه وأبيه، وأنه قبيل سفره بأيام حَجَزَ عمتي «تمنِّي» للزواج، وكانت آنذاك على مشارف الثالثة عشرة من عمرها. على نية إتمام الزيجة بعد عام، كان مقرَّرًا أن ينتهي أبوه خلاله من بناء بيتٍ جديدٍ للعروسين. لكن الله قدَّر شيئًا آخر. وإلى الآن، لا يزال موضع هذا البيت بالحواف البحرية للفسطاط، خربًا بلا بناء، إذ تشاءم منه أصحابه وجميع الناس، بعد المأساة.

بعد أدائهم الفريضة، ذهب أبي وابن عمه وأمي لزيارة أقاربنا في «الوهط» لإنهاء أمورٍ تجاريةٍ ومالية كانت عالقة بين المصريين والحجازيين من ذرية ابن العاص، السهميين. ذهبوا وانقطع خبَرهُم، وكثرت الأقاويلُ التي لم يثبت منها شيء: الأدلاءُ الذين كانوا معهم، طمعوا فيهم، فسرقوهم بعدما قتلوهم غيلةً في جوف القفار القاحل.. لا، بل سرقهم الأدلَّاءُ المجرمون وتركوهم في تيه الصحراوات الشاسعة، فهلكوا عطشًا وجوعًا.. لا، بل دهمهم هُم والأدلَّاء قاطعو الطرق، ونهبوهم ثم أخذوهم أسرى وباعوهم عبيدًا لبعض القرامطة من ساكني «الأحساء» وهي ناحية قاحلة، لا أحد يمكنه أن يعثر فيها على أحد.

رحمهم الله إن كانوا أحياءً أو موتى، وإن كان الأرجح بعدما مرت هذه السنون الطوال، أنهم في عداد الهالكين. يالقسوة الحياة وهول الصدمة! ويا رحمن أين الرحمة! مالي الآن أبكي، وقد مضى على مأساة اختفائهم وقتٌ طويل!

* * *

عندما ذهب أبي وأمي إلى رحلة الحج الوحيدة هذه، ولم يرجعا منها، تركاني هنا في رعاية جدّي والخادمة «بهجة» وعمتي «تمنّي» التي ثبت في أوهام العوام بعد هلاك خطيبها المرحوم «حبيب» أنها نذير شؤم. وأجرموا في حقها بأن اعتادوا الإشارة إليها بصفة «المشؤومة» وصاروا يسمونها فيما بينهم «البومة» بدلًا من اسمها الجميل الحاني. وأكّدوا لبعضهم البعض أنها لن تتزوّج أبدًا، ولن يجرؤ أحدٌ على خطبتها مجددًا، بعد هلاك والديها عقب مولدها وهلاك ابن عمها فور خطبته لها. ظلمتها أوهامُ العوام والجهال من

الناس، لأنهم لم يعرفوها مثلما عرفتها، فلم يدركوا أنها أرقُّ وأبهى وأشهى ما في هذا الكون. لكن أكثر الناس لا يفقهون، بل ويشبهون البهائم. لا يصح وصفي هذا، ولا يليق.. حين أعود لتبييض هذه الأوراق، سأحذف قولي: «يشبهون البهائم» وأضع وصفًا آخر لهم.

* * *

وقد قصصتُ فيما سبق، ما سمعته أو صحَّ عندي من وقائع جرت قبل مولدي وخلال طفولتي المبكرة، وفيما يأتي سأذكر ما عاينتُ وما كنتُ عليه من الشاهدين. لعل هذا وذاك يكونان عبرةً للناظر وموعظةً لذوي البصائر من أحفادي وأسباطي.

وإن كان ما سبق قصه قد وصل إليَّ بطريق الإخبار والحكاية، فإن أول ما رأيتُ فعلًا بنفسي وحُفر في ذاكرتي منذ الصغر، فصار كالنقش على الصخر، هو ما وقع في منتصف الشهر الشتوي المسمى بلسان القبط «طوبة» وكنت آنذاك في الخامسة من عمري. ففي ذاك الصباح البعيد الدافئ، سمعتُ وأنا جالسٌ بين يدَي عمتي «تمنِّي» على سطح دارنا، صوت مُنادٍ يجوس بين الطرقات معلنًا وفاة رجل كان في زمانه مشهورًا، اسمه يعقوب بن كِلِّس. وعرفتُ فيما بعد، أن هذا المتوفى كان رجلًا من عجائب الدهر. وفد إلى مصر من العراق وهو يهودي، وأسلم لينال الوزارة، فوَزَرَ لكافور الإخشيدي ثم للمعز والعزيز، ودفنه الأخير بعد أن أمَّ صلاة الجنازة عليه بنفسه ومن حوله كبار رجال قصره الصقالبة والمغاربة.. يومها قبيل ساعة الغروب، ذهب جدّي «خَلَف» للتعزية في المتوفى، فتأخَّر وغاب عن الدار ليلًا على غير ما اعتاد. بملل التكرار، كانت «بهجة» في منتصف صحن الدار، تلتُّ في «ماجور» الفخار، عجين الفطائر لتخبزها لنا فجرًا.

ومع شمول حلكة الليل، هبطت علينا برودةُ الأمسيات فأخذتني عمتي «تمنّي» للنوم، وحين دخلتْ بي حجرتنا القِبلية لمحتُ في زاوية السقف العالي «وَزَغَةً» كبيرة الحجم، داكنة اللون. انخلع قلبي من شناعة منظرها فصرختُ مرعوبًا وباطني يرتجف من فرط الخوف. يعاودني ذاك الإحساس بالرجفة كلما رأيتُ الوزغ كبير الحجم، أو حتى الصغير، مع علمي بأنه غير مؤذٍ للإنسان.. في تلك الليلة وبلهفةٍ فورية، أحاطتني عمتي «تمنّي» بذيل ردائها وضمَّتني إليها بقوة اللهفة، فاندس رأسي بين نهديها وبطنها، وانسربت مني المخاوفُ، حين فاضت إليَّ من محبتها الطمأنينة. أخذتني وهي تربت على ظهري فأجلستني في الزاوية الأبعد، وسحبت من تحت الدكة العريضة زكيبة «الزوفا» وقبضت من عشبها الجاف مقدارًا ألقته فوق الجمرات المُدفئة للحجرة، فتصاعدت خيوطُ البخور متسارعةً وتسابقت للتحليق والتحلُّق في فضاء وسماء حجرتنا. جفلت الوزغةُ وتوارت على الفور بين فروج السقف، فأخذتني عمتي «تمنّي» برفق الأمهات إلى المصطبة المغطاة بفرشة نومنا.. في حضنها الحنون وقبل استسلامي للنعاس، سألتها إن كانت الوزغةُ سوف تعود أثناء نومي؟ فمرَّت بأناملها على شعري وهي تقول بصوتها الأمومي الحاني: لا يا مُطيع، فهي تخاف من الدخان وتهرب بعيدًا عن أي بخور.. في ذاك الوقت كانت عمتي «تمني» كاعبة النهدين، في حدود الثالثة عشرة من عمرها أو الرابعة عشرة، وكنتُ أراها سامقة الطول كالنخلات العاليات. وتامة الحسن، ساحرة الحضور. وكنت أجد فيها رفق أمي التي حُرمت منها، وأمانَ أبي الذي أخذه مني الزمانُ.

على أعتاب السنة الثامنة من عمري، قال جدّي «خَلَف» سامحه

الله، إنني صرت رجلًا، ويجب تفريقي في الفراش عن عمتي «تمنّي» وكلَّف ساويرس النجار بعمل سريرٍ لي، وضعه في الحجرة التحتانية الخاوية. كان السرير والحجرة، كلاهما، كبيرًا وقارس البرد وموحشًا، وكنتُ لم أزل طفلًا. أرقتُ ليلاتٍ وتناوبتني الكوابيس والجوائم، فلما اشتد هُزالي وظهر على وجهي اليرقانُ، وافق جدّي على رجاء عمتي «تمنّي» أن نبيت على سريرين في حجرة واحدة. فصلُح حالي وعدتُ صحيحًا، إذ صرتُ أذهب في غيابة النعاس كل مساءٍ ونظراتي مُولّية قِبْلتها، وبها قلبي البريء مُولَّه.

وسارت بي الأيامُ وسَرت الليلاتُ هادئةً هانئة، لا شية فيها، ولا اختلال منوال. أوان الضحى أنزل مع جدّي «خَلَف» لحضور الدروس في الجامع العتيق، وأحفظ في الأمسيات المزيد من آي القرآن وأشعار القدماء، ويوم الجمعة من كل أسبوع يأتي لدارنا صباحًا، جدّي لأمي «أنَس بن مسروق السهمي» ومعه المنديل الذي يجلب فيه الفواكه والحلوى، فأبقى بين الجدَّين حتى نذهب جميعًا لأداء الصلاة بجامع جدنا العتيق. ثم نصعد للغداء، مرةً في دارنا والتالية في دار جدّي أنَس. وفي بعض الأيام، خصوصًا الصيفية، كنا نذهب جميعًا لقضاء الأوقات الجميلة في حديقة جدّي «خَلَف» بالناحية الأخرى المسماة «الجيزة» فنمضي هناك النهار بطوله، وفي بعض المرات نبيتُ في غرف المعيشة التي بوسط حديقة الفاكهة، ليلةً أو ليلتين. وأحيانًا يصحبنا إلى هناك، جدّي «أنَس» وبعض خالاتي وأولادهنَّ.

جداي تجمع بينهما القرابة فقط، وفيما عداها يختلفان في كل شيء. جدّي «خَلَف» نحيلٌ ويميل إلى الطول وحُسن الهندام وقوة

الملامح، وهو دومًا جاد، وجدِّي «أَنَس» بدينٌ يميل إلى القِصَر وبسيط الملبس، كثير الضحك والإضحاك وذِكْر الطرائف. والناس في الفُسطاط يحبون جدِّي «أَنَس» أكثر لأنه يتبسَّط معهم، ولا يشتغل بالعلوم ويجتهد في الفقه مثل جدّي خَلَف. سألتني عمتي تمنِّي في ليلةٍ شتويةٍ دافئة الفراش، أثناء أحاديث ما قبل التوغل في أدغال النوم، عمَّن أحبه من جدَّيَّ أكثر؟ فتحيَّرتُ في الإجابة حينًا، حتى ابتسمت هي من الجهة المقابلة فأشرقت الحجرة بنور وجهها، وسألتني مجدَّدًا بإلحاحٍ حنون: تُحب مَنْ أكثر يا مُطيع؟ فقلتُ: أنتِ.

قليلةٌ بل نادرة، تلك اللحظات التي نحسُّ فيها على نحوٍ مبهم، أننا الآن موجودون بالكامل. فما عدا ذلك من حياتنا، خواءٌ في هواء. وقد شعرتُ ليلتها وأنا أنظرُ في عينيها بشغفٍ ودهشة، وتنظر هي في عينيَّ بعطفٍ وحب، بأنني الآن موجود بالكامل وأحسُّ فعلًا بالحياة.

في ختام التاسعة من عمري وبدايات العاشرة، صرتُ فخورًا بأن قوامي قد ابتدأ يطول، فاقترب رأسي من عنق عمتي تمنِّي، وفي ذاك الوقت. أعني في حدود السنة الرابعة والثمانين بعد الثلاثمائة للهجرة النبوية. ماتت الخادمة العجوز الطيبة «بهجة» فحزن عليها جدّي أيامًا، ثم اعتاض عنها بخادمتين. إحداهما نصرانية من القبط، ومتدينة، والأخرى من فقراء المصريين مسلمة ولكنها لا تصلِّي إلا نادرًا، ودرءًا للملامة. الأولى الأكبر سنًّا، أكثر مكرًا ونحافةً، واسمها «طُريزة» والأخرى أطيب وعلى وجهها من الحسن مسحةٌ، واسمها: بان. وهو الشجر السامق، سريع النمو، الذي ينبت في النواحي الحارة. وكلتاهما تخدم في دارنا بأجرٍ متفقٍ عليه، إذ لم يشأ جدّي شراء إماء، مع أن جدّي «أَنَس» ألحَّ عليه في ذلك. وذلك لأن جدّي

«خَلَف» كان قد انفرد باجتهادٍ فقهيٍّ، خلاصته أن القرآن دعانا لتحرير الرقاب، ومن ثَمَّ فالواجب على المسلمين أن يجتنبوا قَدْر المستطاع استجلاب العبيد. لا سيما في أزمنة السلم، حيث ينعدم اندلاع نيران الحروب ووجود الأسرى. وكان يرى أن اتفاق «البقط» بين حكامنا وملوك النوب، أمرٌ لا يليق بالمسلمين، وأنه لا يجوز شرعًا استرقاق العبيد والإماء إذا دخل أحدٌ منهم في دين الإسلام وأعلن إيمانه بالتوحيد. وذلك استنادًا منه إلى الآية القرآنية المُحكمة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾، فلا يجوز لمسلم شراء مسلم أو مسلمةٍ، اشتراهما الله. وكما هو معتادٌ ومتوقع، لم يقبل معظم النّاس اجتهادات جدّي، ووصفوها بأنها فتنة وابتداع. لأن معظم الناس، لا يحبون إلا ما يوافق أهواءهم ويتوافق مع مصالحهم. قلتُ أيامها لعمتي «تمنِّي» إنني أود لو يشتري جدّي إماءً كاللواتي في دار جدّي «أَنَس» ومعظم الدُّور، فاستغربتْ قولي وحدَّقت فيَّ بعينيها الجميلتين وسألتني عن سببه، فقلتُ لها بلسان أهل الابتداء وبلا حذرٍ، إنني أحب مشاهدة صدور الإماء وأثدائهن المكشوفة. كتمتْ بأصابع يديها اليمنى ضحكةً كادت تنفلت منها، وأخجلني قولها باندهاشٍ ممزوج بالابتهاج الخفيِّ: وانتَ يا مُطيع إيش تريد من صدور النسوان؟.. فاعتصمتُ بالصمت لحظتها، واحترتُ، لأنني آنذاك لم أكن أدري بدقةٍ حقيقة ما أُريد.

في ذاك الوقت كنتُ فخورًا ببدء اتخاذي سمت الرجال، قبل الأوان، فصرتُ أتأنق في الملبس وأتحفَّظ في الكلام مثل الكبار، وأعتزُّ بأن جدّي «خَلَف» يحادثني كأنني من البالغين، مع أنني كنت آنذاك صبيًّا أمرد، ما طرَّ شاربي ولا بَقَلتْ لحيتي.. وفيما أذكر، كان

بدءُ شعوري بالرجولة ليلة دخلتُ على جدّي «خَلَف» وهو منفردٌ في حجرة الضيوف، وبين يديه كتابٌ يقرأ فيه على ضوء السراج. ألقيتُ عليه السلام فردَّ عليَّ بتوقيرٍ، وبعدما قبَّلت يده كالمعتاد أشار إليَّ بالجلوس إلى جواره، وعاد إلى النظر في الكتاب فسألته عما يقرأ. قال إنه جزءٌ من القرآن الكريم مكتوبٌ بالخط القديم، ومضبوط الأحرف بحسب قراءةٍ أخرى تخالف رسم المصحف الإمام. لم أشأ الخوض معه في هذا الأمر الدقيق، لعدم معرفتي الوافية آنذاك بعلم القراءات ودقائقه ومهاويه المهلكة، فأخذتُ الحديث إلى وجهة أخرى بأن سألته عن سر انشغال ذهنه مؤخرًا، وسبب الحزن البادي عليه منذ أيام. طوي دفتَي الكتاب ونظر ناحيتي وهو يخبرني، كأنني صديق له، بأنه حزين من أجل صديقه «ابن الفرات» جارنا.

ـ وإيش بيه يا جد، هو مريض؟

ـ لا، الحمد لله، ليس مريضًا. لكنه في ضائقة شديدة.

كان «ابن الفرات» قد استعفى من عمله رئيسًا لديوان المحاسبة بدولة «العزيز بالله» واعتذر من الخليفة عن مواصلة النظر في الأموال والمكوس وجباية الضرائب. فأُعفي من ذلك وحوسب، فصار عليه مقدارٌ كبير من الأموال التي كان قد ضمن سابقًا الملزمين بسدادها، فلم يلتزموا. وكانت له ضياع بالشام لم يسدِّد ما هو مقرر عليها من الخراج، فصار جملة المستحق عليه خمسة وخمسين ألف دينار، وهو دَينٌ كبير، عجز عن الوفاء به في الموعد بعد الموعد، فأُهين.. لم أدر لحظتها بما يجب أن أردّ به على جدّي، فقلت بوقارٍ اصطنعته بقدر ما استطعت: ربنا يعفي عنه.

ـ آمين، آمين. بارك الله فيك يا ولدي.

ليلتها وبلا تمهيدٍ أو بيان سبب، قلتُ لعمتي «تمنِّي» قبل نومنا إنني صرتُ رجلًا، فأشرق وجهها بابتسامة عذبة وقالت وهي تشد عليها الملاءة الخضراء الخفيفة، التي تتغطّى بها حين يترحَّل عنا الشتاءُ: طبعًا يا مُطيع، أنت رجل جميل.. وقبل أن تطفئ فتيلة السراج استعدادًا للنوم، دعتْ لي من قَلْبها بلسانٍ يهمس وهو يتوسَّل: يارب احفظه، احفظه يارب لأجل خاطر النبي.

بقيتُ ليلتها ساعةً أتقلَّبُ فوق دثاري مبتهجًا، ومحلِّقًا بخيالي في آفاق بعيدة غير مفهومة. وسائحًا بأحلامي بين نواحٍ سحرية غامضة. بعدها بعدة أسابيع، في ليلة كان قمرها قد اكتمل بدرًا، وكانت عمتي «تمنِّي» آنذاك في حدود السادسة عشرة من عمرها، وكنا نبيتُ كالمعتاد صيفًا بالحجرة السطوحية. هربًا من حَرِّ الحجرات التحتانية، ومن حدة رائحة رذاذ الخل الطارد للبراغيث. أرقتُ ليلتها بلا سبب بعدما انتصف الليل، فلم أجدها نائمةً بمكانها فوق المصطبة المقابلة. انتابني قلقٌ وبعضُ الخوف، فقمتُ عن فرشتي، وخرجتُ من الحجرة حائرًا أتلفَّت. وأنا بمنتصف السطح واقف على قدم القلق، سمعتُ صوت انصباب ماءٍ فسربتُ متسللًا إلى مصدره، وأنا غافلٌ عما سأجده خلف الأفران الثلاثة التي بزاوية السطح القبلية. كانت عمتي «تمنِّي» تستحم تحت ضوء القمر. وقفتُ كالمسحور أرقبها من خلف كومة الحطب العالية، مستترًا حيث أراها ولا تشعر بي، ومحدقًا في بهاء قوامها وقطرات الماء المنثورة مثل اللآلئ على صدرها وظهرها.. العري كاشفٌ للمفاتن الأنثوية، المحيرة باكتمالها، وقد كانت لحظتها أمام عينيَّ عاريةً تمامًا، من قدميها إلى

شعرها الناصع اسوداده بخصلاته القوية التي تتساقط منها حباتُ الماء، المذاب فيها الضوء، فتضوي وهي تنساب لامعةً من جبهتها الفاتنة، إلى جفنَي عينيها المسبلتين. إلى عنقها السامقِ عسليِّ الهيئة. إلى كتفها الفضية وإبطها الغامض الجذاب. إلى نهدها وتاج صدرها المبهر بالاهتزاز الخفيف، إلى استدارة.. يكفي هذا.. ولا يليق ذِكره.

أثناء مشاهدتي هذه، البديعة المذهلة. كنتُ أستند بيدي اليسرى إلى أعلى سور السطح، ولم أنتبه مع فرط ذهولي إلى العقرب التي لدغتني عند منبت إصبعي الصغيرة. صحتُ بذعرٍ مكتوم: لُسِعتُ، لُسِعت! سمعتني عمتي «تمنّي» فأسرعتْ نحوي ملهوفةً، وأمسكتْ بيدي المصابة وراحت وهي جاثية على ركبتيها، تمصُّ بفمها الدم من موضع اللدغة، ثم تتفله جانبًا. فعلتْ ذلك ثلاث مراتٍ أو أربعًا، وأخذتني بسرعة وهي ترتجف إلى موضع نومي، من دون أن تنتبه من فرط لهفتها وخوفها عليَّ، أنها كانت عاريةً تمامًا وتامة السحر.. والحنو.. والحب الذي لا حدود له.

ليلتها. رأيتها بعد خروجها إلى السطح، ثم عودتها السريعة إلى الغرفة مرتديةً ثيابها، تبكي. وفي ليلاتٍ تاليات، كانت بعد أن تطيل نحوي النظر قبل نومنا، تبكي. واستمر الحال على ذلك قرابة شهر، وفي الليلة التي جاءنا بصبيحتها الباكرة «أبو الفضل بن الفرات» ليُخبر جدّي «خَلَف» بما يريده الخليفة «العزيز بالله» سألتها عما يبكيها كل ليلةٍ فازداد دمعها غزارةً وأجهشت وهي تقول بحسرةٍ إنها لا تسامح نفسها على تركها باب الحجرة مواربًا. تقصد ليلة لُسعتُ. مع علمها أن الحيات والعقارب تنشط ليلًا ويكثر سعيها عند اشتداد الحرِّ، ومع العتمة والسكون، وقد تدخل إلى حجرتنا من بابها غير المغلق..

وهكذا، حسبما كانت تتوَّهم، عرَّضني إهمالها لخطر الهلاك! باحتْ لي بذلك وهي نصف مستلقية، ثم انهمر دمعها وهي تنهض فتجلس القرفصاء عند حافة فراشها ووجهها إلى الأرض من فرط الأسف. أشفقتُ عليها، فقمت ملهوفًا لأجلس بجوارها وأقول بصوت خفيض إنها مخطئة، فإنني لم ألسع هنا أثناء نومي وإنما كنتُ خارج الحجرة. سألتني مستغربةً عما أخرجني من فرشتي إلى السطح، في جوف الليل، فترددتُ لحظة قبل أن أزعم كذبًا، أنني أردتُ قضاء حاجتي.

كذبتُ من شدة إشفاقي عليها، ومن خوفي أن تغضب مني إذا عرفتْ حقيقة ما جرى. ولما سكن دمعها ونشيجها، عدتُ مسرعًا إلى فرشتي كي لا تكتشف كذبي، نظرًا لقُربي منها. وقبل أن أهرب منها إلى سرداب النوم، لمحتها تتأمَّل فيَّ بعينٍ تخلو من الدموع، ونظرةٍ لا تخلو من الحيرة المشوبة بالاندهاش. وبالشغف.

صبيحة تلك الليلة، وقبيل ذهابي مع جدّي إلى الدرس اليومي بالجامع العتيق، جاءنا جارنا «ابن الفرات» بلا موعدٍ سابق أو سابق إخطار.. جلس جدّي معه في مجلس الضيوف سويعةً، ثم استدعاني إليهما ليخبرني بأن صديقه ابن الفرات يبلغنا برغبة الخليفة «العزيز بالله» أن أحضر الدروس مع ابنه الأمير «منصور» بالقاهرة، وذلك استجابةً لنصح الشيوخ المدرِّسين الذين يسمونهم هناك الأستاذين، يقصدون بذلك «الأساتذة» ويُقال لهم أيضًا المحنكون. لأنهم يلفُّون حول وجوههم ذيل العمامة، بحيث يحيط بما تحت الحنك. وهؤلاء العلماء المعلّمون الذين يثق فيهم الخليفة، أخبروه بأن الأصلح لابنه ألا يتلقى الدروس على أيديهم منفردًا، والأفضل والأوفق له أن

يشاركه في ذلك رفقةٌ من أقرانه. وقد اهتم الخليفة برأيهم هذا وبحث فيه فوقع الاختيار على اثنين، أحدهما صبيٌّ اسمه «حسام بن يانس الصَّقْلبي» من أبناء رجال الدولة، والصبي الآخر أنا.. كانت عمتي «تمنِّي» قد دخلت علينا بإبريق العصير البارد والأكواب، وبحياءٍ حيَّت الضيف ثم جلست على غير عادتها عند عتبة الباب، موليةً وجهها إلى صحن الدار، وأُذناها إلى ما يدور بالحجرة من الكلام. ولما انتهى جدّي من حديثه إليَّ، وأردف أنه موافقٌ على هذا الأمر ويرى فيه خيرًا، وأضاف «ابن الفرات» أن الصبي منصور هو وليُّ العهد، وسوف يكون الحاكم مستقبلًا. عندئذٍ التفتت نحونا عمتي تمنِّي، وقالت لجدي: لكن يا عمي، أنا خايفة على مُطيع، مُطيع صغير.

ضايقني وصفها لي بالصغير، وأعجبني أن ابن الفرات قاطعها بقوله إنني صرتُ على مشارف الرجولة، وأردف أنني سوف أتعلم في القاهرة على نحوٍ أفضل مما هو متاح لي هنا. يقصد في الجامع العتيق. وحين سأله جدّي: والمذهب؟ أجابه ابنُ الفرات بأنني لن أحضر مع الأمير دروس الفقه الشيعي الإسماعيلي، وإنما سأحضر معه فقط دروس اللغة والأدب والطبيعيات والفلك والحساب والهندسة.. بهدوءٍ، هزَّ جدّي رأسه وهو يقول عني متفاخرًا، إنني أحب علوم الهندسة والحساب والفلك بشكل خاص. ولمزيدٍ من الإقناع، أضاف جدّي وهو يدير أنظاره بيني وبين عمتي تمنِّي، أنه لا يوجد في الجامع العتيق أساتذة أكفاء في هذه العلوم، هو يعرف أن «الأستاذين» في القاهرة لهم باعٌ طويل في تلك الفروع المعرفية، أما العلوم الشرعية على المذهب السُّني، من فقهٍ وتفسير وعقيدة

وحديث نبوي، فيمكنني دَرْسها بالفسطاط يومَي الجمعة والسبت من كل أسبوع.

التفت جدّي نحوي وهو يسألني عن رأيي، وهل أحب الذهاب إلى القاهرة للتعلم؟.. فالتفتُّ حائرًا ناحية عمتي تمنّي، فوجدتها قد توَلّت عنا بوجهها إلى الجهة الأخرى، فبقيتُ شارد الذهن غيرَ مدركٍ لما يجب أن أجيب به. وزادت حيرتي بعدما قامت فجأة من جلستها وذهبتْ مغاضبةً، أو غير راضية عن المقترح، لإعداد وجبة الغداء.

استطال كلامهما فامتلأتُ مللًا من مجلسهما، ولم أستطع مقاومة رغبتي في رؤية عمتي «تمنّي» والحديث معها عن هذا المقترح الذي أثار بقلبها القلق والرهبة. انسحبتُ من حجرة الضيوف بلطفٍ، وتسللتُ إلى حجرة الطبخ الكبيرة حيث كانت تعد مع الخادمتين الطعام، فكان بخارُ القدور يتصاعد حولهنَّ حاملًا رائحة البصل المقلّي وحساء اللحم والخضراوات. كانت منهمكة فيما تفعل لكنها حين رأتني واقفًا عند الباب، تائه النظرات، مسحت العرق عن وجهها الجميل بذيل ثوبها، وجاءت إليَّ ملهوفة: خير يا مطيع؟ مالك يا حبيب قلبي؟ جوعان؟

لم أجاوبها، فحاولتْ أن تبتسم وهي تدعوني برفقٍ للعودة إلى مجلس الكبار، الممل. امتثلتُ، وعدتُ إليهما بعدما عدَّلتْ هي من هندامي ومسحتْ على شعر رأسي، وضمَّتني إليها لوهلة سريعة وهي تهمس بقولها: متى يارب أضع على هذا الرأس الجميل العمامة؟!

مثلما ذهبتُ عنهما، عدتُ إلى جدّي وصاحبه تائه النظرات والفِكر، فكان جدّي لا يزال يشكو من أحوال أهل الفُسطاط وأفعال

جماعتنا من أهل السنة، الذين يحرصون على إغاظة الحكام الفاطميين والذين معهم من الشيعة، بأن يطبخوا في بيوتهم «الملوكية» التي صاروا يسمونها الملوخية، ويطلبوها من المطاعم الكثيرة. إذ إن معظم سكان الفُسطاط وما حولها، فقراء، لا يطبخون في بيوتهم توفيرًا للنفقات. وعند رفع أذان المغرب، يُقلُّون الثوم في المطاعم والبيوت حتى تفوح رائحته وتشتد، ويكاد لونه يسودّ، ثم يسكبون عليه مرقة الملوكية دفعةً، فيمتلئ الهواء بالرائحةِ النفاذة التي تصل إلى أنوف الشيعة في بيوتهم. ويقال إن الرائحة القوية هذه تنفذ من شدتها إلى القصر الكبير بقلب القاهرة، ناهيك عن وصولها إلى ما حول القصر من أنحاء.. وفي النهار، يدفعون الباعة الجائلين للطواف حول بيوت الشيعة في الفُسطاط والعسكر والقطائع، بل وحول أسوار القاهرة، وينادون بصوتٍ عالٍ على الجرجير. وهم يفعلون ذلك لإغاظة الشيعة وإثارة حنقهم، إذ إن المشهور في أوهام وأذهان الناس، أن «معاوية بن أبي سفيان» كان يحب الملوكية، وأن السيدة عائشة زوج النبي كانت تحب الجرجير. والشيعة بطبعهم يكرهون معاوية ولا يحبون السيدة عائشة، فتثيرهم تلك الأفعال وتهيج بواطنهم.. قال ابن الفرات: هذه من سُبُل العوام الصبيانية، لمقاومة الدعوة إلى التشيع.

ـ وأين هي هذه الدعوة يا أبا الفضل؟

ـ معروف يا «خَلَف» أن الفاطميين يدعون الناس إلى مذهبهم الشيعي، ويبثُّون في أنحاء الأرض الدعاة.

ـ كان ذلك يجري في السابق يا أبا الفضل، وقد انقلب

الدعاة على الأئمة، وصاروا قرامطةً يحاربون الفاطميين ويسمونهم العبيديين تحقيرًا لهم. والكل هنا يشهد بأن هؤلاء منذ جاءوا مع الخليفة «المعز» وقائده «جوهر» من قبله، لم يتدخلوا في اعتقادات الناس ولا حاولوا تحويل المصريين من المذهب السني إلى المعتقد الشيعي الإسماعيلي. ألا تشهد أنت بذلك؟ وأنت يا أبا الفضل قد عاصرتَ حُكَّامهم وعملت لهم، بل وزرت، فهل رأيت منهم إجبارًا على اعتقادٍ أو تسفيهًا لمعتقد مخالفيهم. ولا تنسَ يا أبا الفضل، أن الفاطميين أنقذوا البلاد والعباد من إجرام القرامطة وأفعالهم المريعة..

ـ دعك من هذا الكلام يا خَلَف، ولا تردِّده، فإن أهلك وجماعتك من أهل السُّنة، يحز في نفوسهم ما تقول. وهذا أمرٌ لا تُحمد عواقبه، ويجب الحذر منه.

ـ لن يُغني الحذر عن القَدَر.

ـ أنت يا خَلَف عنيد، مثل أبيك.

حين سمعتُ عبارة ابن الفرات الأخيرة، اندهش عقلي المحدود من بداهة أن جدّي كان له أب، لأنه لم يحدثني أبدًا عن أبيه. وعندما انتقلا بالكلام إلى الحديث عن دمشق والشام، وسوء الأحوال هناك بسبب كثرة الحروب، شردتُ عنهما بخواطري فسألني جدّي: ماذا بك يا مُطيع؟ قلتُ: لا شيء يا جدّ.. لأنني لم أستطع أن أقول بلسان العاشرة من عمري: جدّي كان له أبٌ وأمٌّ وجَدٌّ، وأبي كان له أب وأم وجد، أنا الوحيد الذي لا أب له ولا أمّ..

بعد ارتفاع أذان الظهر الذي وصل لأسماعنا من بعيد، صلَّينا جماعةً، وبعد ساعةٍ عادت إلينا عمتي «تمنّي» والخادمتان، يحملن طاولة فوقها أطباق الغداء الشهي الفواحة رائحته بالتوابل والأفاوِيه. جلسنا حول الطاولة وجلستْ هي بموضعها السابق، على عتبة باب الحجرة، لكن وجهها كان متوجهًا إلى الداخل لتلبية ما قد نحتاج إليه. وبعد فراغنا من غدائنا جاءت لنا بإبريق الماء والطست الصغيرة، ليغسل الضيف وجدي الأيدي من أثر الدسم. وأثناء ذلك قال ابن الفرات إن رسول الخليفة سيأتي إليه، ليعرف منه الرد على ما طلبه. أعاد جدّي عليَّ السؤال: هل أنت موافق يا ولدي؟ فعدتُ للصمت والحيرة، ولما استطال سكوتي وانتظار جدّي وصاحبه، تولَّتْ عمتي تمنّي ناحيتي ونظرتْ إلى عينيَّ بعينينِ تتسعان حُسنًا، وتمتلئان بمعانٍ متعارضة: رقةٍ، وهلع، وولع، وإشفاق، وقلق، ورجاء، وفرحة سحرية، وحبٌّ بلا حدود. ثم سألتني برفقٍ وقلق: إنت إيش تريد يا مُطيع؟.. بقيتُ بينهم صامتًا، مُحاصرًا، وحيدًا.. ماذا أريد؟.. ليت بإمكاني أن أقول لها علانيةً: أنتِ.

كنتُ آنذاك أريدها من دون إدراك لما أريده منها، وكان اشتهائي لها مبهمًا عليَّ، وليس له شكل محدَّد. المهم، لم نذهب يومها للجامع العتيق وفاتتني الدروس، ولم يعقد جدّي حلقة الفقه قليلة الطلاب. فقد بقي ابنُ الفرات في دارنا إلى وقت صلاة العصر، وبقيت جالسًا معهما حتى عاد الضيف إلى داره. وكنتُ أثناء ذلك، على الرغم من فرط حيرتي، سعيدًا بأنهما يتحادثان أمامي وكأنني واحدٌ من الكبار. قبل ذهابه، قال ابن الفرات إن مشكلته المالية التي سبق أن اشتدت توشك مؤخرًا على الانفراج، وإن كبرى حفيداته سوف تتزوج تاجرًا

يعيش في الإسكندرية، وإنه يتوقع مع امتداد المباني والعمران أن تصبح الفُسطاط والعسكر والقطائع بلدةً واحدة أكبر من مدينة بغداد. وقال غير ذلك الكثير من عموميِّ الكلام. أما جدّي فقد تحدث بحُرقة عن سوء أهل الزمان، وانعدام المروءة من نفوس الناس. ونعى على أهل الفُسطاط استهانتهم بمكانة الجامع العتيق، حتى إن العوام باتوا يعبرون من خلاله لاختصار الطريق، وهذا لا يصح ولا يجوز في عقلٍ ولا شرع.. فمزح معه ابن الفرات بقوله: أراك قد قدَّمت العقل على الشرع، فهل صرت معتزليًّا.

ـ يا أبا الفضل، العقل مناط التكليف وشرطه الأول، وإذا ابتعد عن الشرع فلا خير فيهما.

بعد صلاة العصر جماعةً، تركنا ابن الفرات وقد استقر الرأي على أن أذهب للقاهرة الأيام الأربعة الوسطى من كل أسبوع، من الصباح الباكر إلى ما بعد الظهيرة وأنتظم في دروس الجامع العتيق يومَي الجمعة والسبت.. وانتهت الزيارة بالأدعية المعتادة، وقراءة الفاتحة استجلابًا للتوفيق الرباني في مقبل الأيام.

* * *

لن أنسى ما دمتُ حيًّا، تلك اللحظات السحرية المبكرة التي رأيت فيها لأول مرةٍ سور القاهرة. كان ذلك في أول أيام الشهر الثالث؛ أعني ربيع الأول، من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وكان يوم الخميس.. خرجت من دارنا مع جدّي باكرًا راكبَين البغلتين المسرجتين اللتين جاءنا بهما من القصر الفاطمي، اثنان من الجند الصقالبة يركبان حصانين، وخلفهما يهرول أربعة عبيد من الزنج الذين يسميهم الناس

البِقْط. الطريق من دارنا إلى القصر الفاطمي الكبير، يستغرق سويعةً كانت بالنسبة لي مليئة بالمدهشات وبالاستفاقة من التوهمات، فقد كنت لعدم تجوالي في الأنحاء بسبب الخوف المفرط عليَّ، أتوهَّم أن الجامع العتيق هو أشد بقاع الأرض ازدحامًا، وأن القطائع والعسكر بلدتان متباعدتان، وأن القاهرة قصرٌ كبير يسكنه الخليفة الفاطمي ورجال دولته. وفي يوم خروجي الأول عرفتُ أن الفُسطاط، كما قال ابن الفرات بالأمس، اتصلتْ مساكنها ومبانيها بالعسكر والقطائع، فكأنها صارت بالفعل بلدةً واحدةً حاشدةً بالبشر والدور والحوانيت والأسواق، وفيها مواضع أشد ازدحامًا مما حول الجامع العتيق. وعرفتُ أن القاهرة بلدةٌ كبيرة مسوَّرة بجدران متينة البنيان، كأنها سجنٌ رحيبُ الأنحاء. مفتاحه بيد السجين. حين اقتربنا منها، هالني ارتفاع أسوارها فسألتُ جدّي بصوتٍ خفيض: لماذا لم يجعل جدنا «عمرو بن العاص» للفسطاط سورًا؟ فاقتضب وردَّ عليَّ وهو يبتسم، بعبارةٍ فهمتها بعد حينٍ من الزمان: لأنه لم يكن مرعوبًا يا مُطيع.

عندما دخلنا من بوابة القاهرة القِبلية كنا نظن؛ جدّي وأنا، أن الدروس سوف تكون في ساحة مسجد القاهرة، الذي يسميه بعضُ العوام «الجامع الأزهر» أو في ناحيةٍ قريبة منه، ملحقةٍ به، لكن الحراس أخذونا مباشرةً إلى القصر الفاطمي الكبير، بديع البناء. القاهرة كلها بديعة المباني بل بالغة التأنق، وشوارعها المستقيمة تتفرَّع كلها من شارع واحد طويل، يوصل بين البوابتين البحرية والقبلية. وفيها بساتين كثيرةٌ بين الدور والقصور، وعرصاتٌ واسعة، وميادين صغار نظيفة مغطاة بالعشب المسمى النجيل أو النجير. ورأيت في زيارات تالية، مزيدًا من المتنزهات والمناظر المحيطة بها، خصوصًا من ناحية النيل المحتفّ بالجانب الغربي منها. وهي

إجمالًا جنة أرضية صُنعت على مثال جنات الآخرة، فسبحان الله الذي أبدع البشر وخلق ما يفعلون.

يومها، قيل لجدّي أن ينتظرني في قاعةٍ تقع على الناحية اليمنى من المدخل المقبَّب المسمى «السرداب» وهو المؤدي إلى الحديقة المستلقية بارتياح أمام القصر الكبير. خادمٌ من المغاربة أخذني وقد انبهرت عيناي بالبهاء المحيط، إلى ناحية البوابة الفخمة المسماة «باب الذهب».

للقصر الفاطمي الكبير حسبما علمتُ لاحقًا، تسعة أبواب متمايزة عن بعضها البعض. باب البحر، المؤدي إلى ضفة نهر النيل. وباب الزمرد، لأن ضلفتيه وقائميه مبثوثٌ فيهما قطعٌ بديعة من هذا الحجر الكريم. وباب الريح، المطل على الناحية البحرية من القصر، أقصد الشمالية وباب الزُّهُومة، وهي رائحة اللحم، ومنه تدخل الذبائح والخضراوات إلى مطبخ القصر. وباب العيد، ومنه يخرج الخليفة للصلاة بالناس في المناسبات السنوية. وبابُ تربة الزعفران، وهو المؤدي لمقبرة الخلفاء السابقين الذين جلب «المعز» رُفاتهم من مرقدهم السابق بساحل إفريقية، يوم جاء من هناك ليحكم مصر. وباب قصر الشوك، المؤدي إلى القصر الذي كان سابقًا لبني عُذرة.. أما «باب الذهب» هذا، فقد عرفت من الأمير منصور بعدما صرنا أصدقاء وكثرت بيننا الأحاديث، أن جده «المعز» كانت تحت يده بعاصمة دولتهم السابقة بساحل إفريقية «المهدية» جِرارٌ لا حصر لها مملوءةٌ بالدنانير الذهبية، فأمر بأن تُسال تلك الدنانير وتُسبك في أقراصٍ كبار كأحجار الرحى، وجاء بها إلى القاهرة محمولةً على مائة جملٍ، ثم أمر بأن تُحشر في حَلْق الباب على هذا النحو ليزدان

بها، فعرفت من يومها باسم «الحَشْرات» وعرف الباب المحشورة فيه باسم: باب الذهب. سألت منصور يومها عن مقدار قيمة هذه الحشرات، فأجابني بلا اكتراثٍ قائلًا: لا أدري يا مُطيع، ربما ألف ألفٍ من دنانير اليوم، وربما أكثر من ذلك.. وسكت برهةً كعادته، ثم أضاف ما مفاده أنه لا يحب وجودها هكذا ويراه نوعًا من اكتناز الذهب، المنهي عنه في الشريعة. ثم غمغم كأنه يحادث نفسه، قائلًا ما لم أفهمه يومها: إيش نقول، الله أعلم، يمكن الأئمة من مثل جدّي، من مهامهم تجديد الدين وتعديل الشريعة بحسب اختلاف الأحوال.

كان ذاك الحوار بيننا، بعد شهورٍ من درسنا معًا وبعدما تقاربنا كأصدقاء. أما يوم الدرس الأول فلم يزد حديثنا عن إلقائه السلام بلا اهتمام حين جاء، وردِّي عليه بالمعتاد. وبعد انتهاء الدرس استدار نحوي وسألني: أنت تسكن قرب جبل المقطم؟ فأومأت بما يعني نعم، فسألني إن كنت أصعد إلى أعاليه لألعب هناك، فقلت: لا.

كان منصور قد جاء يومها بعد لحظاتٍ من إجلاسي قرب الصبي الثالث «حسام بن يانس» فدخل علينا مع جلبةٍ وحوله حرسٌ، ومن خلفه لفيفٌ من الفاطميات الرافلات بأرديةٍ براقة موشّاةٍ بالقصب ومحلاةٍ بالجوهر. جلسن في مقصورةٍ مطلة من قريب على قاعة درسنا قصيرة السور، المسماة المكتب، ولم يحدن بأنظارهن عنه طيلة الدرس، ولم يتحدثن فيما بينهن بكلمة. أكبرهن سنًّا عجوزٌ قويةُ القسمات حادةُ الملامح، تُحيط وجهها بِستْرٍ رأسها مثلما يفعل الأستاذين المحنكون، ولا يبدو على ملامحها أي انفعال إلا الاهتمام بحفيدها الأمير منصور. وعندما جرى نهرُ الكلام بيني وبين الصبي الصَّقْلبي «ابن يانس» إذ كانوا يحضروننا من بيوتنا إلى المكتب قبل نزول الأمير من القصر الكبير، أخبرني «حسام» بأن هذه العجوز هي

السيدة المعزية. يعني أرملة الخليفة المعز لدين الله، وهي أم الخليفة الحالي «العزيز» وجدَّة الأمير منصور. وأخبرني نقلًا عن أمه، وهو يبتسم كالأطفال أن السيدة المعزية هذه كانت في زمانها أجمل نساء الأرض، وهي اليوم أكثر النساء ثراءً وفعلًا للخير. وكان اسمها قبل المجيء إلى مصر «درزارة» ثم صاروا يسمونها بعدما استقرت هنا «تغريد» قلت له همسًا بلسان صباي: اسم «تغريد» أجمل.. فضحك وتلفَّت حوله كأننا نختلس شيئًا، أو نكتم أسرارًا خطيرة.

أما المرأةُ العبلةُ الشقراءُ الحسناءُ، التي كانت في ابتداء دروسنا تجلس إلى جوار «السيدة المعزية» فهي السيدة العزيزية؛ أي زوجة الخليفة «العزيز بالله». وكانت في الأصل جاريةٌ مسيحية، ملكانية، أحبلها «العزيز» في شبابه المبكر فولدت له ابنه «محمد» الذي جعله أبوه وليًّا للعهد، لكنه توفي فجأة قبل عامين، فصار «منصور» هو ولي عهد أبيه. وهي حسبما أخبرني «حسام» نقلًا عن أمه وقريباتها، امرأة طيبةُ القلب. ولما أنجبت ابنها أسلمت، وصارت «أم ولد» ثم زوجة للخليفة، ومنها أنجب ابنته المحبوبة «سيدة الملك» التي يسمونها تخفيفًا: ستّ المُلك.. وعرفت من جدّي «خَلَف» لاحقًا، أن لهذه السيدة المعزية أَخَوين بقيا على ديانة النصرانية، وصيَّرهم «العزيز» بنفوذه وقبول النصارى الملكانيين لرأيه، بطركين. فأحدهما صار بطريق كنيسة الإسكندرية واسمه «أرساني» وينطق باللسان اليوناني: أرسانيوس، والآخر اسمه «أرسطس» وصار بطريقًا لأسقفية بيت المقدس وأنطاكيا.

وفي بعض أيام المكتب الأولى، كانت تأتي مع الفاطميات لمراقبة الأمير منصور ورعايته بأعينهنَّ أثناء الدروس، امرأتان وقورتان تحيط بهما الهيبةُ الملكية وألقُ الخلافة، فكانتا ترقبان «منصور» كالأخريات

بصمت ثم تذهبان مع بقية الفاطميات إلى داخل القصر. وبعد أسابيع من انتظام الدروس وابتداء اللعب بعدها، أخبرني منصور بأن هاتين السيدتين هما عمتاه «عبدة» و«رشيدة» ابنتا جَدِّه الخليفة المعزّ.

وخلال ساعات الدرس وأثناء اللعب مع منصور بعد انتهائها، كانت عينا أخته «ستّ المُلك» لا تغيب عنه طرفةً، وكان الصبي الصَّقْلبي بعدما توثَّقت بيننا الصلات واطمأن أكثر، قد أخبرني عنها هامسًا بأنها أخطر الفاطميات! سألته عن السبب فابتسم وهو يقول لي بصوتٍ خافت بعدما تلفَّت: لأنها..

حاكم

صُدم «راضي» حين انقطع فجأةً نص المخطوطة، ولم يجد بقيةً لما كان يقرؤه. فقط، في أسفل الطرف الأيسر من الصفحة، كانت كلمة واحدة مكتوبة بخطٍ دقيق، هي: تقوم.. دار رأسه بسبب فرط حنقه والحيرة، وبسبب ضجيج القطار الذي اقترب من محطة «الجيزة» وبسبب الصداع الذي أنشب مخالبه بدماغه.

تدافع الركاب للنزول، فقام متكاسلًا وتناول من الرفِّ الأعلى حقيبته الجلدية الأنيقة المثقلة بمصورات المخطوطات، ودسَّ في جانبها الأوراق التي انقطع نصُّها بغتةً بغير إنذار، وعدَّل هندامه متمهِّلًا ريثما ينتهي تدافع الواصلين، إلى باب القطار. في بهو المحطة المزدحم، اقترب منه رجل وقال مُتزلفًا: تاكسي يا بيه؟ فأومأ برأسه موافقًا، واستدرك بعد أن قال لسائق التاكسي: إمبابة. وصحَّح وهو يتبسم على هون: لأ، لامؤاخذة، أنا رايح «الدقي» خلف نادي الصيد.. وخرج بجوار السائق الذي حمل عنه حقيبته، وهو لا يدري أنه سيدخل بعد يومين، من هذا الباب الذي يخرج الآن منه.

في طريقه إلى شقته الجديدة المستأجرة، اتصل «راضي» بأمنية وبالدكتور سيد فؤاد ليخبر كلًّا منهما بعودته إلى القاهرة. هي لم

ترد، وعاودت الاتصال به مساءً ووعدته بأن تزوره بعد غد، الثلاثاء، صباحًا. ورَدَّ الدكتور سيد فؤاد من فوره، ومتلهفًا واعده على اللقاء صباح غدٍ بمقهى «إنديانا» بالدقي، بعدما أخبره بأمر المخطوطة الناقصة.

وصل «راضي» والدكتور فؤاد، كلاهما، إلى مكان اللقاء قبل الموعد بنصف ساعة. وعلى طاولة الزاوية الأهدأ من المقهى، أخرج راضي لأستاذه صورة المخطوطة، فنظر فيها مندهش العينين وراح يلتهم بنظراته أوراقها المصوَّرة وهو يتصفحها بسرعة، وخلال ذلك كانت تنفلت منه كلمات: معقول.. دي مدهشة.. الله، الله.

استغرب راضي من قدرة الأستاذ على قراءة سطور المخطوطة بهذه السرعة، وجلس متأدبًا بلا نُطقٍ قرابة ثُلث ساعة، بعدها أمسك الأستاذ بالصفحة الأخيرة وقال لراضي:

- لأ، مش ممكن. المخطوطة دي لازم لها بقية، أكيد عندكم في البيت صندوق أو رفّ أو ركن، فيه أوراق مفككة. صحّ؟

- صحّ يا دكتور، فيه فعلًا صندوق قديم كبير، مليان أوراق مخطوطة. بس إزاي هنعرف بقية المخطوطة دي بالذات؟

- من حجم الورق ونوع الخط، ومتابعة التعقيبة.

بأقصى ما يمكنه من هدوءٍ وأناة، أفهمه الأستاذ أن القدماء من المؤلفين والنُّسَّاخ المحترفين، وحتى الطلبة المبتدئين، كانوا

يخطون الكتب والرسائل بأيديهم في أوراق منفصلة، وبعد الانتهاء من كتابتها يتولى شخص آخر كانوا يسمونه قديمًا «المُسفِّر» بتسفير هذه الأوراق؛ أي عمل التجليد لها، فتكون سِفرًا. وكانوا أثناء الكتابة وخشية اضطراب ترتيب الأوراق قبل تسفيرها، يحتاطون بكتابة أول كلمة في الورقة التالية، بالهامش الأسفل للورقة السابقة. وهذه الكلمة الضابطة للترتيب اسمها «التعقيبة» لأنها تأتي في عقب الورقة المكتوبة.

وبعدما شرح الأستاذ ذلك لراضي، أعاد فتح أوراق المخطوطة ليريه أن كلمة «تقوم» سوف تبدأ بها أول ورقة في الجزء الناقص، وكذلك يظهر في بقية الأوراق ضبط «التعقيبة» لتسلسل الصفحات.. قال راضي وهو مندهش: ما كان الأسهل يرقِّموا الصفحات!

أجاب الأستاذ بأن هذا لا يمنع ذاك، لكن شكل الأرقام لم يستقر إلا بعد مئات من السنين، لم يكن خلالها اتفاقٌ على طريقة رسم كل رقم. وكثير من المخطوطات تم ترقيم صفحاتها بعد قرون من كتابتها، وبعد فترة طويلة من الاعتماد على نظام «التعقيبة» لضبط التسلسل.. وأضاف: المهم، المخطوطة دي كنز، لأنها من تأليف شاهد عيان معاصر لبداية الدولة الفاطمية وفترة الحاكم بأمر الله، وممكن تعوَّضنا عن ضياع كتب «المُسبِّحي» وممكن كمان تكون موضوعك للماجستير تحت إشرافي.

ـ بجد يا دكتور؟ شكرًا لحضرتك.

ـ المهم دلوقت، لازم ترجع الصعيد فورًا، وتبحث عن بقية المخطوطة. أنا ممكن أروح معاك.

ـ مفيش داعي لتعبك يا دكتور، أنا إن شاء الله هاقوم بالمهمة دي.

ـ بس لازم تروح اليومين دول، قبل ما تخلص الإجازة.

ـ حاضر يا دكتور.. حاضر.

متعجلًا، نادى الأستاذ على عامل المقهى وأعطاه حساب المشروبات وقام وهو يقول إنه سيرجع لبيته كي يعكف على قراءة صورة المخطوطة بتمهلٍ وتمحيص، انتظارًا لعثور راضي على بقية أوراقها.. ذهب مسرعًا مفرط الابتهاج وبقي راضي على كرسيِّه حينًا، حائرًا، يتأرجح رأسه وسط عواصف الأفكار: الصعيد من جديد، بعد يوم أو يومين! متى ستأتي أمنية غدًا؟ أكيد وقت صلاة الظهر.. وما الذي تخبئه يا ترى؟ ولماذا لم تفصح عنه هاتفيًّا؟.. عندي اليوم خمس مجموعات للدروس الخصوصية، يعني عشر ساعات عمل متواصل. لن أعود للشقة قبل الحادية عشرة، وربما عندما ينتصف الليل. هل أؤجل بعض الحصص؟.. لا، أكدت عليهم المواعيد مساء أمس، وليس من اللائق الآن الإلغاء.. كم سأكسب اليوم من المال؟ في كل مجموعة خمسة طلاب أو ستة، فسيكون معي آخر اليوم ثلاثة آلاف جنيه، أو أقل قليلًا إذا تعذر حضور بعض التلامذة، وربما أكثر قليلًا لو انضم إليهم جدد.

«نتوكل على الله، وزي ما تيجي معانا». قال راضي ذلك لنفسه بصوتٍ لا يُسمع، وقام من المقهى ليبدأ تجواله على المجموعات، تباعًا، وعاد بُعيد منتصف الليل إلى شقته منهكًا ومُواسى بثلاثة آلاف وأربعمائة جنيه. الحمد لله. ارتمى بملابسه على السرير العريض

وراح في نوم عميقٍ، كالإغماء، لم يستفق منه إلا صباحًا وقد تجاوزت الساعة العاشرة.

قبل تمام الثانية عشرة ظهرًا، طرقت «أُمنية» بابه ودخلت إليه متأنقة الملبس ويكلتا يديها حقيبة جلدية فاخرة، متفخة، وعلى وجهها أثرُ إرهاق. جلست قبالته مضمومةَ الركبتين، عاقدةً أصابعها، وأمام قدميها حقيبتها الأنيقة التي بلون المشمش النضيج.. تهرَّبت من نظراته المتحيرة وهيئته المترقِّبة، بأن سألته عن رحلته إلى الصعيد وكيف كانت، فأوجز وتعجَّل إخبارها له بالمخبوء بقوله: كانت تمام، المهم ليه مارحتي «سيوة» مع أبوكِ؟ وإيه الجديد اللي جد؟ خير إن شاء الله..

لم تجبه، وانحنتْ على حقيبتها فأخرجت مجموعة من الكتب، قالت إنها هدية له. حدَّق نحوها مندهشًا ومغتاظًا، فحاولت أن تبتسم وهي تخبره بأنها مراجع مهمة ستكون مفيدةً له في الدراسات العليا، وهي تريد أن يتذكرها بهذه الكتب. ازداد اندهاشه وغيظه، وسألها بحدةٍ عما تخبئه وتسوِّف في الإفصاح عنه، فقالت: أنا مسافرة.

ـ كيف يعني؟.. مسافرة فين؟

ـ إنجلترا. هاعمل الدكتوراة هناك، في كِمْبردج. بابا جاب موافقة الجامعة هناك، ورتِّب...

ـ ومسافرة إمتى؟ وهتغيبي كتير هناك؟

ـ السفر الأسبوع الجاي، ويمكن أقعد هناك سنة أو ستتين

علشان الكورسات التمهيدية، وترتيبات حصولي على الإقامة هناك.

شرد لحظة ثم أفاق من ذهوله على ذهولٍ وقال كأنه يشكو السماء إلى السماء: «حرام عليكِ كده، حرام». وطفرت من عينيه دموع. قامت أُمنية من موضعها لتجلس إلى جواره وهي تقول له بالتياعٍ لم يعهده منها، إنها فوجئتْ بموافقة الجامعة الإنجليزية وكانتْ تظن أنها لن تكون إلا بعد عام. لم يسمعها، وقام من مكانه قبل أن تضع يدها على كتفه.. وقف قرب الشرفة ينظر إلى اللاشيء، ويغرق في الشعور بأن العالم ينهار ويغوص عميقًا في قرارة القتامة. أشفقت عليه واقتربت منه، فابتعد، وارتعد وهو يقول بنبرة تتحشرج: يعني كنتِ بتسلّي نفسك شوية معايا، لحد ما تخلّصي إجراءات سفرك؟

ـ يا راضي.

ـ راضي إيه وزفت إيه، حرام عليكِ تعملي فيَّ كده، حرام.

أجهش بحرقةٍ وقد أنساه إحساسُه باليأس والتعاسة والبؤس، ما لقّنوه له في الصغر من أن الرجل لا يجب أن يُرى وهو يبكي. ما عاد يشعر بما حوله، أو بما هو فيه. صار بين الصحو والحضور، والعذاب والغياب.. كأنه جاثٍ على ركبتيه وكفّاه تُطبقان على أذنيه، وكأن أمنيته التي صارت مستحيلة تستعطفه كي يهدأ ويسمعها، وكأنها آيست منه فذهبت عنه دون وداع وأغلقت خلفها بابه، وكأنه توسَّد السجادة الخشنة وهو يرتعش أو يرتجف، وكأنه غاب عن الوجود

أو غاب عنه الوجود أو قامت القيامة، وكأنه كان ثم بانَ ولم يكن. أو هو لم يكن قط، ولن يكون أبدًا.

* * *

عمَّ ظلامُ الليل وإظلامُ الشقة وتمَّتِ العتمةُ من حوله وهو ملقى على الأرض مثل ثمرةٍ جفَّت حتى سقطت من الشجر وقد تخشَّبت.. ظل غافيًا غافلًا عن غيابه، ناسيًا ومنسيًّا، حتى حدود الساعة التاسعة مساءً. إذ اتصل به أستاذه «دكتور سيد فؤاد» مرتين، وفي الثالثة انتبه فالتقط من بين طيات ملابسه التلفون، وردَّ.

ـ أنت فين يا راضي؟

ـ أنا، كنت نايم يا دكتور.

ـ طيب، صحصح كده وفوَّق، هكلِّمك تاني بعد ربع ساعة.

* * *

ما هذا؟.. هل انقطعت عن الحيِّ الكهرباء، أم أن أنوار الشقة كلها مطفأة؟! لماذا؟! أمنية.. رحلت وتركتني وحيدًا، وسوف تهجر البلد كلها وتتركها كئيبة. كانت هنا، فأين ذهبتْ؟ كم الساعة الآن، وما هذا الليل العميم؟.. آه يا بوي، آه.. الدكتور سيد فؤاد اتصل! خير مثلما يقوم الذي يتخبَّطه مسٌّ من الجن، أو مسٌّ من الحب محتوم الحرمان. قام «راضي» من رقدته البائسة متسندًا على قوائم الكرسي القريب، ومترنِّح الخطى خطا نحو الحوض البعيد، وتماسك حتى مسح على وجهه ببعض ماء، ثم استدرك فوضع رأسه تحت الصنبور

المندفق ماؤه، وشهق مستفيقًا فأدرك أن هاتفه يرن.. كان «الدكتور سيد فؤاد» ثانيةً، وتحدَّث إليه متحمسًا فأخبره بأنه انتهى من القراءة المتأنية للجزء الموجود من المخطوطة، وهو على ثقة من أن الجزء المفقود أكثر أهمية، فهناك إشاراتٌ عديدة تدل على ذلك: أنت فاهمني يا راضي؟

ـ أيوه يا دكتور، أيوه فاهم حضرتك.

«شوف يا راضي».. بدأ الأستاذ كلامه بذلك وبالأحرى استكمله، وكأنه مصرٌّ على تبيان الأهمية الفائقة لهذه المخطوطة، أو كأنه يلقي عبر الهاتف محاضرة: عندنا مشكلة كبيرة في المصادر الخاصة بالزمن الفاطمي، وخصوصًا فترة الحاكم بأمر الله. الأخبار متضاربة، والشهادات المعاصرة مفقودة. طبعًا أنت عارف السبب؟

ـ لأ يا دكتور، مش عارف.

قال الأستاذ: عملية الطمس المتعمد للتاريخ الفاطمي على يد الملوك الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك، وتدمير المكتبات الفاطمية بحجة مواجهة المد الشيعي، والحساسية المفرطة تجاه التشيع. كانت أهم العوامل التي أدَّت إلى إخفاء واختفاء المصادر والكتابات والوثائق المعاصرة للفاطميين، فضاع كتاب «سيرة المعز» لابن زولاق، وخطط القضاعي، وتاريخ ابن الطوير، وتاريخ ابن المأمون، وطبعًا مؤلفات «المُسبِّحي» التي لم يبقَ منها إلا جزء واحد من كتابه الكبير: تاريخ مصر.. إنت معايا؟

ـ أيوه يا دكتور، مع حضرتك.

المقريزي حاول أن ينصف الخلفاء الفاطميين وتاريخهم في «اتّعاظ الحنفا» وفي «المقفّى الكبير» و«الخطط». بس المقريزي متأخر عنهم عدة قرون، ومتهم بالانحياز لهم. علشان كده، المخطوطة دي يا راضي مهمة جدًّا، ولازم تلاقي بقيتها. دي هتعمل ثورة أكاديمية عند المتخصصين في التاريخ الإسلامي، وفي التاريخ الوسيط عمومًا. لازم يا راضي ترجع الصعيد وتشوف بقية الأوراق، وأنا هاكون معاك على التلفون، الموضوع ده مهم جدًّا. أنت ناوي تسافر الصعيد إمتى؟

ـ بكرة يا دكتور، بكرة.

ـ ربنا معاك يا راضي.

على غير العادة، اتصل «راضي» بأبيه في هذا الوقت المتأخر نسبيًّا، ليخبره باقتضاب أنه نسي تصوير أوراق مهمة. وقد طلب منه أستاذه العودة للبلد لتصويرها، لأنها ستكون موضوع رسالته لنيل الماجستير: هاكون عندكم بكرة آخر النهار، وهاقعد يومين كده أو تلاتة.

ـ وماله يا ولدي، تعال، واقعد زي ما انت عاوز.

لم ينم إلا فجرًا، فلم يستطع النهوض من سريره كي يلحق بقطار الغد. هرب من شحوب الصباح بالعودة إلى النوم، مع انعدام رغبته في النوم والصحو، غير أن النعاس كان يغيِّب عنه غياب روحه ويهوِّن مؤقتًا إحساسه بالهوان، وبالألم. أمضى يومه وليلته بين الغياب والغيبوبة وغوامض المشاعر والأحلام المؤلمة، وفي اليوم التالي ركب صباحًا قطار الصعيد مستسلمًا لازدحام المحطة والرصيف، ثم

لاهتزاز العربة وهو فاقد الروح كسير النفس. كان من داخله كالميت، أو كان كمن يحيا بلا أملٍ يُرجى أو أُمنية.

أثناء السفر نام كثيرًا، ونام كثيرًا ليلة وصوله بيت أبيه. وصبيحة الوصول، متسترًا بحجة التعب من السفر. دخل ساعة العصر إلى حجرة الكتب ثقيلة الهواء، وفتح الصندوق الكبير وبدأ فحص الأوراق، فاستمر يفعل ساعتين، وعاوده بعدهما التعب فصعد إلى مثواه السطوحي واستسلم مجددًا للوسن، ثم عاد إلى حجرة الكتب في منتصف الليل.

استغرق ترتيب الأوراق المخطوطة المفككة، والرسائل الخطية غير المجلدة، ثلاثة أيام سريًا، كان د. فؤاد يتابعه خلالها هاتفيًا في كل حين، ويفرح كلما وجد «راضي» مجموعة من الأوراق المطابقة للقطع ونوع الخط. وكاد يطير فرحًا حين تتبع معه «التعقيبة» فظهر أن المخطوطة الكنز، كاملة، لا تنقص منها ورقة. فهذه السبعة والعشرون والمائتا ورقة، هي كل ما كان ناقصًا منها.. ابتهاج الأستاذ عبر الهاتف، وحالة الفرح المفرط باكتمال المخطوطة، أثارا دهشة راضي واستغرابه وحيرته. فقد بدا له الأستاذ مثل معدم هبطت عليه من السماء مائدةٌ ومالٌ وفير، أو هو مثل محبٌ محظوظٍ تزوج محبوبته.

مساءَ يوم الخميس، كان راضي بدكان الأدوات المكتبية يصوِّر نسخًا ثلاثًا من بقية المخطوطة، اثنتين له وللأستاذ وواحدة احتياطية، وما كاد ينتهي من فصل النسخ الثلاث وتدبيسها، حتى رنَّ هاتفه.. أمنية.. خرج من الدكان بالمخطوطة ونُسخها المصورة، وأمام جذع النخلة المقطوع الواقف قبالة الدكان، وقف ليتلقى اتصالها:

ـ نعم.

ـ يا راضي، أنا مسافرة بعد بكرة الفجر، ممكن أشوفك بكرة؟

ـ أنا في الصعيد.

ـ ليه، خير يا راضي؟ رجعت الصعيد ليه؟

ـ ظروف.

بنبرةٍ متحسِّرة أعربت له عن حُزنها لسفرها وهما على خلاف، فقال باقتضاب: حصل خير! أردفت أنها كانت تود لو دامت بينهما الصلة ودام الاتصال، احترامًا للفترة الجميلة التي امتدت بينهما شهورًا، فقال بغضبٍ: حصل خير! أضافت أنها سامحته على الكلام العقيت والوصف المريع الذي صدمها به في فورة غضبه وانفعاله، وهي متأكدة من أنه لم يقصد الكلام الذي قاله.

ـ قلت إيه؟ أنا مش فاكر حاجة.

ـ قلت لي إني رخيصة، علشان منحتك نفسي.

ـ أنا قلت كده؟

ـ أيوه يا راضي، وكنت منهار جدًا. بس لازم تعرف إني منحتك نفسي علشان بحبك، وأنت كمان منحتني نفسك علشان بتحبني، مش لأنك رخيص.. بس..

ـ خلاص، حصل خير. سافري وربنا يسهِّل لك، ويسامحك.

ـ وأنت يا راضي، مسامحني؟

ـ عمري ما اسامحك.. أبدًا.. مع السلامة.

أغلق الهاتف حتى لا يبكي أمامها مجددًا، وحثَّ الخطى وهو يقطع الطريق المظلم الواصل إلى بيت أبيه، وترك الدمع ينسال من عينيه خِفيةً، ولما اقترب من البيوت مسح وجهه، ودخل من بوابة البيت إلى الرحبة إلى السلم الصاعد للسطح وعلى سريره جلس. وعلى الضوء الخافت بالغرفة، أخذ يقرأ بقية المخطوطة من نسختها الأصلية لينشغل بما فيها عما هو فيه، أو يتشاغل ويلتهي عما يعانيه. فإذا به يرى الآتي المحتوم، في السوابق التي ترسم فحوى اللواحق. ونسي «راضي» غيرُ الراضي، كل ما هو كائن معه. حين رأى أن ما كان، هو عينُ ما سوف يكون.. ومن المخطوطة عرفَ عن ذاته الكثير، وأدركَ أن الحكمة وهي منحةٌ، تكون أحيانًا محنة. وأحيانًا يكون الجنونُ جميلًا.. فقد قرأ في الورقات الباقيات منها، ما نصُّه:

* * *

لأنها تقوم مقام أبيها حين يغيب عن القصر، وفي حضوره يشاورها في كل أمر، هي أهمُّ من الرجل الخصيِّ الخطير «بَرْجَوَان» الخادم، ومن أبي رئيس الشرطة الذي صار اليوم قائد الحرس، والمشرف على قصور الخلافة.. لم أصدِّق في البداية كلام الصبي «حسام بن يانس» عن هذه الأميرة، ولم أر فيها بعين طفولتي أيَّ خطر، بل بالعكس كنت أجدها عطوفًا على أخيها وعليٍّ، وعظيمة العناية بنا والرعاية لنا. وعندما طلب منصور أن أبقى معه بعد انتهاء الدروس ساعةً أو ساعتين، لنلعب معًا حول القصر، لم تعترض. وعندما كان يحادثني طويلًا مثلما يفعل الصبيان في تلك السن، كانت تتركنا وتجلس حيث ترانا ولا تسمعنا، من دون أن يظهر عليها أيُّ ضيق. ويوم أراد منصور الصعود على شجرة

الجميز الكبيرة التي خلف القصر حاولت ستّ المُلك أن تثنيه عن ذلك، بلطف، لكنه عاندها فرضخت له وراحت تنظر إلينا بعين القلق ونحن نتسلق الجميزة كالقردة، ونجلس متقابلين على فرعين منها يرتفعان عن الأرض بضع أذرع، فنتحادث بأحاديث الصبيان حيث لا يسمعنا أحد.. كان منصور ذكيًّا، وشغوفًا بالعلوم وقراءة الكتب وتحصيل المعارف، وخجولًا متحفظًا، لكنه كان آنذاك طفلًا يافعًا يحب حين يطمئن أن يلعب.. كنا كبقية الصبيان، نحب أن نلعب.. وقد كثرت أوقات اللعب عقب انتهاء الدروس، لا سيما بعدما انقطع عنا «حسام بن يانس الصَّقْلبي» بعد قرابة ستة أشهر، إذ كان يعاني كثيرًا لفهم كلام الأستاذين ولا يستطيع ملاحقة الدروس بسبب الإرهاق، لأن أباه كان يُلزمه فجر كل يوم بتمارين الفروسية، كي يصير في مقبل الأيام جنديًّا وقائدًا. وهي تمارين بدنيةٌ منهكة، فإذا جاء وقت دروسنا كَلَّ «حسام» وحلَّ التعبُ به فحال بينه وبين الفهم والمتابعة. بل كان النوم يغلبه أحيانًا وهو جالس في وسط الدرس، ويعلو شخيره، فيزجره المدرس فيصحو ويضحك، ونضحك منه ومعه.

وكانت أجمل الألعاب عند منصور وعندي آنذاك، اثنتين: رمي الكرة، والاختباء بها خلف الأشجار والزروع العالية والمباني، وكان الحراسُ يلهثون من خلفنا ومعهم ستّ المُلك. واللعبة الأخرى تسلق الأشجار الكبار، وخصوصًا الجميزة الواقعة على مقربة من القصر الكبير. يوم صعدنا عليها أول مرة، أمرتْ «ستُّ الملك» الخدم فأحضروا حشايا والحفةً نثروها حول جذع الشجرة، حتى لا يتأذى أحدٌ منا إذا سقط من علٍ. وظلوا يفعلون ذلك كلما اعتليناها، إلى أن استوثقت ستّ المُلك من مهارتنا وقدرتنا على التسلق والجلوس

على الفروع باتزانٍ، فكفوا عن نثر الحشايا على الأرض من تحتنا، واكتفوا بالوقوف مكانها وهم ينظرون إلينا بكل حواسهم، حتى زعق فيهم منصور من أعلى ليبتعدوا. فانصاعوا، واستسلمتْ ستُّ الملك لرغبة أخيها الذي تحنو عليه كأنها أمه، ودائمًا ما تناديه تدليلًا باسم: منصوري.. قلت له ذات مرة ونحن جالسان فوق فروع الجميزة: ما دمت يا أمير تحب العلو، فيمكننا الركوب على ظهر جملٍ مرتفع السنام عالي الهودج.. فقال: لا تناديني ثانيةً بالأمير، اسمي منصور، وأنت صديقي الوحيد فلا تناديني بغير اسمي. ثم نظر إلى جهة جبل المقطم، وأضاف بعد لحظة صمت: هذه السنطة أعلى من ظهور الجمال، وليتها كانت فوق هذا الجبل، فنرى من فوقها أكثر حين نصعد عليها.. والتفت نحوي فجأةً، وقال وهو ينظر إليَّ محدقًا وأنظر إليه مندهشًا باستغراب الصغار: هل تعلم يا مُطيع أن هذه السنطة يتجاوز عمرها مائة عامٍ، وقيل لي إنها كانت تقف هنا وحيدةً قبل عشرات السنين من بناء هذه القصور كلها، وتلك البلدة وأسوارها.. وابتسم وهو يردف بصوت خفيض، كأنه يكشف سرًّا سارًّا: كانت تنتظرني يا مُطيع هنا، كانت تنتظرني.

في شهور صحبتنا التي دامت قويةً قرابة عام ونصف، اعتدت سماع مثل تلك المعاني والعبارات العجيبة من الأمير منصور. مرةً، في استراحةٍ بين درسين، جالستنا أخته «ستّ المُلك» وقالت له متودِّدة إنها فتشت عن يوم مولدي، فوجدت أنه يطابق تمامًا يوم مولده! فكلانا ولد ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول عام خمسة وسبعين وثلاثمائة للهجرة، ولنا من طالع الأبراج السرطان، والأعجب أن كلينا ولد في الساعة التاسعة. فقال لها

منصور من فوره: أنا ومطيع روحٌ واحدة، توزَّعت عند نزولها على جسمين.. أدهشني ردّه هذا، وقبل أن يبدأ الدرس التالي وتقوم عنا، سألتُ «ستّ المُلك» مستخبرًا بلسان الصبا وبراءة أهل الابتداء: كيف عرفتِ يوم ميلادي وساعته؟ فقالت وهي تضع أصابعها على شفتيها ساترةً ابتسامتها: أنا أعرف كل شيء.. ليلتها سألت عمتي «تمنّي» عن ساعة ويوم ميلادي، فلم تعرف، وفي الصباح التالي سألت جدّي «خَلَف» فأكد ما قالته الأميرة.

كانت ستّ المُلك آنذاك في حدود الخامسة والعشرين من عمرها، فهي تكبرنا بخمس عشرة سنة وبضعة أشهر، ولم تكن متزوجة مع أنها جميلة وأنيقة وفيها حنو الأمهات، وقد تجرأت مرةً وسألت منصور عن السبب في عدم زواجها، فصدمني قوله الجريء الفاجع: وأين في الرجال من لديه الفحولة اللازمة لهذه الفرس؟!

ولكن يبدو أن منصور، على الرغم من فجاجة تعبيره هذا، كان محقًّا. فكثيرًا ما رأيت «ستّ المُلك» تأمر وتنهى الرجال الكبار وقادة الحرس والجند، فينصاعون لها، بمن فيهم أسخف وأخطر رجال القصر، أعني «بَرْجَوَان الصَّقْلبي». وهو رجلٌ متعجرف سليط اللسان، كان ينظر لمنصور باستخفاف وينظر لي باحتقارٍ لا أدري له سببًا. ومع أن الخليفة «العزيز بالله» كان يحب هذا الرجل ويقرِّبه منه، ويستشيره دومًا، ويعهد إليه برعاية أمور القصور والإشراف على الأستاذين. إلا أن منصور كان يكرهه بسبب صلفه وسخفه، فكرهته، أخبرتُ جدّي «خَلَف» عنه أيامها فوجدته يعرفه، وحين قلت إنني أكرهه نهرني جدّي عن هذا بقوله: يا مُطيع، لا تكره أي شخص، فالكراهية نارٌ تأكل قلب الكاره ولا تؤذي المكروه، وهي تدفع المرء لاقتراف

المساوئ والمخازي، والعاقل ينأى بنفسه عن ذلك.. أظهرت لجدي الانصياع للنصيحة، ولكن ظللتُ لا أحب هذا الرجل.

في مرةٍ مَرَّ بنا «بَرْجَوَان» ونحن نلعب عصرًا بالكرة، فقال وهو يقهقه بلا سبب: الوزغة وجدت وزغة تصادقها وتلعب معها.. فسمعته «ستّ المُلك» فقامت من كرسيها متنفضة وزعقت فيه: أنت أيها الخادم «بَرْجوان» قف. فوقف. وأقبلت عليه عاقدة حاجبيها ومكفهرة الوجه كأنها إعصارٌ فيه نار الله الموقدة، ولما وقفت قبالته قالت له: إياك، إياك أن تقول ذلك للأمير مجددًا، وإلا واللهِ، جعلتك تدفع الثمن غاليًا.. طأطأ الرجل رأسه وانسحب من أمامها متقهقرًا وخرج مقهورًا مخذولًا، يستثفر طرفَي عباءته من فرط الخزي.

ومع أن منصور كان يحدودب دومًا على أخته ويلتحف بأعطافها، لكنه كان في بعض الأحيان يعاندها ويظهر التذمر منها.. كانت تسير إلى جوارنا مرةً في حديقة القصر، وبعد صمتٍ لم يدم طويلًا قال لها منصور فجأةً، بطريقة فيها حنق: ولماذا أعطاك أبي من دوني قصرًا خاصًّا بك، وحرسًا مستقلًّا، وأنا لا؟.. نظرت ستُّ المُلك نحوي وهي خجلانة، ثم نظرت إليه وقالت برفق: لأن هذا القصر الكبير لك يا منصوري، وكل هذه القصور، ولك كل طوائف الحرس والجند. وسكتت لحظة قبل أن تضيف وهي تضع كفها اليمنى على كتفه: كل ما حولك ملكٌ لك. فردَّ عليها وقد كساه حزنٌ مفاجئ، قائلًا ما يُستغرب صدوره من صبيٍّ على أعتاب الثانية عشرة من العمر: مِلْكي، هه، لا أحد يملك شيئًا، هذه الأشياء هي التي تملكنا.

وقد عاينتُ عديدًا من الوقائع، الحانية والحانقة، التي جرت

بين ستّ المُلك ومنصور. خصوصًا في تلك الشهور التي سبقت تولِّيه الخلافة وتلقيبه بصفة «الحاكم بأمر الله» ففي تلك الفترة كثُرَ تردُّدي على القاهرة، وكنتُ أطيل المكوث هناك بعد الدروس من أجل اللعب مع منصور والحديث معه. إذ كان كلانا يحب أن يلعب وأن يطوِّل الكلام في كل الأمور، حتى الحرجة منها وما يجب تجنبه من الموضوعات، مثل خلاف أهل السنة مع الشيعة واختلاف أهل الفسطاط عن ساكني القاهرة.. كان الحارسان يأتيان من القاهرة مبكرًا لاصطحابي إليها راكبًا بغلةً، ولم أكن أعود معهما إلى دارنا إلا قبيل الغروب، فأجد عمتي «تمنِّي» واقفة فوق سطح الدار تترقب بقلقٍ وصولي. وأجد جدّي «خَلَف» جالسًا ينتظرني بحجرة الضيوف ليعرف مني أهم ما جرى في نهاري القاهري، وما تلقيته هنالك من حصص العلوم، ويلوم بلطفٍ إهمالي للمعارف الشرعية وأصول الفقه وفروعه وفرط اهتمامي بالفلك والهندسة كما كان أيامها يلومني بغير غضب أو حزمٍ وقمع، على كثرة اعتراضي على الأحكام الفقهية التي يدرِّسها لي، وعدم اقتناعي بمعقوليتها، فمن ذلك مثلًا تشدُّد فقهاء السُّنة في اختتام الأذان بعبارة «حيّ على الفلاح» وحظر عبارة «حيّ على خير العمل» لأنها علامة على التشيُّع! واتفاق فقهاء السُّنة والشيعة، على أن الجارية أو الأمة التي تلد لمالكها ولدًا، تصير «أم ولد» وتكون لها بعض حقوق الزوجة، وليس كل الحقوق، وتُحرم من ذلك إذا ولدت بنتًا! مع أن القرآن يقول ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا﴾ بلا تفرقة بين ذكور وإناث.. وفي تلك الفترة، كانت عمتي «تمنِّي» تنتظر خلف باب الحجرة، حتى تنتهي جلستي مع جدّي فتأخذني إلى سطح الدار، وتسمع مني وهي تعدّ

لي طعام العشاء تفاصيل ما جرى معي طيلة نهاري القاهري، ولا تعلّق على كلامي ولا تعترضه إلا بالتنهّد وبعض العبارات الداعية، من نوع: ربي يحفظك يا مُطيع، استر يارب، يا قلبي وروحي.. كانت تحبني، ولهذا عشقتها.

أما الخليفة «العزيز بالله» أبو منصور، وست الملك، فلم أره في حياتي إلا مرتين، وفي الثالثة اقتربت منه وسمعته، لكنني لم أره. وكان رحمه الله رجلًا أسمر، أصهب الشَّعر، أشهلُ. وهو طويلٌ مثل ابنه «منصور» وغزير شعر الرأس مثله، ومثله أعين. أعني واسع العينين مشرق المآقي. في بدنه بسطةٌ وضخامةٌ، وفي قلبه طيبةٌ نادرة وتواضعٌ لم يُعرف عند غيره من الحكام.. رأيته أول مرة ظهيرة اليوم الثالث من أيام الدروس القاهرية، وكان يوم الاثنين، جاء الخليفةُ نحونا تسبقه جلبة وتسري من حوله دقّاتُ الأقدام. وكنا قد بدأنا للتو درس السير والتراجم، على يد الأستاذ المحنك «سمنون» فلما اقتربت الجلبة وعلت الهمهمات، توقف الأستاذ عن الكلام ووقف مطأطئ الرأس في مكانه، ونظرنا ثلاثتنا يمينًا فرأينا الخليفة قادمًا نحونا، يحتف به لفيفٌ من رجال القصر. وقبل أن يدخل علينا القاعة المعلق سقفها، عرج على مجلس الفاطميات فسلم على أمه «السيدة المعزية» وقبّل يدها، ثم سلّم على زوجته «العزيزية» وهمس في أذنها بشيء، وقبّل ستر رأسها. ومدَّ ذراعه ويده فأمسكت بكفِّه «ستُّ المُلك» وسارت حتى دخلا علينا. وكان الخدمُ والحرسُ قد سبقوه دخولًا وهم يحملون أريكةً سلطانية قوائمها محلاة بالصدف البراق والأحجار الملونة البراقة، التي عرفت في المساء أنها قِطعٌ من الجوهر النفيس.

وضعوا الأريكة على يسار مجلس الأستاذ سمنون، إلى الخلف

منه قليلًا، فجلس الخليفة في المنتصف وأجلس «ستّ المُلك» عن يمينه، وجلس رجلٌ متأنق ناحية الشمال. ومن خلفهم، وقف جماعة من الرجال فيهم رجل ضخم كأحجار المقطم، وآخر هزيل كأنه طيف خيال. عرفت لاحقًا أن المتأنق الجالس بجوار الخليفة هو من رجال الدولة المقربين، اسمه الأمير عز المُلك محمد بن عبيد الله «المُسبِّحي».. هو في حدود العشرين من عمره، بهي الطلعة حسن الهندام، على صدره درّاعة تشبه ما يلبسه قادة الجند، ومن حزامه يتدلى غمد لا سيف فيه. إذ ليس من الجائز التقلُّد بالسيوف في حضرة الخليفة. أما الرجل الهزيل، فهو قيِّم مكتبة القصر الكبير وسوف يصير بعد سنوات رئيس دار الحكمة العامرة بكنوز الكتب. والضخم الواقف بجواره، هو أبو زميلنا الثالث حسام «يانس الصَّقْلبي» وكان صاحب الشرطة السفلي، ثم صار متولِّي أمور القصور. وقد لاحظتُ أنه جادُّ الهيئة حادُّ القَسَمات مستريب النظرات، ولا يبتسم أبدًا، بعكس ابنه «حسام» الضحوك دائم التبسُّم.. وكنتُ أعرف «يانس» هذا من قبل، لأنه كان صديقًا لجدّي «خَلَف».

أشار الخليفة «العزيز» للأستاذ كي يستكمل الدرس، فعاد إلى مكانه بعد أن قبَّل الأرض أمام الخليفة. وبعد أن تأمل الخليفة فينا ونحن واقفون، ابتسم راضيًا ودعانا للجلوس. أظن أن هيئتنا أعجبته، فنحن الثلاثة طوالٌ بل فارعون، بحيث يظننا الناظر إلينا أكبر سنًّا من عمرنا الفعلي، وكنا نرتدي أفخر الثياب. هذا ما خطر ببالي حين رأيت ابتهاج الخليفة بنا.

سأل الخليفةُ الأستاذ بصوتٍ لطيف: ماذا تُدرِّس لهم يا سمنون؟.. فأجابه بصوتٍ يتأدب: سنبدأ اليوم يا مولاي في كتاب الطبري،

محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك. فسأله الخليفة مستفهمًا: فلماذا لا تبدأ معهم بتاريخ هذا البلد، وما كتبه ابن زولاق وابن عبد الحكم، وغيرهما ممن ألفوا في تاريخ مصر وفتحها وخططها وعلمائها، ليعرفوا فضل بلدهم؟ أجابه بالنبرة المتأدبة ذاتها: نتدرج بهم يا مولاي من العام إلى الخاص، فتظهر لهم الأمور على نحوٍ أجلى ولا تغيب عن أذهانهم دلالة التزامن في الحادثات والوقائع، بين مختلف البلدان.

«لا بأس».. قال العزيزُ بالله ذلك وهو يومئ برأسه راضيًا، ثم التفت يسارًا إلى المتأنق وسأله: كيف ترى كتاب الطبري يا عز المُلك؟ فابتسم المُسبِّحي بلطفٍ قبل أن يجيب بما لم أفهمه ساعتها، وشرحه لي جدّي «خَلَف» بدارنا في المساء. قال: إذا سمحت لي يا مولاي، فإني أرى مقدمة هذا الكتاب أهم من بداياته التي احتوت من الخرافات الكثير، ولا يعجبني عنوانه «تاريخ الرسل والملوك» فليس من اللائق عطف كل الملوك على الرسل، فمن الملوك يزيد الفاجر وأبوه والوليد بن يزيد بن عبد الملك، فهل يُلحق هؤلاء وأمثالهم بموسى وهارون وجدِّك المصطفى ﷺ؟!

تدخَّل الرجل الهزيل بعد أن قال من خلف: أتأذن لي يا مولاي؟ فضحك الخليفة وهو يقول: طبعًا، قل ما عندك.. فتقدم الرجل ببطء حتى وقف قبالة العزيز بالله، وقال: في مكتبة قصركم يا مولاي عدة نسخ من كتاب الطبري، بعضها معنون بـ«تاريخ الرسل والملوك» وبعضها الآخر عنوانه: «تاريخ الأمم والملوك» وفيها نسخةٌ كتبها الطبري بخط يده.. فابتهج الخليفة وهو يقول: إذن، فلتذهب وتحضرها فنحسم هذا الخلاف حول العنوان، ونُري نسخة الأصل لأبنائنا الثلاثة، فتكتحل عيونهم برؤية خط هذا الرجل الفاضل.

ذهب قيِّمُ المكتبة لإحضار الكتاب وخلفه خادمان، وفور ذهابه سأل الخليفة الرجل الضخم الواقف خلفه: ما اسم ابنك هذا يا يانس؟ فقال: خادمك يا مولاي أسميناه حسام.. فنظر الخليفة نحو حسام، وسأله:

ـ قل لي يا ولدي، لماذا ندرس كتب التاريخ والرجال؟

ـ لماذا! لأن الأستاذ سمنون يدرِّسها لنا.

ـ أقصد يا بني: ما الفائدة منها؟

ـ الفائدة! نعم، هناك فائدة.. نتسلى بحكايات الناس السابقين.

ضحك الخليفة بصوتٍ عال، وابتسمت «ستّ المُلك» وأطرق الأمير «عز الملك» ليستر ابتسامته، أما يانس الصَّقْلبي فقد بقي على ثباته وجمود وجهه ذي الملامح الحجرية. كان قلبي يخفق بشدة، وازداد خفقانه حين حادثني الخليفة بعدما تفرَّس فيَّ:

ـ ولابد أنك يا بُنيّ «مُطيع» حفيد خَلَف السهمي. رحم الله والديك. كيف حال جدك؟

ـ بخير يا أمير المؤمنين. وجاء إلى هنا معي أول يوم.

ـ حسنًا، قيل لي إنك نابهٌ. فهل لديك إجابة أخرى على سؤالي، غير تلك التي قالها صاحبك ابن يانس؟

ـ عندي يا أمير المؤمنين، لكنني متهيِّب منك..

ـ هه. لا تتهيَّب يا ولدي، فهذا مجلس علم مبارك تحفُّه الملائكة. أخبرني بما تراه، فإني أحب أن أسمعك.

سَرَتْ بقلبي الطمأنينةُ بعد كلام الخليفة، وارتحتُ حين رأيت رضاه عندما خاطبته كما أوصاني جدّي، بلقب «أمير المؤمنين».. استجمعت ذاتي وما تعلمته سابقًا، وتكلمتُ بطريقة كبار السن ممن يشتغلون بالعلوم، فقلت: حدثني جدِّي عن العلامة «إسحاق بن راهويه» أنه كان ينبذ علم التاريخ ويعده من قبيل القيل والقال، لكن جدّي «خَلَف» يرى وأنا أوافقه في رأيه، أن التاريخ علمٌ جليلٌ فيه طاعةٌ لقوله تعالى ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾، وفيه أيضًا المعرفة والعبرة بخواتيم الأمم وأعلام الرجال.

«ما شاء الله، ما شاء الله».. قال الخليفة ذلك وهو يقوم ويقبل نحوي، فوقفت، فضمني إلى صدره وهو يقول: بارك الله فيك يا ولدي، بارك الله فيك. لحظتها، لمحتُ الأمير منصور ينظر نحوي لأول مرةٍ بإعجاب.

ولم تسنح لي فرصةُ اللقاء مجددًا بالخليفة، لفترة طويلة، بعد هذا اللقاء الأول. لأنه في اليوم العاشر من الشهر التالي، أعني ربيع الآخر، برَّز. فخرج من القاهرة وبرَزَ إلى الحدود ليقيم وسط جنوده المرابطين على حدود البلاط وأطرافها، ويمارس هناك هوايته في صيد السباع. وقد ظل بين الجند مبرَّزًا مدة أربعة عشر شهرًا وعشرين يومًا، ومات هناك. وخلال تلك المدة لم يأتِ الخليفة إلى قصره بالقاهرة إلا مرةً واحدةً، حزينة، في أواخر شهر ذي القعدة. أو كانت بدقةٍ، حسبما دوَّنت في دفتري، في اليوم الأخير من ذاك الشهر. إذ توفيت فجأةً زوجته «السيدة العزيزية» أم ابنته ستّ المُلك، فجاء إلى القاهرة على عجل لدفنها في تربة الزعفران وهو في غاية الحزن والأسف لفقدانها،

ويبكي بحرقةٍ على قبرها. وكذلك فعلت «ستّ المُلك» المفجوعة بالوفاة المفاجئة، حتى إنها بالغت وأقامت النياحة عند مدفن أمها، طيلة شهر كامل.

لم تنعقد الدروس يومَي العزاء ولم أر خلالهما منصور، وصبيحة اليوم الثالث مَرَّ بنا الخليفةُ في طريق عودته إلى البروز مع الجند، فألقى علينا السلام ولاطفنا بكلمات موجزة ثم دعا لنا بالتوفيق، وذهب والحرس يحيطون به ويتبعونه. لاحظت يومها أن «منصور» لم يكن محزونًا لوفاة السيدة العزيزية، لكنه كان يُظهر التوقير والتقدير لحزن المحيطين به.

بعد هذه المرة، اقتربتُ من الخليفة «العزيز بالله» مرةً أخيرة سمعته فيها يكلِّم منصور، لكنني لم أتمكن من رؤيته بسبب الازدحام الذي كان حولي عند بوابة الخيمة.. في يوم لن أنساه ما حييتُ، هو السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وكان يوافق يوم الثلاثاء، وقبيل أذان الظهر كان الهواء ساخنًا على الرغم من ابتداء فصل الشتاء، وخلال الاستراحة التي بين درس حفظ الصحة ودرس عمل التقاويم، أقبلت «ستّ المُلك» علينا مضطربة الخطى معقودة الحاجبين، وقطعت الكلام الموصول بيني وبين منصور بقولها: هيا يا أخي، سنذهب إلى أبيك.

ـ أبي! متى؟

ـ الآن، فهو في «بلبيس» ويريد أن يرانا.

ـ بلبيس بعيدة عن هنا، ولن أذهب إلا ومعي مُطيع.

ـ حسنًا، قوما الآن لتستعدا، وسوف أستأذن من جده.. هيا.. أسرعا.

أدخلونا إلى القصر الكبير فتحمَّمنا وبدَّلنا ملابسنا، بسرعةٍ، وخرجنا من باب البحر حيث كان ينتظرنا مركبٌ كبير لم أشاهد من قبل مثيلًا له، له أشرعةٌ عاليةٌ عديدة، وفيها خدمٌ كثيرون يجدِّفون بمجاديف طوال. قبل ركوبنا المركب قالت لي «ستّ المُلك» إن جدّي وافق على ذهابي معهم، فاندهشت من ذلك وسعدت به. وعرفت بعد أيام أن ستّ المُلك أرسلت فارسًا برقعةٍ إلى جدّي مكتوب فيها بعد البسملة: الشيخ الجليل، خَلَف السهمي، السلام عليك ورحمة الله وبركاته وبعد، فإني أستأذن منك في ذهاب حفيدك مُطيع لزيارة أبي أمير المؤمنين في بلدة بلبيس، فقد استدعى أميرُ المؤمنين أخي الأمير منصور، وهو يحب أن يكون مُطيع معنا، ولن نغيب عن هنا إلا يومين أو ثلاثة، وأعاهدك وأشهد الله أن أعتني بمطيع حتى يعود إليك سالمًا، بمثل عنايتي بأخي الأمير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فكتب لها جدّي على ظهر الرقعة بخطه، عبارة واحدة: الأمر لكِ يا مولاتي، وفي ثقتي بالله تعالى وبكِ من بعده، ما يصبر به القلب على غياب حفيدي.

كيف وافق جدّي على ذهابي، بهذا اليسر! ولابد أنه كتم الأمر عن عمتي «تمنّي» ولابد أنها سوف تقلق عليَّ جدًّا، فقد شكوت ذات مرة من فرط قلقها، فغمرتني بحضن عميم وقالت لي همسًا إنها تقلق عليَّ وأنا في حضنها، فكيف يكون حالها وأنا عنها بعيد. ثم بكت بلا سبب.

ما كان منصور يعلم أثناء ذهابنا إلى بلبيس أن أباه مريض، ولا

كان أحد يعلم أن الخليفة يودِّع الحياة وهو في الثانية والأربعين من عمره. لكن القولنج والحصاة كانا قد أنهكاه، ثم أطاحا بحياته بعد أيامٍ مفرطة الآلام والأوجاع. رحمه الله. ولأن منصور كان غافلًا عن سبب استدعائه، وكذلك أنا، ولأن الرحلة النهرية كانت مبهجة للعين وبديعة المناظر. فقد أمضينا الوقت على المركب في مرح هادئ ومحادثة بحكايات لا تنتهي. فالماء يجري من حولنا والضفاف خضراء تزدان بمختلف أنواع الشجر، وطيور جميلة تحلق في الأنحاء بريشها الملون وشكلها غير المعهود لنا. قيل لنا إنها في ابتداء الشتاء تهاجر إلى هنا من بلاد الصقالبة القاصية في ناحية الشمال، وهي بلادٌ بردها في الشتاء قارسٌ، ثم تعود تلك الطيور لموطنها مع نهايات فصل الربيع.

بعد الغروب نزلنا من المركب الملكي بموضعٍ خالٍ، إلا من خضرة الأرض، وكانت تنتظرنا ركائبُ وبغالٌ مسرجة وهودج للأميرة ستّ المُلك كانت الظلمة حالكة لاحتجاب النجوم خلف السحاب، ولأن القمر في المحاق، وفي وقتٍ متأخر من الليل وصل الركبُ إلى أطراف «بلبيس» حيث يبرِّز الخليفة.. بدا لي الموضع فسيحًا مترامية أطرافه، وفيه خيامٌ لا حصر لها، حولها جندٌ كثيرون، وبين ثناياها مشاعل، وعلى حدود مخيمات المعكسر دورٌ متناثرة في الأنحاء على غير نظام. أخذونا إلى دارٍ منها كي نبيت فيها أنا ومنصور، وكثيرٌ من الخدم، وباتت «ستّ المُلك» في دارٍ مجاورةٍ عالية الأسوار، تحوطها خيامُ حراسها الخصوصيين المعروفين باسم «العطوفية» وهم جندٌ شديدو الولاء للأميرة. رأيتهم في الصباح التالي وهم يصطفون بكامل عدتهم الحربية، كأنهم على وشك الدخول في غمار معركةٍ وشيكةٍ بهيئتهم هذه، الدالة على إقدامهم وقوة بأسهم.

الدار المخصصة لنا كانت لطيفة المساحة، بها رحبةٌ فسيحة تزدان جوانبها بزروع وشجيرات، وفي وسطها جميزة عالية الأفرع كثيفة الأوراق والاخضرار. ونحن نمر إلى باب الدار من حول شجرة الجميز الوارفة هذه، أشار إليها منصور وأومأ لي وهو يبتسم بما معناه أنها تناسب التسلُّق عليها واعتلاء فروعها العالية. وفي الصباح أيقظتني الخادمات وأخذنني إلى سطح الدار حيث كان منصور جالسًا وأمامه طعام الفطور، مع أنها أيام صوم! فأشرت إلى المائدة مستغربًا فقال خادمٌ متقدم في العمر، أظنه القيم على الدار، بأدبٍ: ليس من البر الصيام في السفر.

رأيتُ في عينَي منصور احمرارًا، وعلى وجهه علامات الإرهاق. سألته إن كان قد أرِقَ ليلته، فأجابني بأنهم أيقظوه قبيل الفجر وأخذوه إلى أبيه، فوجد عليه الخِرَق والضماد وآثار المرض. وحين رآه الخليفةُ، قبَّله وضمَّه إليه، وقال: وا غمِّي عليك يا حبيب قلبي.. ودمعتْ عيناه، ثم قال لمنصور: امضِ يا سيدي والعب، فأنا في عافية.. تحيَّرتُ لحظة حين أخبرني بذلك، ثم قلتُ لمنصور لمواساته والتسرية عنه: سوف يُشفى بإذن الله، فالعام الماضي أصاب المرضُ الشديدُ جدّي خلف، ولفُّوه بالخرق والضماد شهرًا، ثم تعافى وتحسَّنت صحته.

قبل نزولنا إلى اللعب على الجميزة، وقفت إلى جوار منصور نتأمل خيام الجند وحركتهم النشطة، وسألته عن سبب ترك الخليفة لقصره القاهري ومُتنزهاته ومباهجه وجواريه، ليقيم هنا على مشارف الصحراء؟ فأجابني بأنها سُنة واعتيادٌ درج عليه أجداده لتأكيد عزوفهم عن زخرف الحياة الدنيا، ولإرهاب المتربصين بالبلاد من أمثال

القرامطة والعباسيين وبقية الطامعين. نزلنا إلى رحبة الدار، وما كدنا نستوي جالسين على فرعين عاليين فوق جذع الجميزة، حتى دخل علينا الدار «بَرْجَوَان» مهرولًا، وفي إثره جماعة يستحثون الخطى، تدل عمائمهم وأرديتهم على أنهم من كبار رجال الدولة. من تحت الشجرة قال «بَرْجَوَان» مخاطبًا منصور: «بِسِّك تلعب». يقصد: ألا تكتفي من اللعب. ثم قال له: انزل. فردَّ عليه منصور متذمرًا، بقوله: ما أنزل واللهِ الساعة.

اشتد غضب «بَرْجَوَان» وزعق قائلًا لمنصور: انزل ويحك، الله فينا وفيك! يقصد: الله يتولَّانا ويتولَّاك. وهي قولةٌ لا تُلفظ إلا عند وقوع الواقعات. فنزل منصور متضررًا، وبقيت برهة فوق الشجرة لأشاهد أعجب العجب.

توافد على الدار كثيرون من رجال الدولة، وعندما استوى منصور واقفًا قبالة «بَرْجَوَان» تناول الأخير من رجلٍ يقف خلفه عمامةً كبيرةً مبثوثًا فيها الجوهر البراق، وألبسها لمنصور، ثم تقهقر عن موضعه خطوات وسجد أمام قدمَي منصور وقبَّل الأرض، وقال وهو جاثٍ: السلام على الأمير ورحمة الله وبركاته.. وإذا ببقية الرجال من خلف «بَرْجَوَان» يهبطون برءوسهم المعمَّمة ويقبِّلون الأرض، ويقولون مثلما قال «بَرْجَوَان».

عرفت فيما بعد، أن هؤلاء الساجدين لإظهار الخضوع وإعلان الطاعة، كان فيهم قاضي القضاة «ابن النعمان» وزعيم قبائل كتامة «الحسن بن عمار» وهما من هما مكانةً ومرتبةً مرموقة بين السراة من رجال الدولة البارزين. ولكن رؤيتي لهذا المشهد المهيب يومها،

كانت مدهشة لي ومروِّعةً، بصرف النظر عن معرفتي بهم.. بقيت فوق الشجرة برهة، مدهوشًا متخشِّب الأطراف من فرط الذهول، ثم استفقتُ حين دخلت علينا من باب الدار الأميرة «ستّ المُلك» يسبقها ويحوطها ويتبعها حراسها وجندها «القصرية» و«العطوفية» فور دخولها علينا قالت لمنصور بنبرة حاسمة: تقدَّم يا أمير لوداع أبيك. وبنبرة آمرة قالت للجمع: لا يتقدم أحد بخطوة أمام الأمير.

متقدمًا الجميع سار منصور كالمسحور، وإلى جواره أخته، وخلفهما كل الكبار.. نزلتُ من فوق الشجرة فدخلتُ في الجمع ومشيت معهم حتى وصلنا الخيمة الكبيرة حيث يرقد الخليفة «العزيز بالله» رحمه الله، وحيث تتعالى تأوُّهاته الجهيرة من فرط الألم وشدته. بسبب احتباس بوله لاجتماع الحصوات في مجراه، مع احتقان أمعائه وانتفاخ القولون الموشك على الانفجار في بطنه. وقد انفجر فعلًا بعد ساعتين أو ثلاث بعد عذاب لا يحتمل، جعل الخليفة يجأر بتأوهات وصرخات ترتجف منها الأفئدة، وما كان يلفظ خلال عذابه المريع هذا، إلا كلمتَي: آه.. الله..

لماذا يخلق الله للناس هذه العذابات والآلام المفرطة في الدنيا، وفي الآخرة يسومهم العذاب الأشد والأوجع والأنكى! لماذا؟ وهو أرحم الراحمين.. لم أر الخليفة في ذاك اليوم المفجع، فقد مشيتُ خلف الجمع حتى دخل منصور على أبيه من باب الخيمة المزدحم عنده الجندُ والعساكرُ وأكابرُ الرجال. وعند الباب، ومن خلفي، وضع أحدهم كفه على كتفي اليسرى لأقف بموضعي، فوقفت. وصلني صوتُ الخليفة يخاطب منصور بعبارات متقطعة، لم أميز فيها إلا كلمة: يا ولدي.. ثم صار تأوُّه الخليفة مدويًا واستدام صراخه،

فأخذوه وخرجوا به من باب الخيمة الجانبي محمولًا على محفَّةٍ، وأسرعوا به إلى الحمَّام المجاور للخيمة فاضطرب الجمع وتفرَّقت خطاهم. التفتُّ إلى الخلف فعرفتُ أن الذي وضع يده عليَّ ليوقفني عند مدخل الخيمة، كان «يانس الصَّقْلبي» أبا زميلنا حسام، وكان وجهه جامدًا وفيه الصرامة التي رأيتها فيه من قبل، لكن لمسة كفِّه الكبيرة على كتفي يومها كانت طيبة، حانية. ومن فرط اضطرابي وشدة حيرتي، سألته: هل سيموت الخليفة؟ فلم يرد عليَّ إلا بدمعتين انحدرتا من عينيه بسرعة، فما عادت ملامحه صارمةً مثلما كانت واكتسى وجهه بالاحمرار وعيناه بالاحتقان، وكاد يجهش لكنه استدرك فمسح بيديه على خديه، وذهب من أمامي مسرع الخطى.

«مُطيع، يا مُطيع».. سمعت صوت الأميرة ستّ المُلك تناديني من داخل الخيمة، فدخلت إليها. أخذتني أنا ومنصور إلى خيمة ملحقة بخيمة الخليفة، وبينهما سترٌ حاجزٌ من القماش الثقيل، أسدلته بيدها فلم يكن بالخيمة الصغرى أحدٌ غيرنا. جلسنا على كراسي كبيرة الحجم محلاة بقطع الجواهر، وبعد فترة من الصمت لم تطل، قالت ستّ المُلك إن الأطباء أخذوا الخليفة إلى الحَمَّام، المشفى، عساهم ينجحون في إدرار البول المحتبس وفي تهدئه هيجان القولنج.. لم يتحدَّث أحدنا بشيء، وفجأة أجهش منصور وعلا منه النحيب، فنهرته أخته بقولها: لا يا أمير المؤمنين، البكاء سيأتي وقته فيما بعد، الآن وقت الحزم.

سكت منصور لحظات، ثم رفع وجهه الذي كان مُنكَّسا وأزاح العمامة الكبيرة عن رأسه وسأل: ما هذه الرائحة القوية التي تملأ المكان؟.. فقالت ستّ المُلك: هي رائحة الأفيون، مسكِّن الألم.

فالتفت منصور نحوي وسألني إن كنت أعرفه، فنفيت، واستغربت انشغال ذهنه بأمر كهذا. بعد أيام سألت جدّي «خَلَف» عن الأفيون، فاستمهلني حتى المساء، وساعة جلوسنا للعشاء أراني كرةً صغيرة كالصلصال الأسود، لها الرائحة ذاتها التي كانت تعبق بخيمة وفاة الخليفة «العزيز» وقال لي إن هذا «الأفيون» دواءٌ قوي، يُستعمل لتسكين آلام الأمراض الحادة والجراحات، بأن تُداف في الماء الدافئ قطعة صغيرة منه يشربها المريض فيقل تألمه وقد تخلط مع أدويةٍ أخرى فتصنع منها الأدوية المركبة التي تسمى الأقرباذينات.

* * *

يوم وفاة «العزيز» بقيتُ جالسًا إلى جوار منصور وستّ المُلك، ساكتين ساكنين الظاهر، وفجأةً تصاعدت الأصواتُ والصرخات بعد أذان الظهر، وعلا العويلُ. فعرفنا أن الأطباء لم يمكنهم استنقاذ الخليفة من مخالب الموت، وانتفضنا واقفين وخرجنا من الخيمتين خلف «ستّ المُلك» فوجدنا الرجال يحتشدون في المكان.

تقدمت «ستّ المُلك» ووقفت أمام الجميع متعاليةً مثل السنط والنخلات العاليات، وخاطبت الجمع بقلبٍ قوي ولسان لا يرتجف: رحم الله أبي أمير المؤمنين، ووفَّق أخي أمير المؤمنين، ونحن لن نكتم موت الخليفة، فقد وهبنا الله من بعده بخليفة. فلله الأمر من قبل ومن بعد، والسيف لمن توسوس إليه نفسه بسوء. اليوم نسير إلى القاهرة بجثمان الخليفة الراحل، وغدا يتلقّى الخليفة الحالي عزاء الناس له في وفاة أبيه. فلينصرف الآن كل واحدٍ فيكم، ويفعل ما يجب عليه لحفظ البلاد والعباد.

انفضَّ الجمع وبقي «بَرْجَوَان» حائرًا يتلَّفت، ومن حوله بعض الأكابر. فنادت عليه ستّ المُلك وحين اقترب قالت له والذين معه يسمعون: سوف أذهب إلى القاهرة لتجهيز الجنازة وأمور العزاء، فابق أنت مع أمير المؤمنين، منصور، ومعكما الأمير عز المُلك وأمين الدولة ابن عمار، لتجهيز جثمان أبي في أسرع وقت ثم اللحاق بنا، وسيذهب الآن معي إلى القاهرة القاضي ابن النعمان وحامل المظلة ريدان، والعطوفية والقصرية.. صمت الجميع وأومأت بالموافقة رؤوسهم الصاغرة، وقبل أن تفارق مكانها استدارت «ستّ المُلك» وقالت لي بصوتٍ لا يسمعه البعيدون: تعال معي يا مُطيع.. كانت «ستّ المُلك» يومها قوية مثل ريحٍ صرصرٍ عاتية، وقاطعةً كأمضى السيوف، وفريدة المثال بين النساء. بل بين البشر. لا غرابة في أنها لم تجد في الرجال كفؤًا لها تتزوَّجه.

وصلنا إلى أسوار القاهرة وقد جنَّ الليل وعمَّت الظلمة، وقبل دخولهم من البوابة، أمرت «ستّ المُلك» «يانس الصَّقْلبي» بأن يوصلني إلى دارنا بالفسطاط، فذهب بي ومن خلفنا خمسة من الجند. كانت الأخبارُ قد سبقتنا وعرف الناس بموت الخليفة «العزيز» فاضطربت بواطنهم. في طريقنا إلى دار جدّي، شاهدنا القناديل مُضاءةً كلها بالدور والبيوت والدكاكين التي مررنا بها. وكان الناسُ يسيرون في الطرقات على غير هدى، زرافاتٍ وأفرادًا. في دارنا وجدت جدّي جالسًا مع صديقه «ابن الفرات» في حجرة الضيافة، وكانت عمتي «تمنّي» في زاويةٍ مظلمةٍ من البيت تقبع وحيدةً وهي مخطوفة اللون، متورمة العينين من كثرة البكاء بسبب فزعها عليَّ. عمتي «تمنّي» رقيقة القلب رهيفة الروح، ولهذا أحبها.

فور وصولي إلى الدار عرفتُ أن هلال الشهر رُصد، وأعلن الغد يوم عيد. عجيب، يوم عيدٍ أم يوم عزاء! لم أذهب في الغد إلى القاهرة مع جدّي للتعزية. كنتُ مبطونا وأعاني الإمساك، وبقيتْ عمتي «تمنّي» جالسة على طرف سريري لمدة يومين، تداويني بالأدعية المهموسة ونقيع السقمونيا والأغذية الدوائية. وكنتُ خلال تلك الوعكة المفاجئة، أطيل النوم في الليل والنهار وتصطخب أحلامي كلما غيَّبني الوسن، ثم برئتُ من سقمي مع انتهاء أيام العيد. ومن بعد ذلك جرفني نهرُ الحياة وشغلني صخبُ الأيام، وما عدت أتردد على القاهرة مثلما كنت أفعل سابقًا، ولم أدخلها خلال السنوات التاليات إلا مراتٍ معدودات. منها مرة لمقابلة «ستّ المُلك» في قصرها الغربي، والمرات الأخرى التقيت فيها بمنصور في القصر الكبير.. هو لم يعد منصور الذي عرفته في الصبا وحتى يوم بلوغنا من العمر، بالتمام، إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام، فقد صار منذ ذاك اليوم المشهود الذي توفي فيه أبوه: مولانا الخليفة الحاكم بأمر الله. وبالأحرى: الخليفة الحاكم بأمره.

* * *

بقي قلبي ساكنًا وأحوالي هادئةً، طيلة الشهرين الواصلين بين العيدين، وكانت تأتيني خلالهما الأخبار عن «الحاكم» مطمئنةً، ليس فيها شيء من المزعجات أو جالبات القلق. فهو يسترضي رجال دولته بالخُلع، ويتقرَّب إلى قلوب الناس بالأسمطة ومآدب الطعام، ويرسل قافلة الحج بكسوة الكعبة والصدقات المقرَّرة لأهل الحجاز. وصلّى بالناس وخطب فيهم يوم عيد الأضحى، ومعه على المنبر «بَرْجَوَان»

والقاضي ابن النعمان وأمين الدولة ابن عمار، وفي اليوم ذاته ارتفع الدعاء للحاكم في الحرمين. وختم العام على خير.

ولما دخلت علينا سنة سبع وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وقعت معي عدة أمور، أهمها مواظبتي على دروس الشريعة وعلوم القرآن بالجامع العتيق، وانتظامي في درس الفلك على يد العلامة «ابن يونس المصري» بداره الكائنة في حيِّ القرائين. وكان من أمور ذاك العام، ما هو عامٌّ شائع، كالغلاء الذي اشتد بسبب نقص المقياس عن الحد المناسب لزراعة المحاصيل، وأهمها بالطبع «القمح» الذي يسميه الناس: الطعام. وهم يسمون الخبز العيش. وقد أدَّت هذه الشدة إلى مزيدٍ من المآسي، وأودت بحياة جماعة من الناس، لاسيما أنها اقترنت باضطراب الأمن وتقصير الشرطة عن ملاحقة السراقين. حتى إن بعض النسوة اختُطفن من الطرقات، فاغتُصبن، وبعضهن انقطعت بعد خطفهن أخبارهنَّ. كما اقترنت الشدة باشتداد الخلاف بين المغاربة الكتاميين، وبعض كبار الصقالبة والأتراك من قادة الجند. مع أنهم جميعًا من دعائم الدولة، وركائز استقرار الحال. والأزمات تزيد المنازعات، والنزاعات بدورها تولد المزيد من الأزمات، فتدور بدوران هذه وتلك الدوَّامات المردية للأرواح، المُؤدية إلى الخراب، المؤذية للبلاد والعباد. ولله الأمر. وقد اقتضتْ هذه الأحوال العامة، المتردية، ظهور «الحاكم» مرارًا بين الرعية، لإظهار هيبة الخلافة. فكان يركب ويمر من المدينة قاصدًا إلى النواحي، بموكبٍ فيه عن يمينه «رَيْدان» حامل المظلة، وعن شماله «ابن عمار» كبير الكتاميين، ومن خلفهم يسير «بَرْجَوَان»..

وجرت بين جند الدولة والمنشقِّين عليها، وقائعُ قتال وحروب

دامت بالشام لعامين أو ثلاثة، ثم استتب الحال واستقرت الأمور بيد «الحاكم بأمر الله» وامتد سلطانه واتسع، فشمل مع مصر ساحل إفريقية والحجاز والشام. بل دعا له لاحقًا، أئمةُ المساجد في خطب الجمعة بجنوب العراق، كعلامةٍ على امتداد سلطانه إلى هناك. لكن ذلك لم يدم طويلًا.

وفي تلك الفترة انتظمتُ في درس الفلك والهيئة على يد «ابن يونس» لعام ونصف العام، لكن الفائدة كانت محدودة لتشوش ذهن الأستاذ ومشاغبات ابنه معطوب العقل. إذ كان «ابن يونس» متضارب الأحوال، فهو عالمٌ بدقائق الفلك وكيفية الرصد، بارعٌ في حساب المثلثات وعمل البندول والجداول الفلكية المسماة «الأزياج». وقد كلَّفه الخليفة «العزيز بالله» بعمل زيج، وبنى له مرصدًا فوق قمة المقطم، فظل ابن يونس عاكفًا على ذلك عشر سنوات متصلة، ولمَّا انتهى من الجدول الفلكي بعد وفاة العزيز وولاية الحاكم بأمر الله، جعل عنوانه: الزيج الحاكمي. وجاء، بحسب ما شهد به العلماء، على درجة عالية من الإتقان في الرصد وفي ضبط حساب حركة الأفلاك. ومع ذلك، فقد كان ابن يونس يأتي بالأفعال العجيبة، ناهيك عن ملامحه التي لا تدل على نباهته ونبوغه، إذ كان غليظُ الشفتين كالزنج وكثُّ الحاجبين جاحظ العينين بشكل لافت، وله من رثاثة الهيئة ما يُلحقه بالمغفلين. ومن أفعاله العجيبة، أنه كان يلبس طرطورًا ويلف حوله العمامة، ويشلح أطراف ردائه ويعقدها في عمامته. وقد تزايدت أفعاله غرابةً بعد انقطاعي عن درسه في السنة التاسعة والثمانين بعد الثلاثمائة، وتوفي هو بعد ذلك بعشرة أعوام بعدما انتكست أحواله وكثر الخبلُ في أفعاله. وفور وفاته، أخرجَ ولده المعتوه كتب أبيه

بكل ما فيها من النفائس، وباعها بالرطل وبأبخس ثمن في سوق الصابونيين، لا الوراقين. ولله في خلقه شؤون. ولكن، والحق يقال، كان ابن يونس في غير نوبات غرائبه وقّاد الذهن حاد الذكاء كثير الاطلاع على المتون والرسائل العلمية، حريصًا على اقتناء القديم منها والجديد، وكان يعاملني بشكلٍ طيبٍ ويستبشر بي. ربما تقديرًا منه لجدّي «خَلَف» الذي كانت تربطه به خيوط المودة. وهو أول من ذكر أمامي اسم العلامة «ابن الهيثم» وذلك يوم دخلت عليه داره فوجدت بين يديه رسالة لطيفة الحجم في كيفية الرصد، ووجدته معجبًا بما ورد فيها وبادرني بقوله إن هذا الرجل. يقصد مؤلف الرسالة. سيكون بعد حين عبقريًا، فهو لم يزل في الثلاثين من عمره، لكن بَوَارقَ بداياته تدل على لَمَعات نهاياته. وأضاف وهو يضحك: هذا طبعًا، إذا امتد به العمر. سألته عن هذا الرجل وأين يعيش؟ فقال إن اسمه «الحسن بن الهيثم» وهو يعيش بالشام بعدما هاجر إليها من موطنه الأول بنواحي البصرة وجنوب العراق.

أما دروسي في الجامع العتيق فكان بعضها جيدًا، ولكن أغلبها فقير الإفـادة. وكان الطلاب والمشايخ يتعاملون معي بحذر، ويتوجّسون مني، لأني درست مع الخليفة «الحاكم» وتزاملتُ زمنًا معه. وكان بعض الناس يأتيني برقاع فيها شكايات ومظلمات، ويطلبون مني إيصالها للخليفة يدًا بيد، ولا يصدقون أنني ما عُدت ألتقي به. ويبالغون في الإلحاح عليَّ لرفعها للخليفة. لاسيما أن الرجلين اللذين توليا النظر في أمور الناس على التوالي، وهما أمين الدولة الحسن بن عمار الكتامي ثم «بَرْجَوَان» الخادم الصَّقْلبي، قصَّر كلاهما في النظر بمظالم الناس وأسرفا في التطاول على الجميع، بل

واستخفا بالحاكم لصغر سنه وحداثته في الحكم.. فحاق بهما لاحقًا سوء الخاتمة، حسبما سيأتي ذكره.

وقد شهدتُ بشكل عارض غير مقصود، نهاية «بَرْجَوَان» المروعة. ففي غضون العام الموافق تسعين بعد الثلاثمائة للهجرة، وبالتحديد في الخامس عشر من شهر ربيع الآخر، جاء إلى دارنا خادمٌ من القصر الكبير، يحمل إليَّ رسالة من منصور «الحاكم بأمر الله» يدعوني فيها للغداء معه في الغد. ابتهج جدّي «خَلَف» بالدعوة، وانقبض منها قلب عمتي «تمنّي» وأنا احترت ولعبت برأسي الأسئلة: لماذا تذكرني فجأة بعد مرور أعوام أربعة؟ وما عساه يريد مني بعدما بَعُد الزمان الذي كان بيننا؟ أتراه اليوم قد اختلف عما كان عليه سابقًا؟.. كان كلانا آنذاك قد تجاوز عتبة الخامسة عشرة من عمره، ودرج في مدارج الرجال، أو بالأحرى ابتدأ الدخول إلى دائرة الرجولة.

في الصباح الباكر ارتديت أفخر ثيابي، وبعنايةٍ عقدتُ حول رأسي العمامة وعدّلتها لي عمتي «تمنّي» مرات، وكنتُ يومها قد صرت أطول منها. فكانت تعدِّل بأصابعها الحانية عمامتي، ثم تعود للوراء خطوتين، وتبتسم. وبعد عدة محاولات ارتضتْ هيئتي ودمعت عيناها من فرط الفرح بي، وضحكت وهي تمسح عن خديها الدموع.

يومها، ساعة وقت الضحى، طرق باب دارنا حارسان يركبان وكان معهما فرسٌ ثالثة مسرجة لركوبي، واصطحباني في موكب مهيبٍ صغير العدد عظيم الهيبة، دار من دارنا إلى بوابة القاهرة عبر حواف الفُسطاط والعسكر والقطائع، بعيدًا عن البيوت والشوارع العامرة. وخلال مسيرنا إلى القصر الكبير مرَّت بخاطري ذكرياتي القاهرية

متلاحقةً، وعادت لرأسي التساؤلات عما صار عليه «منصور» وتجوَّلت أفكاري فيما دعاه الآن لدعوتي، وما مراده من هذه الدعوة.. ثم ظهر أن الأمر أبسط بكثير مما توقعت، وقد بادر هو بإخباري به، قبل يومين اقترحوا عليه إعادة تنسيق المتنزهات والحدائق المحيطة بالقصر، ومقترحهم يقتضي قطع السنطة التي كنا نتسلقها، والبناء في بستان التين والعُنَّاب الذي كنا نلعب فيه. فرفض ذلك، وتذكرني، واشتاق إلى رؤيتي فدعاني للغداء معه.. وكان معنا رجلٌ فاخر الهيئة أنيق الملبس وضَّاح الوجه، تذكرته من فوري. فهو الأمير عز المُلك المُسبِّحي، وكان آنذاك في حدود الخامسة والعشرين من عمره، ويتولَّى بعض المناصب الديوانية منذ زمن «العزيز بالله» ويعد من المقربين إلى «الحاكم» ومن خُلَّص جلسائه، مع أنه ليس فاطميًّا. وإنما هو سليلُ أسرةٍ عربية كانت تتولى الإمارة بمصر والشام، من قبل مجيء الفاطميين.

لقاؤنا وغَدَاؤنا هذا، الرائقة بداياته، كان في القصر الكبير بقاعة الذهب. التي يدل اسمها على فخامتها المفرطة. هي قاعة فسيحة المساحة لها بوابة تخطف زخارفُها الأنظار، يجلس بصدارتها حول الحاكم «ريدان» حامل مظلة الخليفة، ومعه حراس. تهلل «الحاكم» حين دخلتُ عليهما القاعة وبادر بالترحيب بي، وأطال في مصافحتي وهو يقول مبتسمًا: كبرت يا مُطيع، يا أخي الحبيب، ونبتت لحيتك، والله لقد اشتقت إليك كثيرًا، ولكن شغلتني عن التواصل معك الشواغلُ..

ورأيتُ لحظتها أنه أيضًا قد كبر، وزادته عمامةُ الخلافة والطيلسان

الموشى ضخامة وشبهًا بأبيه، رحمه الله.. بعد الهدأة التي أعقبت الترحيب وتناول الطعام، والحلوى، بدا «الحاكم» كأنه يريد أن نتسامر ونتحاكى مثلما كنا نفعل قبل سنواتٍ، فقال لي إنه سيتزوج قريبًا من أميرةٍ فاطمية، هي ابنة عمه «آمنة بنت عبد الله بن المعز لدين الله» وابتسم وهزَّ رأسه وهو يضيف بصوت أخفض: لكن «ستّ المُلك» لا تحبها.. ومال نحوي وسألني هامسًا إن كنت سأتزوج من ابنة عم أبي، التي أخبرته سابقًا أنني أحبها، فقلت وقد غمرني الخجل: لا أدري.

قهقه «الحاكم» وقال إن عليَّ طلب المشورة من الأمير عز المُلك، فهو عليمٌ بأمور العشق وأحوال النساء، فازداد خجلي. ولم يشأ «الحاكم» أن يثقل عليَّ، فأخذ زمام الكلام إلى وجهة أخرى وسألني عما درسته من العلوم بعدما انقطع درسنا، فأخبرته. وسألني إن كنت أحب أن أتردد على القصر ودواوين الدولة، تمهيدًا لأن أتولى وظيفةً ديوانية بعد عام أو عامين، عندما تتوفر لي الخبرة ويتوافر العمر؟ فأجبته معتذرًا بأن جدّي نيَّف الآن على السبعين من عمره، وعلةُ النقرس تكاد تقعده عن القيام بمصالح أسرتنا، ولا أحد غيري يعاونه في ذلك ويقوم مقامه. كما أنني أحب التفرغ مستقبلًا بقدر الطاقة، للاشتغال بالعلوم الرياضية والفلكية، وأنوي التأليف فيها في مقبل الأيام.. انبسط وجه «الحاكم» بابتسامة، ونظر إلى الأمير عز المُلك وقال له مادحًا إياي: هذا أخي مُطيع، الزاهد، مهما كبرت سنه سيبقى بريئًا مثلما كان.. فرد عليه الأمير قائلًا بتلطفٍ: يا مولاي، لا تتعجل الأمور، فربما يأتي بعد حينٍ وقتُ أخينا مُطيع.

في تلك اللحظة، جاء «رَيْدان» وهمس في أذن «الحاكم» بشيء،

فقال له: قل لها أن تأتي إلينا.. وقال لنا: هذه أختي «ستّ المُلك» جاءت إلى القصر وتريد أن تراني.

بعد حينٍ دخلت علينا الأميرة فرأيتها مثلما عهدتها سابقًا، بهيةً، تبهر الألباب برشاقة مشيتها وفرط أناقتها وقوة كل ما فيها. بعدما ألقت علينا السلام، سألتني بمودةٍ: كيف حالك يا مُطيع وحال جدك؟

ـ بخير يا مولاتي، كلانا بخير وسلام.

ـ بلغني أن جدك اشترى بيتًا كبيرًا يحوطه بستان عنب، بحواف الجيزة، فهل ستهجرون داركم بالفسطاط وتسكنون هناك؟

ـ لا سيدتي، هو يريده مستراحًا صيفيًّا فقط. والدار والزروع هناك بحاجةٍ إلى إصلاحاتٍ سوف تستغرق شهورًا طويلة، وربما عدة أعوام.

ـ وفقكم الله يا مُطيع. بلِّغ جدك عني التحية والسلام.

أنهت «ستّ المُلك» كلامها معي ونظرت نحو «الحاكم» وقالت له ما معناه إنها تريده في أمر عاجلٍ، على انفراد. فجاوبها وهو يضحك بقوله: ولماذا الستر! أنتِ أختي وهذان أخواي، فهاتي ما عندكِ.. تردَّدتْ الأميرةُ لحظةً ثم تناولت من كُمِّ ردائها ورقةً مدَّتها إلى الحاكم، ولمَّا نظر فيها تغيَّرت على الفور ملامحه واكتست بغيظٍ كظيم. قال الأمير «المُسبِّحي»: «خير يا مولاي» فانتفض الحاكم منتصبًا على ساق الغضب وهو يقول: لا والله، هذا ليس خيرًا، وليس من الخير أن نسكت عنه أكثر من ذلك.. نظر «المُسبِّحي» بقلق ناحية

ستّ المُلك، وسأل مجلدًا: خير يا مولاتي؟ فزمّتْ شفتيها قبل أن تجيبه بأنها رسالةُ تجسسٍ من خادمٍ بالقصر اسمه «عفيف» مرسلة إلى «بَرْجَوَان» وفيها رصدٌ لتحركات «الحاكم» وسكناته وبيانٌ بأسماء من يجالسهم.. قطع الحاكم كلامها بقوله لي وهو يمدُّ الرسالة إليَّ: انظر يا مُطيع ماذا يقول في السطر الأخير.

نظرتُ فوجدتُ المكتوب: «واانتبه يا سيدي، فإن الوزغة كبرت وصارت كالتنين» فلم أجد ما أقول. وقال «المُسبِّحي» متروِّيًا: في حقيقة الحال، قد تخطى «بَرْجَوَان» كل الحدود المحظورة، وأمن العقوبة فأساء الأدب، حتى إنه دخل علينا الأسبوع الماضي راكبًا، واضعًا قدمه اليمنى على عنق دابته وبطن حذائه قبالة وجه مولانا الحاكم، ناهيك عن إهماله النظر في الشكايات والمظالم حتى جأر الناس بالشكوى منه، وأرى بعد إذن أمير المؤمنين ومولاتي الأميرة، ضرورة أن يُعاقب أو يلام.

«بل ضرورة أن تُقطع رقبته» قال الحاكم ذلك في فورة غضبه واهتياجه، وقالت ستّ المُلك بلا غضبٍ ولا اهتياج إنها أعدَّت العُدة. قمتُ واقفًا واستأذنت في الانصراف بلسانٍ يرتبك لفظه، فربت الحاكم على كتفي وهو يقول متصنعًا الابتسام، مع أن حاجبيه من الحنق ينعقدان: اذهب الآن يا أخي مُطيع في أمانٍ وسلام، وليتم الله ما في علمه. خرجتُ من القصر معتقدًا بأنهم قد يعزلون «بَرْجَوَان» عن منصبه، عقابًا له على سوء أدبه وقُبح أفعاله.. وما كدتُ أخرج من باب القصر وأنعطف في الشارع الكبير المؤدي إلى بوابة القاهرة، حتى رأيت أمامي «حسام بن يانس الصَّقْلبي» راكبًا بغلةً مسرَّجة، ومبتسمًا مثلما عهدته نزل عن مركوبه مُرحبًا بلقائي، وأقبل عليَّ

متهللًا فَرِحًا. ولما عرف مني أنني تناولت الغداء مع الخليفة، قال: إذن فالعشاء عندي، ودارنا لا تبعد عن هنا إلا بضع خطوات. اعتذرت منه، فازداد إلحاحًا حتى وافقته في البقاء معه ساعة، لكنني لن أستطيع البقاء لوقت العشاء. مشينا راجلينِ وأنا مستغرب من مصادفات يومي، حتى وصلنا إلى بوابة دارهم الأنيقة الواقعة عند الناصية المؤدية إلى الناحية المسماة «حارة قائد القوات» المطلة نوافذها على الشارع الكبير. في مدخل الدار كان يجلس حارسان من ضخام الأبدان وخادمٌ أخذ منا مقود الركائب وذهب بها إلى الإصطبل اللصيق بالدار، وصعدنا الدرج المفضي إلى غرفة الضيوف وثيرة الفرش. ونحن نستعيد الذكريات، ونتضاحك من نوم «حسام» أثناء الدروس وعلو شخيره، دخلت علينا جارية رومية الملامح حسناء، ينسدل شعرها الذهبي على كتفيها وذراعيها المكشوفتين. جاءت تحمل أطباقًا فيها فاكهة وحلوى، وعادت بعد قليل تحمل إبريقًا فيه عصير، وقنينة فيها نبيذ. سألني حسام ممازحًا: هل أصبُّ لك كأس نبيذ، أم أنك تحب الفُقّاع مثل المصريين؟ وقهقه.. أجبته بأنني لا أحتسي الخمور، فلم يعقب عليَّ، وصبَّ لنفسه كأسًا.

في تلك الجلسة التي دامت ساعتين رائقتين، وانتهت بفاجعة، أخبرني بأن «الحاكم» اختار أباه منذ عامين عاملًا له على «برقة» ومتوليًا شؤونها. هي ناحيةٌ بعيدةٌ تقع بين البحر والصحراء على طريق ساحل إفريقية، هكذا قال: وعندما عقَّبتُ عليه بأنني أعرف موقع برقة، قال وهو يضحك عاليًا: أنت يا مُطيع تعرف كل شيء.. واستكمل كلامه فأخبرني بأنه صار يقيم في هذه الدار وحده؛ لأن أمه وإخوته وأخواته الصغار ذهبوا مع أبيه للإقامة في برقة. وبقي هو

بالقاهرة لاستكمال تعلُّمه فنون القتال، بمعسكر الجند القريب من «عين شمس» وهو يذهب مبكرًا إلى هناك كل صباح، ويعود في مثل هذا الوقت. سألته لأسايره، عما يفعله وحده في الأمسيات؟ فضحك عاليًا وهو يخبرني بأن هذه الدار بها غير الخدم والحراس جاريات حسناوات، خمس، وبأنه يقضي كل ليلة مع واحدة منهن، ويلهو، فإذا انقضى الأسبوع أعاد الكرة من أولها: هه هه، العدل جميل.

ـ كل ليلة مع جاريةٍ غير الأخرى يا حسام؟!

ـ وإيش المانع يا صديقي؟ لكنني أتجنَّب الإنجاب منهن، عملًا بنصيحة أبي.

ـ أبوك ترك لك الجواري للمجامعة، ونصحك بتجنُّب الإنجاب. عجيب! فلماذا لا يزوِّجك، ويدعك تنجب من زوجتك؟

ـ وما العجيب يا مُطيع في التسري بالجواري؟ أما الزواج والإنجاب فسيأتي وقته بعد حين، حين أحصل على وظيفةٍ بالجيش أو الشرطة.

دخلت علينا الجارية مجددًا تحمل مزيدًا من أطباق الحلوى، فأطلتُ النظر إليها عن غير قصد. فور خروجها من الغرفة عبَّ بقية كأسه وضحك وقال ممازحًا: أراها قد أعجبتك، والله يا مُطيع لو كانت ملكي لأهديتها لك، لكن أبي هو الذي يملك كل شيءٍ هنا.. تحرَّجت من كلامه وقلت من فوري متلعثمًا: لا يا حسام، لا داعي لذلك أصلًا فليس في دارنا إماء أو عبيد، فإن جدّي لا يحب ذلك.

ـ فكيف تتسرى يا مُطيع؟

فجأةً، وصلنا صوتُ صراخٍ يقترب فنظرنا بأعين الرجال من شباك الغرفة، فرأينا رجلًا يجري مرعوبًا في الشارع الكبير وهو يصيح: «قُتل مولاي، قتل مولاي» فقال حسام: هذا عفيف الخادم بالقصر الكبير، فمن الذي قُتل؟.. خرجنا مُسرعين إلى بوابة الدار، فرأينا الناس قد اصطفوا على جانبي الشارع الكبير، ثم رأينا فارسًا يعدو خلف الصارخ المذعور وعندما أدركه نخسه في رقبته برمح فأرداه.. اهتاجت بواطن الناظرين وكثرت الهمهمات، وبعد قليلٍ عرفنا أن «الحاكم بأمر الله» أرسل يستدعي «بَرْجَوَان» فجاء إليه متأخرًا ومستخفًّا مثلما اعتاد. فأدخله الحاكم ساعة غروب الشمس إلى بستان التين والعِنَّاب، وهناك وثب عليه «رَيْدان» وأثخنه بطعنات خنجره، واستكمل الحرس طعنه بالسيوف حتى مات، فدفنوه بأرض البستان.. بستان التين والعناب، الذي كان لنا قبل سنواتٍ موضع اللعب، صار اليوم مرتع القتل والدفن.

زحف الناس إلى بوابة القصر الكبير مستطلعين، فخرج إليهم «ريدان» يسبقه صفان من الجند والحرس، وحوله صفان من العطوفية والقصرية، فزعق في الجمع المحتشد قائلًا بصوتٍ جهير: مَنْ كان في الطاعة فلينصرف إلى منزله.. فتفرق الناسُ وانصرفوا وهم في هَمٍّ عظيمٍ وكرب، ونظرت إلى حسام بن يانس فوجدت وجهه قد تحجَّرتْ ملامحه، فصار شبيه أبيه. الولد صنو أبيه. عاد بي إلى بوابة بيتهم وهناك قال لي بلسان العليم الخبير بالخفايا إن الأحوال قد تضطرب الليلة، والأفضل أن أبيت معه خشية المخاطر في الطريق. قلت حاسمًا: لابد لي من العودة للفسطاط. فأمر خادم الدار بإحضار

بغلتي وحصانين، فركب أحدهما وترك الآخر لأحد الحارسين، وقال للحارس الآخر بلهجةٍ آمرة: لا تترك مكانك ولا تفتح باب الدار قبل عودتي.. وخرج معنا الحارس الآخر. فكان كلاهما على حصانه متقلدًا سيفًا طويل النجاد، وعلى رأسيهما بدلًا من العمائم خوذتان.

خرجنا من بوابة القاهرة مسرعين، لحظة علوِّ أذان العشاء وقد اشتدَّ من حولنا البردُ، مع أن شهور الشتاء انقضت وبدأ الربيع. مررنا من حواف العسكر والقطائع والفسطاط، تلافيًا للازدحام وصخب الناس. وعندما اقتربنا من دارنا رأيت على ضوء القمر الذي كان ليلتها بدرًا، عمتي «تمنّي» واقفة فوق سطح الدار ترقب الأنحاء المحيطة وتترقب وصولي، وكان جدّي «خَلَف» ينتظرني في حجرة الضيوف.. كانت أحوال تلك الليلة التي يسفر صباحها عن يوم الثلاثاء، سابع عشر ربيع الآخر من العام تسعين وثلاثمائة، تشبه أحوال ليلة وفاة الخليفة «العزيز بالله» التي كانت قبل أربعة أعوام.

عندما سمع جدّي صوت وصولنا، ورأى لهفة عمتي «تمنّي» وهي تنزل مسرعةً من سطح الدار إلى بوابتها لتفتح لي، خرج يتوكأ على عصاه واستقبلنا لدى البوابة. حاول «حسام بن يانس» أن يعود مع حارسه إلى القاهرة، فرفض جدّي بحسمٍ وأصرَّ أن يمضيا الليلة بدارنا، ويرحلا وقتما يناسبهما في الصباح، وحلف عليهما في ذلك بأغلظ القسم والأيمان. خجل «حسام» من إلحاح جدّي وإصراره فوافقه، خصوصًا أنه يعلم بالصلة الطيبة التي تجمع بين جدّي وأبيه «يانس» منذ سنوات.

دخلنا الحجرة، أشار لي جدّي بحركة من يده ومسبحته، كي

أطلب من عمتي «تمنّي» والخادمتين إعداد الطعام للعشاء. في صحن الدار المعتم، حيث لا قناديل تضيء المكان، كانت تقف مترقبةً المالي، ولما رأتني مقبلًا نحوها أقبلت عليَّ مسرعةً وبقوة ضمتني إليها، وطال احتضانها لي وتقبيلها كتفيَّ ومنبت عنقي بعنفوان. سالت دموعها وبللت خديَّ، وسالت حناياها بين ذراعيَّ. فرك صدري اليابس، من دون قصدٍ، صدرها عبقري النهود. شعرتُ بها لحظتها على نحو غير معهود عندي من قبل، ولا مسبوق، إذ كنتُ سابقًا أحسُّ بأنها سماواتي وسقف أحلامي، وبدئي ومنتهاي وموئلي. لصرتُ منذ لحظة الاحتضان هذه، أشعرُ أنها أنثاي. حتى إنني أنعظتُ لحظتها وتمنيتُ لثم شفتيها الشهيتين، لكنني لم أجرؤ على ركوب مهوة صبوتي. وأظنها لمستْ ما بي، فأطلقتني برفق من بين ذراعيها ومسحت دموعها بكفيها وهي مضطربة الباطن مرتبكة الملامح. ومن بعد تلك اللحظة التي لا تُمحى من ذاكرتي، لاحظتُ أنها صارت تتحشَّم في حضوري وتستر ما كان مكشوفًا، حتى شعرها.

عندما عدت إليهم في الحجرة وجدتُ «حسام» يقول لجدي إن الدور والمنازل بهذه الناحية متفرقة، وقريبة من المقطم حيث يسهل الكمون والاختباء، وهذا يُغري السرّاقين. والأكثر أمنًا أن تحاط دارنا ودار «ابن الفرات» اللصيقة بها، بمنازل عدة مأهولة. ولابد من اقتناء كلاب للحراسة، وبعض العبيد الأشداء لدفع الأذى عن الناحية. قال جدّي إنه لا يحب اقتناء العبيد، ونظر نحوي مستطلعًا انطباعي عن كلامه، فقلت بإيجاز موحٍ: عرفتُ منك يا جد ومن الفقهاء، أن الضرورات تبيح المحظوراتِ.. وأيّد «حسام» موقفي بقوله: واقتناءُ الحرس والعبيد، ليس من المحظورات.

صباح يوم الجمعة اجتمع بدارنا على مائدة الفطور، جداي وجارنا أبو الفضل جعفر بن الفرات وابنه الفضل، كان ابن الفرات عليلًا فلم يستطع الذهاب معنا ظهرًا للصلاة الجامعة. وخلال جلستنا الصباحية هذه، أعاد جدّي على مسامع الحاضرين ما قاله حسام بن يانس، فأجمعوا على صحة رأيه ووجوب القيام بما اقترح. وخلص كلامهم إلى ضرورة أن نشرع في بناء منازل ملاصقة للدارين من خلف، ومن الجانبين، ونبني أحواشًا متراصةً بجوار البوابتين لسكنى الحراس والعبيد. كان القلقُ من واقعة مقتل «بَرْجَوَان» ومن خشية الأخطار إذا انفلت الأمن مستقبلًا، يعصف بأفئدة الجميع ويلعب بعقولهم، ويشيع بالنفوس التوجُّس.

استغرق بناء الحجرات حول الدارين قرابة شهرين، وبعدهما اشتكى جدّي «خَلَف» من رمد العينين، فدلّوه على كحَّالٍ ماهر اسمه «صفوان البصري» كان قد وفد مؤخرًا من نواحي العراق واستقر بحجرةٍ صغيرة بحواف «القطائع» الشرقية مما يلامس الصحراء.. ذهبت إليه لأستدعيه لعلاج جدّي، فوجدته شخصًا مفرط الذكاء وقَّاد الذهن، في حجرته كتبٌ كثيرة ومتاعٌ قليل. وقد أعجب به جدّي واستطاب معالجته، فعرض عليه السكن بإحدى الحجرات الجديدة، بجوار منزل «ساويرس ابن القمص» فوافق من فوره، وأقام خلف دارنا ومارس صنعته في مداواة العيون المعطوبة بالشيافات النافعة والأكحال. وصار يصحبنا للصلاة أيام الجمعات في الجامع العتيق، فألفيناه حلو المعشر لطيف الصحبة، بيد أن بعض السخفاء والمتوجسين من أهل الفُسطاط، نقموا عليه بلا سبب وحدَّثوا جدّي بأن هذا الرجل من جملة الملاحدة، وبأنهم سمعوا بأنه تتلمذ بالعراق

على يد واحدٍ من تلامذة «أبي الحسن أحمد بن يحيى» المعروف بابن الراوندي. فاحتج جدّي عليهم بأنهم سمعوا عنه ولم يسمعوا منه ما يُدين، واستشهد لهم بالآية: {فتثبتوا أن تصيبوا قومًا بجهالة}، وبالحديث: «هلا شققت عن قلبه» فسكتوا عنه إلى حين.

وقد ظهر لي بعد فترةٍ، أن صفوان كان بالفعل منكرًا لكل الرسالات والنبوات، جملة. ويراها من الضلالات التي روَّج لها الحاكمون وعضَّ عليها العوام بالنواجذ لضعف عقولهم وقصورها عن التدبر.. لي الشهور الأولى لسكناه عندنا، كنت أراه في الأمسيات من فوق سطح الدار يتسامر مع ساويرس النجار، ويطيلان الحكي فيما بينهما وهما يستدفئان حول ركوةٍ ويحتسيان الشراب. فمالت نفسي للجلوس معهما، لا سيما في أمسيات الملل الشتوي. فصرتُ أنضم إليهما في بعض الليلات وأحمل لهما الحلوى أو الفاكهة، فيفرحان بحضوري ويبتهجان لهداياي. ولم أكن في البداية أطيل السهر معهما، رفقًا بمحبوبتي «تمنّي» التي كانت تبقى على سطح دارنا مراقبةً لي، خِفيةً، مع أن معتادها هو الذهاب لفراشها مبكرًا لأنها تصحو فجرًا. في الفترة الأولى التي امتدت أشهرًا، كان ساويرس وصفوان يتحفظان في حضوري ولا يخوضان في الخطير من الكلام. فلما توفي جدّي «خَلَف» وأمسيتُ أجالسهما في سائر الليلات، اطمأنا وأفصحا رويدًا عما يعتقدان.. فأما «ساويرس» فكان يتشكك فيما يسميه رؤساء ديانته «أسرار الكنيسة» مستندًا في شكِّه إلى أن الرب المحب الرحيم، لن يفرق بين عباده ويفضِّل بعضَهم على بعض، فيختصّ منهم جماعةً بمعرفة أسرارٍ يحجبها عن الباقين. كما كان يتشكك فيما ورد بالأناجيل الرسمية للكنيسة، مستندًا في شكِّه إلى ما ورد بالأناجيل المحظورة.

وهي النصوص المحرمة، المتداولة بين جماعات نصرانية منبوذة يعيش أفرادها بالصعيد، خصوصًا في البلدة الكبيرة المسماة: قوص. وهم بحسب ما أخبرني به، جماعات كثيرة العدد، لكن أحوالهم مخفية وأصواتهم خافتة، تلافيًا للنقمة وتفاديًا للصدام مع أتباع الكنيستين الكبيرتين بمصر.. وأما «صفوان» فكان رأيه القريب مما قرره صاحبه، أن الاصطفاء الرباني للأنبياء والذرية التي بعضها من بعض، دون بقية الخَلْق، يقدح في العدالة الواجبة على الله. وهو قولٌ قريب على نحوٍ ما، مما قرره المعتزلةُ وبعضُ الفلاسفة.

لم أنكر على أحدٍ منهما ما يعتقده، ولم أُؤيِّد، وكنتُ أكتفي عند استماعي لهما بالإنصات لإيماني بأن مخاضة المعتقدات مهلكة، ولا فائدة تُرجى من وراء الجدال فيها. ولله في خَلْقه شؤون، وللناس فيما يعتقدون فنون. وبعيدًا عن تلك الآراء والاعتقادات، كانت الجلسة معهما مؤنسة، وكان كلامهما في الجملة مسليًا ومؤنسًا، ولا يخلو من المضحكات. فكثيرًا ما يتندر ساويرس على «صفوان» لأن الأخير، على الرغم من اقتراب عمره من الستين عامًا، مولعٌ بالنساء ولا يكف عن مغازلة المليحات. ويغيظ صاحبه بقوله: هنَّ معطوبات العيون فلا يرونه بوضوح، فيعتقدن أنه شاب مليح. فيردُّ عليه صفوان مدافعًا عن نفسه بما هو اتهام، قائلًا: ولماذا أغازل مريضاتي وهناك السليمات، وقد عاهدتُ نفسي منذ زمن على أنني مع النساء لا أراود، ولا أرد التي تريد.. ويضحكان كطفلين من هذا الكلام ومثله، ثم ينهمكان في الكلام عن العمومي من الأمور، أو يغنيان بصوتهما الأجش حين يخامر رأسيهما ما يشربانه من خمر الفُقَّاع.

لكن فارقًا أساسيًّا ظل قائمًا بين ساويرس وصفوان، فالأول طيب

القلب مريح الملامح، مما يجعل النفس تميل إليه وتأنس به. أما صفوان، فمع أنه واسع الاطلاع وأكثر ذكاءً، وكان يتبادل معي الكتب ويناقشني في أدق الأفكار، لكن فيه شيئًا مريبًا. وملامحه الحادة تصدُّ وتجعل من الصعب أن يُحَب، خصوصًا بعدما سرت بين الناس همهماتٌ وانتشرت قبل اختفائه المفاجئ، تزعم أنه يجوس خلال الديار لمداواة العيون، وهو في حقيقة الأمر يتجسَّس للعباسيين أو للبويهيين العراقيين. بيد أن شيئًا من ذلك لم يثبت، ولا قام عليه دليل، حتى هرب هروبه المريب. وبعيدًا عن ذلك، لم أجد في مجلسهما ما يسوء. بل بالعكس، كانا ألطف سكان الحجرات التي خلف الدارين، وأكثرهما مؤانسةً. أما أغرب هؤلاء السكان وأكثرهم إدهاشًا، فكان رجلًا يقال له «التِّنِّيسي» يمتهن عملا عجيبًا؛ إذ يجلس في حجرته المفردة يُحلُّ المطلقات ثلاثًا، بأن تبيت الواحدةُ منهن عنده ليلةً يذوق فيها العُسيلة، فيصح شرعًا رجوعها لمن طلَّقها. وكان يتقاضى على ذلك أجرًا، ينال جزءًا منه الفارضُ أو المأذونُ بعقد القران، أو غيرهما ممن يدلون عليه أصحاب هذه الحاجة. فسبحان مَنْ أقام العباد فيما أراد! وقد أخبرني جدّي «خَلَف» بأنه يكره ما يفعله هذا «التِّنِّيسي» ولا يحب وجوده في جوارنا، وكان ينوي قبل وفاته أن يطرد الرجل فور انتهاء السنة التي اكترى فيها الحجرة، إذ كان قد سدَّد كراء الحجرة مقدمًا، ولم يشأ جدّي أن ينقض الاتفاق بعد عقده.

توفي جدّي «خَلَف» في مطلع العام الثاني بعد التسعين وثلاثمائة، بعد وفاة «ابن الفرات» بعشرة أشهر أمضاها جدّي مريضًا، وحزينًا لوفاة صاحبه.. كانت وفاة ابن الفرات يوم الخميس الثالث من الشهر الثالث من سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، في ليلةٍ شديدة البرد،

هوجاء الرياح والعواصف. وكانت وفاة جدّي أيضًا يوم خميس، هو التاسع من أول شهور العام التالي، وكان الأوان خريفًا. وقد حضر منصور «الحاكم بأمر الله» للتعزية في وفاتهما، ولم يُطل المكوث في عزاء «ابن الفرات» فجاء بين المغرب والعشاء، وجلس قليلًا ثم قام وهمس لابن المتوفى «الفضل بن جعفر» بكلمات لم يسمعها غيره، ثم التفت فجأة نحوي وقال لي والناس تسمع: سِر معي يا أخي مُطيع.. فخرجت من مجلس العزاء معه، وسِرنا صامتَيْن يسبقنا الطرّادون من الشُّرَط الذين يعدون الناس عن الحاكم، ولم نركب. وفي موضع فسيح بسفح المقطم، جلسنا على حجرين كبيرين وأبعد «الحاكم» حراسه والعسس حتى لا يسمعونا، وسألني عن أحوالي فأجبت بالمعتاد: بخير ولله الحمد.

- مرَّ عامٌ يا مُطيع منذ التقينا آخر مرة..

- نعم، منذ اليوم الذي قُتل فيه «بَرْجَوَان».

- لقي ما يستحق، بعدما أسرف على نفسه وبلغ في الغيِّ الغاية القصوى، فذهب غير مأسوفٍ عليه.

- ...

- ليش ساكت يا مُطيع، حادثني وقُل ما تستره في نفسك.

- أبدًا يا مولاي..

- مولاك! أنت يا مُطيع أخي وصديقي، ولك أن تناديني باسمي الذي تعرفه.

- هذا لا يصح، سأدعوك «أمير المؤمنين».

ـ ادعُني بذلك عندما نكون بين المؤمنين، والكفار. لكننا الآن وحدنا فحدِّثني مثلما يحدِّث الأخُ أخاه. أم أن في نفسك مني شيئًا.

ـ لا والله. أنت يا منصور، كنت وسوف تظل دومًا، الأخ والصديق والصاحب الوحيد. ولكن إذا سمحت لي، واتسع صدرك..

ـ يا مُطيع، قل ما عندك ودع عنك هذه التمهيدات.

ـ أراك من يوم «بَرْجَوَان» تستطيب الفتك بالناس وتسرف في القتل.

«البردُ اشتد».. قال الحاكم ذلك ثم نادى حاشيته ليوقدوا نارًا لنستدفئ، وبعدما فعلوا وابتعدوا عنا مجددًا مدَّ منصور «الحاكم» كفيه وفركهما فوق الجمر الذي اتقد، وسكت لحظات حدَّق خلالها في باطن كفِّه اليمنى ثم أبان عما يعتمل في صدره، وأطال. كان كأنه يحادث نفسه أو أخًا يحبه. قال إن قصور القاهرة والقطائع صارت مليئة بالمؤامرات، ونفوس الناس أعماها الطمع: والغالبية من أهل الأهواء يستخفون بي يا مُطيع، لحداثة سني وقلة خبرتي بشؤون الحكم. أبي رحمه الله تولَّى هذا الأمر بعدما تعدَّى من عمره عشرين عامًا ونيِّفًا، وكتموا وفاة جدِّي رحمه الله حتى استقامت الأمور بيده. أما أنا وكما علمت، فأُلقيت في هذا المرجل وهو يغلي، بلا تمهيد للأمور ولا استعداد. وهذا يُطمع فيَّ كثيرين ويدعوهم للنوايا الخبيثة، والتآمر، مما يدعوني للشدة وتغليظ الجزاء، والرعب رادع. على أنني لا أظلم أحدًا ولم أعاقب إلا من دلت الشواهد العديدة على إدانته واستحقاقه العقاب..

ـ ألا توجد طريقة للعقاب، غير القتل؟

ـ وما الذي يستحقونه، ويردع سواهم، غير القتل.. العزلُ من المناصب يا مُطيع، يزيد عدد الأعداء والناقمين والحاقدين، ويدفعهم للتحالف ضدي وتدبير المكائد.

ـ يمكنك معاقبتهم بالنفي والإبعاد إلى الأنحاء القاصية، المتفرقة.

ـ النفي.. ربما يصلح.. سأفكر في ذلك، مع أن القتل أكثر حسمًا.

ـ اصدقني القول بحق ما بيننا من المحبة، واعذر جرأتي، هل تحب كونك السلطان القاهر المطاع، ومولانا الحاكم بأمر الله؟

ـ لا والله يا مُطيع، لا والله. وليت أخي محمد كان حيًّا فيتولى تلك المهمة عني، وأكون بريئًا منها.

.. كنا في تلك الليلة قارسة البرد، نتحدث بروية مثل الشيوخ المغمرين، مع أننا بالكاد على أعتاب السادسة عشرة من عمرينا لكن الهموم تطرد الصفو والبراءة، وتستدعي النضوج قبل الأوان. قام «الحاكم» ليستكمل تجواله الليلي غير عابئ باشتداد البرد، وعدتُ إلى دارنا وقد انتصف الليل فوجدت جدّي «خَلَف» مُسهَّدًا بصحن الدار، وعلى الأرض تجلس «تمنّي» كالثكالى، وكفَّاها تؤرجحان رأسها ببطء من فرط القلق عليَّ. سألني جدّي عما جرى معي وما قاله لي «الحاكم بأمر الله» وما قلته له، فأجبته حتى لا أثقل عليه

بأننا استعدنا ذكريات الصبا، ولم نتحدث في شيءٍ خطير. هزَّ رأسه مستسلمًا وقام إلى حجرة نومه متباطئًا يتوكأ على عصاه، وقامت محبوبتي لتعد لي العشاء، وعبثًا حاولتُ أن أثنيها عن ذلك بإخبارها أنه لا شهية عندي للطعام، لكنها أبت أن أبيت جوعانًا. مشغول البال لا يشعر بالجوع. عادت إليَّ بطعام لطيف، وفاكهة، فأكلت على هونٍ وهي جالسة قبالتي تنظر إلى الأرض وأنظر إلى ملاحة ملامحها وجمال وجهها الذي ازداد صفاؤه على ضوء القنديل القريب.. رأيتها شهيةً وبعيدة المنال كالنجوم، ومع فرط حبها واستسلامها، مستحيلةً عليَّ، وعصيةً.

في الصباح التالي خرجتُ من حجرتي متأخرًا عن معتادي فوجدت جدّي جالسًا في مكانه بالأمس، ومهمومًا، سألته بتأدبٍ عما يشغل باله فأخبرني بأنه أمضى ليلته مؤرقًا مخطوف الخواطر ما بين عدة مقلقات، أولها ما سوف يتهامس به أهل الفُسطاط وجماعتنا؛ يقصد أهل السنة، بعد ذهابي مع «الحاكم» الليلة الفائتة وجلوسنا عند سفح المقطم وقتًا طويلًا من الليل.. لم أقدِّر قلق جدّي وقللتُ من أهمية هذا الأمر، ولكن ظهر لي لاحقًا أنه كان محقًّا. ففي الأسابيع التالية والشهور، كنتُ ألمح الناس في الجامع العتيق وفي الدروب يتغامزون، ويتبجَّح بعض أقراني فيقولون مستهزئين وأنا أسمع: وشابٌّ نشأ في طاعة الحاكم. ويقهقهون. ومقصودهم من ذلك السخرية مني بتغيير نص الحديث النبوي الذي أوله: «سبعة يظلهم الله بظلِّه...» فقد أرادوا إغاظتي لأنهم كانوا حانقين عليَّ بسبب رفضي استلام الشكايات لإيصالها للحاكم، وكنت أقول لهم: لا ألتقي به.. ثم ظهر لهم العكس.

وأخبرني جدّي في ذاك الصباح بأنه يخشى انقطاع نسلنا، ويريدني أن أتزوج في أقرب وقت لأنجب، ولا بأس عنده لو تعدَّدت زوجاتي. مع أنه لا يحب ذلك في العموم، ولم يفعله، ولا فعله أبي. وعندما قلتُ لأريح قلبه من بعض ما به: حاضر يا جَدّ، سأفعل كل ما تريد.. تحمَّس فجأة واعتدل في جلسته من دون أن يعتمد على منسأته، وقال بأنه يفكر في تزويجي بحفيدة صديقه المتوفى «ابن الفرات» فقد بلغه أنها تقيةٌ نقية وبلغت من عمرها الخامسة عشرة، فهي تناسبني سنًّا ومكانةً.. أردتُ مسايرته لتهدأ خواطره ويفارقه القلق، فقلت: أهي ابنةُ ابنه الفضل؟

ـ لا يا مُطيع، هي ابنة أخيه عبد الله، واسمها «نصرة».. بعد انتهاء أيام التعزية، سأرسل «تمنّي» لتستطلع حالها عن قربٍ، وتتأكد من أنها تصلح لك.

ـ لا بأس يا جدّي، لا بأس. لكن الوقت الآن كما ترى، غير مناسب للكلام في تلك الأمور، وعلينا أن نصبر.

ـ طبعًا، سوف ننتظر شهرًا أو أسبوعين. وهناك شيء آخر.

ـ خير يا جَدّ؟

ـ لابد أن نعمر الدار التي بالجيزة، ونبني خلفها في الصحراء جبانةً غير ظاهرة الموضع، لأُدفن فيها عند وفاتي.

ـ حاضر. حفظك الله وأبقاك لنا يا جدّي، فأنت السند والمعين.

ـ الله هو المعين يا مُطيع، وبه تعالى نستعين.

رغبة جدّي «خَلَف» في عمارة دارنا بالجيزة، لقيت قبولًا وحماسةً عند جدّي «أَنَس» حتى فيما يتعلق بالجبانة غير الظاهرة، وعبَّر عن رغبته أن يُقبر فيها أيضًا. أظنهما كانا يتوجسان من شيء، أو هما يقتديان بما فعله جدنا «عمرو بن العاص» تحسبًا مما قد يحدث مستقبلًا؛ ففي هذه الأمة لا يأتي المستقبل إلا بما سبق.

بعد يومين بادر جدّي بإرسال «ساويرس» ومعاونين له، ومعهم الأخشاب المناسبة، إلى الجيزة لعمل النجارة اللازمة للدار. وألحق بهم في اليوم التالي جماعةً من البنائين رفعوا السور المحيط بالدار وتوَّجوه بالسُّلَّاء؛ أعني شوك النخل. ليستعصي على الثعالب اعتلاؤه وعلى الذئاب والضباع والسراقين. على ذكر لفظة «سراقين» سألت مرة ساويرس ابن القمص، وطمأنته ليجيب بصدقٍ عن سؤالي: هل صحيح أن رؤساء الكنائس يسمون المسلمين، سرًّا وسريرةً، السراقين؟ فأجابني بأنه لا يدري، لكنه وهو صغير كان يسمعهم يقولون بدلًا من كلمة مسلمين، سراسنة.. سألته: وما معنى سراسنة؟ فابتسم خَجِلًا ثم همس: معناها سراقين.

استغرق إصلاح حال دارنا بالجيزة قرابة شهرين، دخل بعدهما الربيع، فصارت الإقامة هناك أطيب. فلما تهيأت الدار للسكنى خرجنا إليها ومعنا جداي واثنتان من خالاتي، وأولادهما، فأقاموا معنا أسبوعًا وبقينا من بعدهم حتى انقضت أشهر الربيع وأوشكت أشهر الصيف على الانتهاء. وخلال هذه الفترة التي امتدت لخمسة أشهر أو أكثر قليلًا، جاء جدّي «أَنَس» لزيارتنا مرات واستطاب الموضع

حتى إنه فكر في اقتناء دار بجوارنا، لكن جدّي «خَلَف» أقنعه بعدم جدوى فكرته: هذه الدار رحبة، وأنت يا ابن عمي مرحَّبٌ بك في أيّ وقت، بل أنت صاحب دار. ردّ عليه جدّي «أنَس» بقوله وهو يضحك:

ـ لكني أريد أن أكون جارك في المدفن حين أموت.

ـ لا تقلق. مُت قبلي يا «أنَس» ولسوف أدفنك هنا بنفسي. ها ها ها.

كانت تلك واحدة من المرات القليلة التي رأيت فيها جدّي «خَلَف» يمزح ويتكلم بطريف القول. كان مرتاحًا، وأحب الإقامة بالجيزة حيث الهواء ألطف ورطوبة الأجواء أقل، والازدحام منعدمٌ والصخب. وخلال شهور إقامتنا هناك جرت بعض الوقائع وكانت تصلنا بعض الأخبار. فمن الوقائع، أن جماعة من بني فزارة جاءوا لزيارتنا في الجيزة في منتصف الربيع، وحضر الزيارة جدّي «أنَس». لم أكن أدري قبل زيارتهم سببها، وعرفت أثناءها أنهم جاءوا الخطبة «تمنّي» لواحدٍ منهم، رث الهيئة، يدل قبح منظره على سوء مخبره. التزمتُ الصمت طيلة الجلسة، مع أن قلبي كان يتقلى من فرط القلق والغيظ، لا سيما أن جدّي «أنَس» بدا مرحبًا بالخطبة. وحين قال لهم جدّي «خَلَف» إنه سوف يسأل العروس ويخبرهم بعد يومين برأيها، تفاصح أحدهم وقال إن التي تُستأذن هي الثيِّب، أما البِكرُ فأمرها بيد وليِّها ولا يجوز شرعًا سؤالها. فاندفعت بلا تروٍّ وصحتُ فيه: جدّي أعلم منك بما يجوز في الشرع وما لا يجوز، فلا تُملي عليه ما يفعله.. ردّ عليَّ الرجل مستهزئَ النظرة بقوله: أهكذا تُحدِّثون ضيوفكم! فقلتُ من فوري: الضيفُ له القِرَى وعليه التأدب.. وانصرفتُ من مجلسهم إلى سطح الدار، ولم أتناول معهم طعام الغداء.

بعد المغرب وفور انصراف الثقلاء الخاطبين، نادى جدّي «خَلَف» على عمتي «تمنّي» ونادت هي عليَّ فنزلت إليهما، ولما سألها جدّي «أنَس» عن رأيها في الخاطب. قالت بحسم إنها لا تريد الزواج، فقد تأخر عليها وقريناتها تزوجن منذ عشر سنوات وكبر اليوم أولادهن وبناتهن، وحتى لو أرادت الزواج فلن تقبل بفزاريٍّ يعيش في خرابة. تقصد أن الناحية التي يسكنها الفزاريون تسمى «خرابة فَزَارة» وهي تبعد عن الفُسطاط ساعتَي سير أو ثلاثًا.

سكت جدّي وابتهج قلبي، ولم نعاود من بعد الكلام عن هذا الخاطب الفزاري السمج.. وقبل تلك الخطبة الفاشلة، بشهر، طلب جدّي «خَلَف» من عمتي «تمنّي» أن ترافق جدّي «أنَس» وعمَّتَيَّ، وهم راجعون إلى ديارهم بعد قضائهم عدة أيام معنا، فتذهب إلى دارنا بأطراف الفُسطاط لإحضار بعض الحاجات من هناك، وفي الصباح تزور دار ابن الفرات رحمه الله، كي تستطلع حال حفيدته التي يفكر في تزويجي بها. ذهبتْ، وذهبتُ إلى الفسطاط في اليوم التالي صباحًا لأعود بها مساءً. فور دخولي عليها الدار سألتها عما وجدته في العروس التي لن أتزوَّجها، فابتسمتْ وهي تقول إنها ستخبر عمها، تقصد جدّي «خَلَف» فهو الذي أرسلها وليس أنا. ألححتُ عليها، فأصرَّت على رأيها وهي تنظر نحوي بعينٍ باسمةٍ..ساحرة الدلال، ومُربكة. وقبيل الغروب خرجنا من دارنا القديمة إلى الجديدة، ومعنا «طُريزة» الخادمة وأحد عبيد جدّي «أنس» المولَّدين، فهبطنا عبر الطريق النازل من سفح المقطم إلى «عمل تحت» مرورًا بساحة الجامع العتيق، ثم عبرنا الجسر الواصل بين الفُسطاط والجزيرة ومنها إلى أرض الجيزة الممتدة على الضفة الأخرى للنهر. ومن هناك

عرجنا إلى جهة الشمال الغربي ويسرنا على ضوء القمر والنجوم، حتى بلغنا الربوة التي تقع فوقها دارنا ومن خلفها تمتد الصحراء اللامحدودة.. وجدنا جدّي مترقّبًا، وينتظر نتيجة الاستطلاع، وعلى طاولة طعام العشاء أثلجت محبوبتي صدري بقولها له: البنتُ مسكينةٌ يا عمي، نحُولها مفرط ووجهها شديدُ الاصفرار، أراها مريضةً، ولا تصلح للزواج والإنجاب.

رفَّ قلبي في صدري من فرط الفرح، وهزَّ جدّي رأسه بهدوء وانتظر لحظةً قبل أن يقول وهو يقوم إلى فراشه: نجد غيرها إن شاء الله، تصبحون على خير.. ساد الصمت حينًا قبل أن تنظر محبوبتي نحوي بطرف عينها، وتضحك بحياء العذراوات ثم تهمُّ مسرعة إلى حجرتها وتتركني حائرًا. كنتُ آنذاك قد تخطيتُ من عمري السادسة عشرة، وكانت هي في الثالثة والعشرين من عمرها، لكنها تبدو لي في السادسة عشرة. وقد أشعرني فشل الخطبتين أو بالأحرى المحاولتينِ، بأن الأقدار تسوقني نحوها وتسوقها إليَّ.. والأقدارُ جميلةٌ ولا رادَّ لها.

أما أجمل الأيام في شهور إقامتنا الأولى بالجيزة، فهو ذاك اليوم الرائق البديع الذي جاء في أواخر الخريف وقبل ابتداء الشتاء، وقد أرَّختُه في ذاكرتي وحفرت كل تفاصيله. كان يوم أربعاء، وفي الليلة التي سبقته قال لي جدّي إن «تمنّي» تريد أن ترى البرابي القريبة المطلة فيها رءوس الأهرامات من تحت الرمال، فاذهب معها في الصباح وخذا معكما العبد «سعيد» وعودا عصرًا قبل هبوط الظلام.

بعد أن نام جدّي اتفقنا على الخروج فجرًا على بغلتين، وأن ترتدي

«تمنّي» ملابس الرجال لتتخفى فلا تلفت إلينا الأنظار، وأن نتقلد سيفين ونجعل في يد العبد حربةً، لتكتمل بذلك الهيبة ونستأمن من المضايقة.. خرجنا من الدار مع أول أضواء النهار، وسِرنا سويعةً والعبد يهرول خلفنا حتى بلغنا الهضبة الممتدة في الأفق، ومن بين رمالها وأحجار آثارها الكبار المتناثرة على امتداد النظر، تطل رءوسُ الأهرامات وأنصافها العلوية، ومن حولها تتناثر أحجارٌ كبار وحجراتٌ مطمورةُ الحيطان وسراديبُ ومسارب.. الأهرامات المتناثرة فوق الهضبة العريضة وعند منحدراتها، متفاوتة الحجم، وعددها يزيد على العشرين هرمًا. منها ما هو أصغر حجمًا وأحجاره غير متماسكة، ومنها كبيرٌ مُستحصفُ البنيان ملتصقُ القطع الحجرية التي يبلغ ضلع الواحدة منها ما يقرب من قامة رجل، وأكبرها هرمان. كلاهما هائلُ الحجم ومغطًّى بالملاط المنقوش عليه رموزٌ غير مقروءةٍ يسميها الناس لغة الطير، وقاعدة كل منهما مدفونةٌ تحت الرمال. وعلى مسافة قريبةٍ منهما، من الجهة الشرقية المواجهة لمجرى نهر النيل، يطل من الرمل رأسُ التمثال العجيب المسمى بلهيب، وبعض العوام يسمونه أبا الهول. مع أنه لا هول فيه إلا من حيث حجمه الكبير، أما ملامحه فهي بهيةٌ هادئةٌ، تميل إلى التبسُّم بوقار الأقوياء. ولأن ما تحت رأسه والعنق تغمره الرمال، فلا أحد يعرف الهيئة الكاملة لهذا التمثال. ويقال إنه كان صنمًا معبودًا عند القدماء، لكن ذلك يصعب قبوله. والأرجح عندي أنهم كانوا يعبدون الشمس الساطعة، ولذلك رسموها كثيرًا في أعالي المباني الضخمة والآثار المتناثرة على طول الضفة الغربية لنهر النيل. وبعضها القليل في الضفة الشرقية، كهذا التمثال المؤنث المماثل لأبي الهول، الذي يسميه بعضُ الناس «سَرِية أبي الهول» وبعضهم

الآخر: امرأة الفرعون. وهو في الجهة الأخرى من النيل، بالناحية البحرية من القاهرة، أقصد الشمالية. وكلا التمثالين ينظر نحو الآخر، كأنهما يمثلان عاشقين حال بينهما النيلُ فاشتدَّ فيهما الاشتياقُ واتصل التوقُ. والهرم الأكبر المغطى بالنقوش غير المقروءة، هو الذي نقبوه قبل قرنين من الزمان، من عند قاعدته الظاهرة فوق الرمال، حين جاء الخليفة العباسي «المأمون» لمصر، لقمع ثورات أهلها ونهب الثروات المدفونة بأرضها. ويقال إنه لم يعثر بداخله إلا على مقدار من الذهب يعادل ما تم إنفاقه على النقب. وهذا قولٌ يصعب عندي تصديقه.

بعد الضحى وقبل الظهر قالت محبوبتي إنها نسيت صرَّة الطعام التي فيها غداؤنا، فأرسلنا «سعيد» على بغلة لإحضارها وجلسنا ننتظره في موضع آمنٍ لطيفِ الهواء، بين شواهق الأحجار والحجرات العالية. هل نسيتْ الغداء حقًّا، أم أنها أرادت أن ننفرد في هذا المكان السحري المفعم بالعجائب؟ سألتها فلم تجبني، واقتربتُ منها وأنا أحادثها بخفوتٍ قاصدًا أن أمسَّ يدها، فتزحزحت عني وسحبت من باطن يدي أصابعها، ونهرتني وهي تبتسم بقولها: تحشَّم يا مُطيع.

ـ لماذا تهربين مني! ألا تعرفين أنكِ في خاتمة المطاف، لي، وأنا لكِ.

ـ أنا لا أعرف أي شيء.

عاد «سعيد» بسرعة. والظاهر أنه ذهب وآب بالبغلة وهي تجري، وقد أخبرنا فور وصوله بأن جدّي يريد عودتنا للغداء بالدار، ولا يأمن بقاءنا في الصحراء أكثر من ذلك. فلم نجد بُدًّا من الإسراع بالعودة. مساءً، على سطح الدار حيث الهواء المنعش بلسعات البرد، سألتني

عن سبب اقترابي منها حين انفردنا بين الأحجار الباقية من الأمم الخالية، وما الذي كنت أريده؟ فأجبتها بجرأة أهل الابتداء: كنت أريد حُضنكِ وقُبلةً طويلة.. فعقدت حاجبيها وهي تشيح عني بوجهها، وقالت مجددًا بلا غضب: تحشَّم يا مُطيع.

مع ابتداء شتاء العام الثاني بعد التسعين وثلاثمائة، عدنا إلى دارنا بالفسطاط وعاد جدّي «خَلَف» إلى الأحوال التي لازمته عقب وفاة «ابن الفرات» وانزاحت عنه في فترة إقامتنا بالجيزة. وعاوده الصمت الطويلُ في معظم الأوقات، والإفراط في استدعاء الذكريات. وصار أكثر ميلًا إلى الاعتزال بالدار والعزوف عن الخروج، حتى للصلوات الجامعة، اجتنابًا لملاقاة الناس وزهدًا في التحدُّث معهم. لكن حاله كان ينصلح مؤقتًا مع جدّي «أَنَس» المواظب على زيارتنا كل أسبوع، فقد كان يأنس إليه ويميل إلى محادثته ومجالسته.. وفي منتصف الشتاء أرسلني مع «ساويرس» والبنائين لعمل حجرتين على سطح الدار بالجيزة، وصُنع الأثاث اللازم لهما، تمهيدًا لسكناي فيهما عندما أتزوج قريبًا، حسبما قال. وقد استغرق هذا العمل عدة أسابيع، حتى اقترب موعد الربيع فانتقلنا جميعًا للإقامة مجددًا بالجيزة، وصرتُ أنام بالليل منفردًا فوق السطح.. ولاحظت أن محبوبتي صارت تتحاشى الصعود إلى سطح الدار، ولم تعد تلازمني مساءً وتحادثني طويلًا، مثلما كان سابقًا. عاتبتها على ذلك في ليلةٍ، بعدما نام جدّي والخادمتان وخرج العبدان إلى حوشهما الملحق بالدار. فقالت إنها تتجنَّب القرب مني إلى أن أعبر فترة مراهقتي، وأكف عن نوبات الجموح.

غاظني كلامها فقلت لها حانقًا إنني على أعتاب السابعة عشرة من عمري، وما عدتُ صبيًّا يراهق البلوغ، وها هي لحيتي قد غطَّت

جانبَي وجهي. فضحكتْ بخفوتٍ وهي تستر فمها بيمناها، وقامتْ لتنام وتركتني قاعدًا وحدي بالرحبة. في اليوم التالي أثناء الغداء، قال جدّي إنه وجد لي فتاةً تصلح للزواج. فقلتُ له بلسان التوسل: أرجوك يا جدّ، لا أريد الزواج الآن، وليتك تُرجئ هذا الأمر إلى العام المقبل. قال: اسمعني يا مُطيع.. فقاطعته بقولي: أرجوك يا جدّي، أرجوك. فسكت، وعلت وجهه علامات الامتعاض والغضب، ولم يراجعني قط في هٰذا الأمر. أتراه كان يدرك على نحوٍ ما، أنه لن يعيش إلى العام المقبل؟!

في ذاك اليوم بعد العشاء، كنت جالسًا عند زاوية السطح وحدي أتأمل اتساع السماء وصفو اسودادها، وامتداد الصحراء الفضية اللامعة رمالها على ضوء النجوم. كان القمر في المحاق، والكون المحيط في سُبات. وفي وسط ذاك السكون وتلك السكينة، صعدتْ محبوبتي المستحيلة إلى السطح، وهي تحمل لي بإحدى يديها إبريقًا فيه عصير الليمون المحلَّى بالسكر، وباليد الأخرى شمعةً لا أثر لنورها الهزيل. جلست قبالتي ومدَّتْ نحوي المشروب فامتنعتُ عن تناوله منها، استحلفت عليَّ برحمة الموتى أن أشرب منه. فقلت: لا أريد. قالت: اشرب منه قليلًا، جبرًا لخاطري.

أخذت من يدها الإبريق وارتشفتُ منه شيئًا، وأوشكت أن أسألها بحنقٍ عما تريد، لكنها بادرتني بقولها إنني ساعة الغداء قسوتُ بغير داعٍ على عمِّها. تقصد جدّي. وأردفتْ بصوت أخفض، إن ذلك لا يصح مني ولا يجوز. قلتُ وأنا أكتم غيظي، إن الذي لا يصح هو دفعي للزواج من فتاة لا أعرفها، ولا أريدها.

ـ وإيش تريد؟

ـ أنتِ.

ـ يا سبحان الله. افهمني يا مُطيع، افهمني.

تلفّتتْ بنظرها نحو أنحاء السطح وزواياه، وبدا أنها حائرةً. ومن ون داعٍ نزلت إلى حجرتها وأحضرت قنديلًا أوقدت فتيلته، ثم ضعته على سور السطح قريبًا منا. أظنها كانت تستمهل، أو تتشاغل نشيء حتى تستجمع الحجج وترد عليَّ.. تنهدت بحرقة قبل أن تقول لي وقد اكتسى وجهها بالجدية، إنها لن تناسبني بأي حالٍ من الأحوال. فهي تشعرُ بي كأنني ابنها الذي لم تنجبه من بطنها، لكنني ربتُ في حضنها مع مرور الأيام فصرتُ عندها كوليدها. وزواجي حسبما قالت، هو شأنٌ لا يخصُّني وحدي، وإنما يخص عائلتنا التي تكاد ينقطع نسلُها. فجدّي «خَلَف» لم يعدِّد الزوجات ولم يجلب إلى داره من الجواري والإماء، ما يمكن أن تكون أم ولد. وجدّي «أنس» لم ينجب إلا بنات، ولم يشأ أن يغضب زوجته المتيم بها، بالاقتران بأخرى. وأبي وأمي فُقدا منذ زمنٍ، ولا يُتوقع أن يعودا حتى لو كانا الآن على قيد الحياة. وجداي كبرت سنهما، وكلاهما مريضٌ ويقترب من حواف الموت. فلم يبق غيري ليستمر به نسلُ أسرتنا ويزداد عددنا، فلا يطمع فينا الناس ويستخفون. وقد يتمرد علينا هؤلاء العبيد، إذا استخفوا بنا وأستأمنوا من العقاب. وربنا يقول إن المال والبنون زينة الحياة، ولدينا من المال كثير ولا ينقصنا إلا البنون.

ـ البنون! تزوجي أنتِ وانجبي.

ـ أنجبهم لمن؟ للفزاريين الذين جاءوا لخطبتي السنة الماضية!

ـ أنجبيهم مني، وسأكون لهم خير أبٍ، ولكِ خير زوج.

ـ كيف يا مُطيع.. كيف؟

قلت لها إنني لن أقترن بغيرها ما حييتُ، ولن أحب غيرها. فمسحت بكفيها على رأسها وقالت بأسى إنني أناديها «عمتي» فكيف يمكن لإنسان أن يتزوَّج من عمته. قلتُ إنها ليست بالفعل عمتي، لكنني أناديها بذلك منذ صغري، توقيرًا لها ومحبة فيها. وهي تجوز لي شرعًا، ولن يعترض جدّي على زواجنا وإن كان قد يندهش منه بعض الشيء في البداية، ثم يعتاده. وها هي «زهرة» جارتنا بالفسطاط متزوجةٌ من ابن عم أبيها «محمود بن عمر» منذ عشرين سنة، وأنجبتْ منه خمسة بنين وثلاث بنات.. اعترضتْ عليَّ بأن معكوس الحال ممكن، وبأنها كبرت في السن ولن تستطيع الإنجاب بعدما بلغت من عمرها الخامسة والعشرين. فأوشكتُ أن أردَّ احتجاجها عليَّ، بأن المعكوس يصح إذا صح أصله، وبأنه لا يوجد في الشريعة ما يمنع زواج المسلم من ابنة عم أمه أو أبيه، وبأنها أتمت من عمرها ثلاثًا وعشرين سنة فقط. وهي من أصول قرشية، ومعروف أن العربيات يحبلن ويلدن بعد الأربعين من أعمارهن، والقرشيات بعد الخمسين.. كدتُ أقول لها كل ذلك، لولا أنني سمعت صوتًا مريبًا يقترب من دارنا، وأصوات أقدام تدوس الحصى والرمال على مسافة ليست بعيدة عنا. أشرتُ إليها بالصمت، وأصختُ سمعي فوجدتُ الأصوات تقترب ويقترن فيها الهتيتُ والحفيف، فانتفضت واقفًا وقد ظننتُ أنه قطيعُ ضباعٍ أو ذئاب، أو جماعةٌ من رعاع العيَّارين يتسللون للسطو على دارنا.

أسرعتُ إلى غرفتي فسللتُ سيفي الدمشقي من غمده، وأخذت من خلف الباب رمحًا قصيرًا، وقلتُ لمحيَّرتي الحائرة ألا توقظ جدّي من نومه حتى نستوضح الأمر. هبطتُ الدرج مسرعًا وخرجتُ من باب الدار لأوقظ العبدين «سعيد» و«برقوق» همسًا، فهبا من نومهما وتناولا حديدتين حادتَي الحواف ورمحين طويلين.. وقفنا أمام باب دارنا صفًّا، وقد اقترب صوتُ القادمين فاتضح أنهم جماعة من الراكبين والراجلين. ومن مسافة لا هي بالقريبة ولا بالبعيدة، صاح أحدهم بصوتٍ جهير: السلام عليكم من أمير المؤمنين سيدنا ومولانا الحاكم بأمر الله.

منصورا ما الذي جاء به في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟.. لما اقترب وجدته يركب بغلةً غير مسرَّجة ويرتدي جلبابًا من الكتّان، وعلى رأسه فوطة مثل تلك التي يتعمَّم بها عوام الناس. ورأيتُ إلى جواره الأمير عز المُلك المُسبِّحي راكبًا، ومتأنِّقًا كمعتاده، ومن خلفهم ما يقرب من عشرين رجلًا راجلين، يقفون على مقربة في نصف دائرة، غير مُعمَّمين بالخوذات ولا يرتدون لباس الحرس أو الجند.. رددتُ السلام وحاولتُ أن أرحب بالقدوم المريب، بقدر ما استطعت من القول المتلعثم، فأدرك «الحاكم» أن قلبي مضطرب وبادرني بقوله إنهم كانوا يعبرون بالقرب من هنا، وحين رأى من بعيدٍ نور القنديل عرف أنني سهران، وعنَّ له أن يمر عليَّ ويدعوني لصحبتهم. أظهرتُ فرحي لرؤيته وحيّيتُ الأمير المُسبِّحي، وصرفت من حولي العبدين وأعطيتهما ما كان بيديَّ من سلاح..

أشار «الحاكم» إلى بوابة دارنا، وسألني إن كانت الواقفة هناك «تمنّي»؟.. لم أكن أعرف أنها واقفة عند الباب الموارب، مشدوهةً،

قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فحيَّاها بصوته الجهير قائلًا: السلام عليكِ يا أختاه، كوني بحفظ الله ورعايته، وأبلغي تحيتي إلى الشيخ «خَلَف» وأخبريه أن مُطيع معنا في الجوار من هنا، ولن يتأخر عليكم في العودة، فسوف نعيده إليكم قبيل شروق الشمس، ههه، هيا يا مُطيع اركب معنا.

جاء حارسٌ من خلفهم ببغلةٍ ركبتها وسرتُ كالمسحور معهما، وعلى إثرنا تحرك الركب الخفي.. سألته إلى أين تذهب يا أمير المؤمنين؟ فقال: إلى هضبة الأهرامات، لابد أنك ذهبت إليها مراتٍ، فهي قريبة من هنا. قلتُ: نعم زرتها.

في موضع يعرفه، جلسنا على أحجارٍ قديمةٍ مكعَّبة وأوقد لنا حُراسه نارًا، ثم تباعدوا عنا حتى ابتلعتهم العتمة. سألتُ «الحاكم» مستفهمًا إن كان قد اعتاد المجيء إلى هذا المكان، فأجاب بالإيجاب، وسألته إن كان من المأمون انفراده على هذا النحو في هذه الصحراء، وهو يعلم أن أعداءه يتربصون به؟ فضحك وهو يقول إن المواضع تكون آمنة، حين يتردَّد عليها. ولم يوضِّح مقصده. تطوع «المُسبِّحي» بالإيضاح الذي ملخصه أن أمير المؤمنين خشي انتشار الشطار والعيارين حول القاهرة ومصر، يقصد الفُسطاط وما التحم بها من القطائع والعسكر، ولم يشأ أن يختل بسببهم الأمنُ مثلما حدث في بغداد عندما ازداد عدد هؤلاء الرعاع والسراقين، فصاروا يقتحمون الدور والمنازل بلا خوفٍ أو خشيةٍ من عقاب وملاحقة.

قطع «الحاكم» كلامه بأن سألني إن كنت قد قرأت كتاب أبي عمرو الجاحظ «حيل اللصوص» فأجبتُ بأن عندي نسخة منه، جيدة، لكنني

لم أقرأه بعد. وعاد «المُسبِّحي» للبيان الذي تطوع به، والتبيين، فقال إن أمير المؤمنين ابتدأ أولًا بالمرور ليلًا بين الدور والميادين، ودعا الناس إلى إقامة الزينة وإضاءة الدروب بالشموع، ليدفع عن البلاد بالنور الظلام والظالمين. هكذا قال. ثم صار يرتقي المقطم في الليل ليدفع من هناك اللصوص المتربِّصين، فلا يتخذوا منه مأوى وقاعدةً ينزلون منها لنهب بيوت الناس وسلب الآمنين بمنازلهم. وهو يرسل قبل وصوله العسس والجند المتخفِّين ليفتحوا أمامه السبل، ويستأمنوا تمامًا من المباغتة قبل جولانه في المواضع، ويتبعه من بعيد عديدٌ من الحرس والشُّرطة.

مجددًا، قطع «الحاكم» حديث المُسبِّحي بأن قال له: أتعرف يا أمير، أن جده «ابن العاص» هو الذي أدخل إلى مصر الشُّرَط، وكان أول مَنْ سعى بين يديه الطرَّادون لإفساح الطريق.. أردتُ أن أبتعد بحديثنا عن جدّي، مقدِّرًا أن كليهما لا يحبه بحكم كونهما من الشيعة، فقلت مخاطبًا منصور: ولكن يا أمير المؤمنين، ماذا سيفعل هؤلاء الجند القلائل الآن إذا تعرضت لهجوم لا قدَّر الله؟ فقال: أنت رأيت منهم يا مُطيع عشرين، ولكن من وراء العشرين خمسون، ومن وراء الخمسين مائةٌ وخمسون، وكلهم من أفضل الجنود والمقاتلة.. واستأذن المُسبِّحي من «الحاكم» ليخبرني بأمرٍ كان خفيًّا عني، قال: يعلم الله أن مولانا الحاكم بأمر الله يحبك، وحين أخبره الجواسيسُ أنكم جئتم العام الماضي، ثم عدتم الآن للسكنى بهذه الدار القاصية عن بقية الدور والمنازل، جعل لهذه الناحية من الشرطة شحنةً من خيرة الجند، وحراسًا يتخفون فلا يظهرون إلا إذا حاق بكم خطرٌ أو اقترب منكم شرٌّ، وذلك خشية منه أن يصيبك مكروه..

وللمرة الثالثة، قطع الحاكم كلام المُسبِّحي بأن سألني وهو يبتسم إن كنت لا أزال أحب ابنة عم أبي «تمنّي» وأتمنى الاقتران بها، فقلت من فوري: نعم، لكنها لا ترضى بذلك، بحجة أنني عندها مثل ابنها، والرجال لا يتزوجون أمهاتهم.. ضحك الحاكم حتى قهقه عاليًا، مع أن ذلك ليس مما اعتاد، وقال لي وهو يغالب ضحكاته: قلتُ لك عليك بالأمير المُسبِّحي، فهو عليمٌ بأحوال النساء وطرائق العشق، وسوف ينصحك بما يفيدك.

شعرت بحرج شديد، لكنني تخلصت منه رويدًا حين حادثني «المُسبِّحي» بادئًا بسؤالي: هي أسنُّ منك بكم سنة؟ فقلت، ليس بكثير، ربما تكبرني بستة أعوام.. انفجر الحاكمُ ضاحكًا مرة ثانية، وقال لي مداعبًا: لا تكذب يا مُطيع، لا تكذب، أنت قلت لي ونحن صغار إنها أكبر منك بسبع سنين.. قلتُ: سنة واحدة لن تُحدث فرقًا. فانفجر ضحكه مرةً ثالثة، وحين رآني محرجًا قال ليصرف عني الحرج: والله يا مُطيع، لو كان بيدي أي شيء يمكن أن يعينك على ما تعانيه من العشق، لما تأخرت عنك، لكن القلوب بين أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء.

ـ هي تحبني، لكنها تريدني أن أتزوج بغيرها وأنجب كثيرًا، فلا ينقطع نسل أسرتنا التي قل عددها وكاد ينعدم.

ـ معها الحق في ذلك، ولكن ما المانع من أن تتزوَّجها وتتزوج غيرها، فتنجب أكثر. انصحه يا أمير.

سألني الأمير «المُسبِّحي» عن بعض أموري معها فأخبرته، فتفكر برهةً ثم قال: ربما كان من المفيد إثارة غيرتها عليك، وأرى أن تتزوج

ونكثر أمامها من التغزل في زوجتك، فلا شيء يثير النساء مثل النساء، جرِّب ذلك يا مُطيع ولن تندم.. قلت لأختم الكلام كي ينصرف إلى وجهةٍ أخرى: سنرى إن شاء الله ما يكون، شكرًا للنصيحة يا أمير.

«مَنْ منكما ينشدني شعرًا بليغًا يناسب هذه الأمسية الرائقة».. قال الحاكم ذلك، ثم نظر نحو المُسبِّحي فأنشده قصيدة المتنبي في هجاء «كافور الإخشيدي» يوم دخل العيد، وعندما انتهى من إلقائها بشكل أنيق ولغةٍ ناصعة، عقَّب «الحاكم» بقوله: هذا والله شاعر مفوَّه، وصفيق، لكنه يستحق التوقير لبلاغته، ولو كان اليوم حيًّا لدعوته للعودة إلى مصر ووصلته بما يرضيه.. ثم التفت نحوي واستنشدني، فألقيتُ على مسامعهما أبيات معلقة «زهير» فعلَّق عليها الحاكم بقوله: هذا رجلٌ حكيم، عميق الفكرة والعبارات والعِبْرات، ولا عجب أن يعد من فحول الشعراء.. كان يشير بذلك إلى كتاب ابن سلام الجُمَحي «طبقات فحول الشعراء» وكنا قد درسناه معًا في الصبا على يد واحدٍ من أفضل الأستاذين.

بعد هدأةٍ لم تطل قال «الحاكم» كأنه يبوح بأسراره، إن هذه الهضبة التي تطل منها رءوس الأهرام، فيها من الخفايا كثيرٌ ومن الطِّلَّسمات: فقد أتيتُ إلى هنا مرارًا بالليل فلم أجد بين الأحجار حيةً تسعى ولا عقربًا تدب، ولم ير غيري شيئًا من تلك المؤذيات هنا. وكلما صَلَّيتُ الفجر بين هذه الأهرامات، أشعر بهمهمات تهمس في صدري بالأسرار والخفايا. ولو وجدت طريقة مناسبة، فسوف أتسلق الهرم الأكبر، لأشهد الشروق من فوق قمته المدببة، عسيرة المرتقى. لكن هذا الملاط الأحمر أملس، حادُّ الانحدار، شديدُ الإزلاق..

«أمير المؤمنين لا يزال يهوى التسلق».. قلتُ ذلك وأنا مبتسمٌ، فضحك منصور وقال ممازحًا: مَنْ طلب العلا صعد العوالي.. قاصدًا بذلك معارضة البيت الشعري المشهور، المنسوب إلى الإمام الشافعي، رحمه الله. وقد استغربتُ أن يُعنى «الحاكم» بالإشارة إلى واحدٍ من أئمة السُّنة، ثم انتبهتُ إلى أن الإمام الشافعي كان يميل إلى آل البيت، حتى إن بعض الجهال اتهموه بالتشيع.

انتبهتُ من شرودي على سؤال «الحاكم» لي: وأنت يا مُطيع، ماذا تقول في كيفية بناء هذه الأهرامات، ومن أين جلب لها القدماء تلك الأحجار الكبار؟.. قلتُ إنني تفكرت كثيرًا في طريقة بنائها، فلم أهتدِ إلى رأيٍ أطمئن إليه. أما الأحجار فأعتقدُ، وقد أكون مخطئًا أو مصيبًا، أنها قُدت من جبل المقطم، ولهذا تقطَّم. وكانوا يقطعونها من حوافه طيلة العام، وحين يأتي الفيضان ويقترب الماء ينقلونها من الجهة الشرقية إلى هنا، على ألواحٍ كبار ودُسر، ثم يسحبونها على جذوع الأشجار القوية، صادقة الاستدارة، فيصعدون بها إلى موضع البناء.

ـ العجيب، أن المأمون بن هارون حين نقب الهرم الأكبر، فلم يجد شيئًا بداخله إلا جثمانًا متهرئ الأكفان.

ـ قيل يا أمير المؤمنين، إنه وجد فيه أيضًا ياقوتة كبيرة الحجم، ونزرًا قليلًا من الذهب.

قبل الفجر، قام الحاكم وأجال نظره في الأنحاء المحيطة، ثم قال للأمير «المُسبِّحي» شيئًا لم أفهمه: هذا الموضع المشحون بالحكمة الخالدة، البعيد عن الصخب، هو أنسب الأماكن لاجتماع إخوان

الصفا وخلان الوفا.. هزَّ الأمير رأسه موافقًا، وبعد هنيهةٍ صامتةٍ استأذنتُ في العودة للدار لأن جدّي يصحو للصلاة في هذا الوقت، وإذا لم يجدني فسوف يغمره القلق. فأذن لي الحاكم واستدعى حارسين ليتبعاني وبغلةً لأركبها، شكرته فقال إن هذه البغلة هديةٌ لي، وغدًا سوف يرسل هدية أخرى. واقترب من أذني وقال هامسًا: لعل محبوبتك تعيد النظر. لم أفهم عبارته الأخيرة، إلا عندما جاءني من القصر عصر اليوم التالي، صندوقٌ كبير فيه كثير من الثياب الفاخرة، بديعة الصنع.. وبالفعل، كادت «تمنّي» تطير من فرط الفرح بي حين ارتديتها تباعًا، ولم يكف جدّي خلال ذلك عن ترديد: ما شاء الله، ما شاء الله.

بعد ذاك اليوم بيومين، وفي الليلة التي يسفر صباحها عن يوم الأربعاء الموافق للسادس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وكان القمر في التربيع الأول، جلستُ على سطح الدار أمام غرفتي هادئ الخواطر، أقرأ على ضوء القنديل كتاب «القطوع المخروطية» للحكيم القديم أبولونيوس، المسمى عند بعض الناس «بلنياس».. وما كدتُ أنتقل من كلام المؤلف عن القطع المكافئ، إلى كلامه عن القطع الزائد، حتى وجدت فوق رأسي «تمنّي» وبيدها طبق فيه بلحٌ جاف وعنقودُ عنب. وضعت الطبق فوق طاولتي وهي تقول إنها ستبقى جالسةً بوسط الدرج، لأناديَ عليها إذا احتجت إلى شيء.

طويتُ الكتاب وطلبتُ منها الجلوس قليلًا، فجلستْ على مقربةٍ وهي تبدو مهمومة. سألتها عما يشغلها فقالت بانكسار إن عمها مريض، تقصد جدّي خَلَف، وهي تخشى أن تشتد عليه علّته. طمأنتها بإخبارها بأنني سأذهب إلى القاهرة في النهار، لإحضار

الطبيب «ابن أبي الجود» فهو أنبغ تلامذة ابن المقشّر، وشهد له الجميع بالمهارة، وسوف يصف لجدي أصلح الأدوية. أومأتْ برأسها الجميل مستسلمة، وهمّت بمفارقتي فأمسكتُ يدها لأبقيها قليلًا، فعقدت حاجبيها العريضين الفاتنين ونظرت نحوي بحدةٍ رحيمةٍ وهي تسألني مستغربةً: ماذا بك يا مُطيع؟

لم أجد بُدًّا من الاقتحام بإقدام، مجددًا، سالكًا إليها سبيلًا آخر. لعله يُجدي. استجمعتُ ذاتي وتحدثتُ بتؤدةٍ قائلًا لها إن جدّي يعصف بقلبه القلق، عليَّ وعليها، وهو يتحسَّب لما يمكن أن تفعل بنا الأيامُ من بعده. هو لم يبح لي بذلك صراحةً، لكنني ألمحه في نبرته ونظراته. وإذا تزوجنا بإذن الله قريبًا، فسوف يطمئن ويطرد عنه القلق، وينصلح حال صحته.. نظرت نحوي بطرف عينيها السوداوين الساحرتين، ورفَّت رموشها الكحيلة اللامعة قبل أن تقول:

ـ افهمني يا مُطيع، ولا ترهق قلبي. لن أوافقك على ما تريد، لأنني لا أستطيعه. كيف سأكون امرأتك، وأنا أستحي أن ينكشف شعري أمامك، فكيف سأتعرَّى لك كزوجة!

ـ لا تفعلي ذلك، ولن أطلبه منكِ أبدًا.

ـ فكيف يمكن...

ـ لا أريد إلا النوم كل ليلةٍ في حضنك، ولو في عتمةٍ تامة.

ـ يا مُطيع، العتمة والأحضان لا يكفيان لإنجاب طفل، وهذا البيت يحتاج ذريةً تحفظه من الزوال.

أشاحت عني بوجهها لتنظر في الظلام البعيد، وبدا عليها الأسى

والانهزام وهي تقول لي بصوتٍ خافتٍ، إنها ستجد لي زوجةً منجبة... قاطعتها، وقطعتُ عليها سُبُل التهرب والتعلل، بقولي إنني لن أتزوج بغيرها من النساء، لأنها المرأة الوحيدة التي أحبها منذ الصغر وأشتهيها.. «تشتهيني!» قالت ذلك بنبرةٍ متبرِّمةٍ وهي تقوم واقفةً وتأخذني من يدي بيدٍ، وبالأخرى تحمل القنديل: تعال معي يا مُطيع.. قمت معها ودخلتُ خلفها غرفتي، فأغلقت علينا الباب بعدما علقت القنديل على مشجبه وأعلت الفتيلة فازداد الضوء. ما هذا الذي تفعله! وقفتْ بوسط الغرفة، وأنا جالسٌ على طرف سريري أنظر إليها مشدوهًا، وأترقب ما ستقوم به. أزاحت بيدها اليمنى ستر شعرها فسقط على الأرض، ورفعت عن جسمها ثوبيها وألقت بهما معًا إلى طرف سريري. وعاريةً تمامًا وقفت قبالتي وقالت: أهذا ما تريد؟

لوهلةٍ من ذهول، تسمَّرت عيناي عند ملتقى ساقيها، الكثّ. ثم استفقتُ بسرعةٍ فولَّيتُ وجهي إلى الجهة الأخرى، وقلتُ برجفة المصدوم: إيش هذا يا عمتي.. إيش هذا؟ فأجابتني بحرقةٍ وحسرة: مالك يا مُطيع، انظر إلى ما تشتهيه، انظر إليه وخذ منه ما تريد!

ـ حرامٌ عليكِ.

ـ وحرامٌ عليكَ تعذيبي.

انفجرت دموعها فاستبقتُ الباب مهرولًا وفتحته لأهرب من هذا الهول، وعند عبوري سمعتُ نشيجها فنظرت خلفي فكانت متكومةً على الأرض، وخصلاتُ شعرها تغطي عري ظهرها.. أردتُ لوهلةٍ أن أعود إليها، وأجثو بجوارها وأسترها بملابسها الملقاة بالقرب منها

ويحضني، وأهمس في أذنها راجيًا منها أن تكف عن قسوتها على نفسها، وعليّ.. أردتُ ذلك، لكنني لم أستطعه.

لا أدري كيف مرَّت عليَّ تلك الليلة الليلاء، فكل ما أذكره هو أن شمس الضحى أسخَنَتْ رأسي، فانتبهتُ من نومي لأجدني جالسًا في الزاوية القبلية للسطح، وباب غرفتي مفتوح، والقنديل معلق على مشجبه وقد جفَّ فيه الزيتُ فاحترقت الفتيلة.. نزلت على الدرج مسرعًا فرأيت الخادمة «طريزة» تكنس الرَّحبة، سألتها عن جدّي فأجابت بأنه لم يخرج من حجرته، وعن «تمنّي» فقالت إنها بسريرها محمومة وتتعرَّق بشدة. ترددتُ لحظةً، ثم صببت ماءً على رأسي لأستفيق وناديت على العبد «برقوق» ليأتي ببغلتين ويتبعني إلى القاهرة، ومن هناك أحضرتُ الطبيب.. جلس النطاسيُّ على طرف سرير جدّي، وجسَّ نبضه ونظر في القارورة ثم قال إن تدبيره يقتضي أن يكتفي من الأكل بالسويق المسلوقة معه بعض أوراق الخضراوات، وشُرب نقيع المفردات العطرية المقوية للقلب، كالحبق والنعنع والفوتنج. والأهم من ذلك، أن يُنقل من هذه الحجرة الرطبة رديئة التهوية، إلى غرفةٍ علويةٍ تدخلها الشمس ويمر منها هواء الصحراء الجاف.

خارج الحجرة سألت الطبيب النطاسي إن كان جدّي سيبرأ، فأجابني بأن الشيخوخة لا برء منها، لكن حاله سوف يتحسن إذا التزمنا بما وصفه من التدبير. في حجرة محبوبتي تمنَّعتْ في بادئ الأمر عن مدِّ يدها للطبيب كي يختبر نبضها، ثم استجابت لإلحاحي وأعطته يدها، فقال إن نبضها ضعيف، لكنها ليست محمومةً وليس بها مرض. وعليها بمقبِّلات الطعام ومشهِّياته، ليحسُن مقدار غذائها فيتحسَّن حالها في

اقرب وقت. سألته عن سبب اصفرار وجهها، فقال لعله زيادة مقدار ما يحدث للنساء كل شهر، فلم أفهم مراده، وسألت: وما الذي يحدث للنساء كل شهر. ضحكت «طريزة» وأشارت محبوبتي بأن أخرج من حجرتها أنا والطبيب، فخرجنا. وقبل أن ينصرف عن الدار، أوصاني الطبيب بأن أسكن عمتي «تمنّي» أيضًا بغرفةٍ علوية، لأن هذه الحجرات التحتانية رديئةُ التهوية لانعدام النوافذ بها.

أوان العصر وقبل الغروب، كنا قد انتهينا من تجهيز الغرفتين العلويتين لسُكنى جدّي ومحبوبتي، وارتقى به العبدان السلم جالسًا على كرسي، وصعدتْ عمتي «تمنّي» ببطء وأنا خلفها، خشية أن يسقطها الهزال. في منتصف السلم سألتني: وأنت يا مُطيع، أين ستنام في الليل؟ فأجبتها بألا تشغل بالها بذلك، وسوف أنام على السطح أو بوسط رحبة الدار، حتى نبني غرفة أخرى أو غرفتين. فاستكملتْ صعودها زاهدةً في المجادلة، أو غير قادرةٍ عليها.

أمضيتُ أوقاتي ليلًا ونهارًا، في الاطمئنان على حالهما والعناية بهما، فلم أكن أنام إلا خطفاتٍ من الوسن. وأكثرتُ طيلة الوقت في الدعاء لهما بالشفاء والتسبيح سرًّا بالآية ﴿ربِّ لا تذرني فردًا وأنت خير الوارثين﴾.. استجابت لي السماء وتحسَّنت حالتاهما بحمد الله بعد أيام معدودات، وصار جدّي يخرج من الغرفة للجلوس في مكان ظليل، ويمدُّ أمامه رجليه ويغمض عينيه كهيئة النائم، وما هو بنائم. هل كان يستمطر سرًّا سحائب الرحمة الإلهية؟ أم كان يتلو في سره تسبيحات وصلوات لا يعرفها غيره؟ أم تراه كان يبتهل للموت كي يأتيه، فيرتاح من وَهَن الشيخوخة؟.. وعادت عمتي «تمنّي» لسابق عهدها، وعاودت عنايتها بالدار وآهليها، فاستعادت حياتنا ألوانها.

في أولى الليالي بعد انتقالهما للعيش بأعلى، أمضيتُ نصف الليلة الأولى جالسًا على عتبة الغرفة النائم فيها جدّي، لأكون قريبًا منه إذا تقلّق نومه أو احتاج لأي شيء. ولما انتظمت أنفاسه وسَرت في نفسي الطمأنينة عليه، سريتُ إلى الغرفة الأخرى لأطمئن على محبوبتي المريضة، فوجدتها نائمةً في سكينة ووجهها إلى الحائط. جلستُ على الأرض بجوار سريرها وأسندتُ رأسي برفق إلى قائمه، وظهري إلى جدار الغرفة. وعلى تلك الهيئة غفوت، وانتبهتُ قبيل الفجر على أطراف أناملها تمسُّ رأسي، وعلى ندائها عليَّ وهي مستلقية تحت ملاءة السرير، وآثار العرق تُلصق بأطراف وجهها بعض شعرها. سألتني بصوتٍ واهنٍ لم أعهده منها، وحانٍ، عن سبب نومي هكذا على الأرض فأجبتها بأنني أردتُ أن أكون حاضرًا بقربها إذا احتاجت لشيء. ولم أخبرها بأنني كنتُ أحلم بها، وبأن فؤادي يرتجف من فرط خوفي عليها.. قالت وهي تعتدل من استلقائها: أنا بخير ولن أحتاج شيئًا، فاذهب لتستريح.. وابتسمتْ بحنوٍّ حين قبَّلتُ بسرعةٍ ورفق وأنا أقومُ، ظاهر يمناها. وعندما انتصبتُ واقفًا قبل خروجي، رفعت عينيها نحوي وقالت وهي تُغالب الإعياء: كبرتَ يا مُطيع..

مَرَّ علينا شهرٌ هادئ، عدنا بعده إلى دارنا بالفسطاط فعاد جدّي لسابق عهده وصمته الدائم واعتزاله الناس، وكأن المكان أحيا عنده ذكرى صديقه المتوفى فعادت للهيمنة عليه، مثلما يهيمن الطائر على فراخه. أو لعله كان يستشعر اقتراب لحظة وفاته، فيطيل التحديق فيها. فهو لم يعمر بعدها إلا قليلًا، ومات عليلًا بعد أسبوعين من ملازمة الفراش، رحمه الله برحماته الواسعة.

قبل الفجر، دفنتُ جثمان جدي سرًّا بمساعدة العبدين، بالمثوى

المعد لذلك خلف دارنا بالجيزة. وأقمتُ العزاء له أمام دارنا بالفسطاط، ولم أكترث لأسئلة المتطفِّلين عن سبب التعجُّل في الدفن، ودفعتُ عني إلحاحهم في السؤال بالعبارة المعتادة: إكرام الميت دفنه.. وقد حضر «الحاكم بأمر الله» للعزاء في جدّي، وأطال البقاء بين المعزِّين على غير عادته. ولم يسمح الحال بأن يجري بيننا كلامٌ في أي مسار، مع أن أمورًا كثيرة كانت تجري وأخبارًا عديدة كان يتناقلها الناسُ منذ كنا في الجيزة، ومن بعد رجوعنا، فكانت تصلني ولا أفهمها. فمن ذلك أن «الحاكم» صار ينظر بنفسه في رقاع الناس وشكاواهم، فيفعل ذلك نهارًا بالقصر الكبير، وفي الليل يركب ويجوس بالركب بين الشوارع وخلال الديار يتفقد الأحوال، وصار ينفرد أحيانًا في القفار. ودعا الناس لتزيين الأزقة وإنارة العرصات والأسواق ليلًا بالشموع الكبار والقناديل، وكان في شهر رمضان الفائت يمد السماط للصائمين كل يوم ويأكل معهم، وصلّى بالناس إمامًا في العيدين. مرةً بجامع القاهرة الجديد، والأخرى بجامع الفُسطاط العتيق. ولكنه في المقابل من تلك الأمور الطيبة، قتل مؤدبه المسكين أبا القاسم «الفارقي» وهو يسايره في حدائق القصر. وقتل حامل مظلة الخليفة «رَيْدان» بعدما كان الرجل قد بلغ عنده منزلةً عالية. وقتل «ابن أبي نجدة» البقال، متولي أمور الحسبة، بعدما اعتقله وأمر بقطع يده ولسانه. كما قتل الحاكم غيرهم من أرباب المناصب، عقابًا لهم على أخطاء جسام أو هناتٍ من اللمم. ويوم حضوره للتعزية لحق به حين همَّ بالمفارقة بعضُ أقاربي الأباعد عني في النسب، فمنع عنهم الطرَّادين وسألهم عن مطلبهم، فقالوا إن لهم مالًا حُبس عنهم منذ سنوات بغير حق. نظر «الحاكم» إلى القاضي، وكان قد جاء معه للعزاء، فهزَّ الرجل رأسه مؤكدًا صدق الشكوى. فأمر «الحاكم» من

فوره بردُّ ما سُلب منهم، ووصلهم بمالٍ جزيلٍ على سبيل التعويض عما حاق بهم من ظلم.

وحضر للعزاء «حسام بن يانس» وصديقه الصقلبي «غادي» وقريبٌ له لا أعرفه، وبقي حسام معي حتى انصرف الناس فجلس إلى جواري للتسرية عني، وحين رأى عينيَّ تحتقنان والحزن يضيِّق على صدري الأنفاس. اقترح عليَّ أن نمشي قليلًا حول الدور والمنازل، لنستروح بنسمات المساء. وألحَّ، فوافقته. وبعد أن سرنا صامتين حينًا، قال ليواسيني إن هذه الحياة غرورٌ في غرور، ولا معنى لها، ولا الموت له معنى! لم أرد عليه بشيء، فقد رأيتُ أنه يهذي ويهرف. أضاف ليشد انتباهي أن من مظاهر العبث في هذه الدنيا، ومن الدلائل على غفلة أهلها، أنه يوم لقائنا آخر مرةٍ قبل أكثر من عامين، كان أبوه قد قُتل قبل يومين، وما كان الخبر قد وصل.. قال: كنتُ أضاحكك ليلتها وأسامر المرحوم جدك، وأنا لا أعرف أنني صرتُ يتيمًا.

ـ ما هذا الذي تقول. لا حول ولا قوة إلا بالله. أبوك مات! متى، وأين؟ وكيف قُتل؟

ـ قُتل في برقة يا مطيع، بعد قتالٍ مع جماعةٍ هناك. بسبب أمور كيديةٍ وخيانةٍ وتآمر من الكلبين «بَرْجَوَان» و«ريدان» لعنهما الله.

ـ أستغفرُ الله. لا تلعن أحدًا يا حسام، وقد مات الرجلان ولا تجوز عليهما إلا الرحمة.

ـ لا يجوز عليهما إلا اللعن. أنت لا تعرف كيف تآمرا بخسةٍ على أبي، حتى أهلكاه.

ـ إذن، فقد لقيا ما يستحقان وقُتلا شَرَّ قتلةٍ.

ـ نعم، والفضل في ذلك لسيدنا ومولانا الحاكم بأمر الله، صلوات الله عليه. ولكن كنتُ أتمنى أن يقتلهما صبرًا، ويُمعن في تعذيبهما قبل القتل.

استغربت قوله عن منصور «سيدنا ومولانا، صلوات الله عليه» فلم يكن قد بلغني أن معظم رجال الدولة وأهل الدواوين وقاطني القاهرة، صاروا يدعونه بذلك، وأخبرني «حسام» قبل افتراقنا بأنه بعد وفاة أبيه، استجاب لرجاء أمه وبكائها من شدة خشيتها عليه. فصرف نظره عن حياة الجندية والشرطة، وهو الآن يشتغل بالتجارة ويجلب البضائع من البلاد البعيدة، ويحمل إليها القمح. وأخبرني قبل أن يفارقني، على سبيل المجاملة، بأنه سيكون مرحبًا وسعيدًا إذا أردت يومًا مشاركته في بعض التجارات قليلة المخاطرة وفيرة المكاسب، فشكرته.

تماسكتُ بقدر ما استطعت خلال أيام العزاء الثلاثة، وبعدها أمضيتُ يومين بحجرتي التحتانية لا أفارقها، ولا أخرج من الدار. كنتُ أنام مطوَّلًا وأتفزعُ كثيرًا بسبب كآبة الأحلام، ثم أصحو حائرًا مشوشَ الخواطر، كأنني في تيه صحراوات الأحزان. فقدانُ السند والمعين، جعلني في يتم مضاعف الأثر، لأنني لم أشعر قديمًا بغياب أبي، وصرتُ فاقدًا للأب والجد.. صبيحة اليوم الثالث لانعزالي، دخلت عليَّ محبوبتي تحمل طعامًا للإفطار فأخبرتها بفقداني الشهية. جلستْ على طرف سريري صامتةً، كأنها تبحث في نفسها وتنبش بجوف قلبها كي تجد ما تقول، فلا تجده. بعد هنيهةٍ سالتْ

من عينيها دموعٌ، وسقط عنها للوراء ستر رأسها فأعادته ونهضت فجأة وقبّلت رأسي من أعلاه، وقالت متحسِّرةً: لم يعد لي في الدنيا غيرك يا مُطيع.

أسالت عبارتها دمعي وعندما استدارت لتفارقني، قلت لأستبقيها إن جدّي «خَلَف» قبل وفاته بأيام همس في أذني بشيء غريب، قال: بعد وفاتي احفر تحت سريري.

ظننتُ أنها سوف تندهش لما قُلته، لكنها لم تفعل، وعادت إليَّ هادئة الظاهر فجلست قريبة مني، وأخذت يدي اليمنى بين راحتيها اللتين تُنذيبان بالحنان الحديد، وقالت ما فحواه: أنا أعرف بجرابات الدنانير التي دفنها عمي تحت سريره ليدخرها لك، فقد ساعدته في إخفائها، لكنني أريدك أن تُرجئ أمرها إلى حين، وتخرج من أحزانك إلى تسيير مصالحنا.

ـ وماذا أفعل؟

ـ اذهب إلى عمي «أَنَس» واذهب معه لضبط أمور الميراث في دفاتر الديوان، ثم اطلب منه أن يرافقك في المرور على مستأجري الدكاكين والمنازل بالفسطاط، ومزارعي الأطيان في الجزيرة وأبي النمْرُس. واسأله عن مقدار نصيبنا السنوي من ميراث الوهط، وراجع معه ما ستجده في دفتر الدائنين والمديونين، الدفتر في الصندوق المصدَّف الذي بحجرة المرحوم جدك، وحين تخرج للناس استر عنهم حزنك.

ـ حاضر، سأفعل ذلك.

ـ وحين يسمح الحال، قل لعمي «أنَس» إنك تريد اقتناء جارتين حسناوين لتتسرى، وإنك كنت تخجل في مصارحة جدك المرحوم بذلك. عمي «أنَس» يعرف «ريحان» النخَّاس، وكان يعرف أباه من قبل، وله فضل عليهما. وإذا أوصاه عمي، فسوف يعرض عليك النخاسُ أفضل ما عنده من الإماء والجواري، فاختر منهن من ترتاح إليهن. ولكن لا تزد أول مرة عن اثنتين، ولا تشترِ مغنياتٍ أو راقصات، حتى لا يقال إنك تحوَّلت إلى حياة اللهو.

ـ حاضر.

ـ وحين تقتني الجواري، تسرَّى.

ـ حاضر.

ـ ولا تجالس لفترة ساويرس النجار وصاحبه الكحَّال، وقطِّب جبينك أمام الناس، ولا تبتسم وأنت تُحدِّث العبدين «سعيد» و«برقوق».

ـ حاضر..

ـ مالي أراك مستسلمًا يا مُطيع.. ماذا بك؟

ـ بي، أنتِ. وسأفعل كل ما تريدين حتى ترضي عني، فربما ترضين بي.

ـ ألهذا القدر تُحبني!

ـ وأكثر من هذا القدر بكثير، ولا أملَ لي في الحياة، إلا الزواج منكِ.

بكت، ثم مسحت خدَّيها وضحكت، ثم بكت ثانيةً. وسكنتْ لحظةً هدأت فيها واستعادت الإدراك، وبعدها نظرتْ في قلب عيني وعين قلبي وقالت راضخةً: طيب يا مُطيع، سأفكر في الأمر على مهل، فأمامنا مهلة ولن يمكننا الاستعجال. أما الآن فيجب أن تقوم من هذا السرير وتستحم، وتتأنق في ملبسك وتذهب إلى عمي «أنس» اركب البغلة المسرجة وخذ العبدين «سعيد» و«برقوق» كي يهرولا خلفك في الطريق، وكن وقورًا وهادئًا في الكلام مع الذين يستوقفونك لمزيد من التعزية، ولا تشرد بذهنك أمام أعين الناس أثناء ذهابك وعودتك.

ـ حاضر.

* * *

بدت نصائح محبوبتي بسيطةً، سهلة التنفيذ، لكن عملها استلزم اهتمامي ومجهودي شهورًا طوالًا، وربما عامًا كاملًا. ولم يقف الأمر عند تلك الحدود المرسومة، وإنما أسلمني الحال الجديد إلى المزيد والمزيد، كما سيأتي بيانه فيما يأتي.

أثناء الأسابيع التي استغرقها ضبط أمور المِلْكية في الدفاتر الديوانية، بمعاونة قاضٍ صديقٍ لجدي «أنس» وبعض معارف صاحبي «حسام بن يانس» عرفتُ كثيرًا من أوجه الفساد ورداءة الذمم في الدواوين. وبعد إتمام هذا الأمر، مررتُ مع جدّي «أنس» على المستأجرين الكثيرين وكان «حسام» يأتي معنا أحيانًا. مستأجرو

الدكاكين والمنازل بقلب الفسطاط أمرهم هينٌ ومحسومٌ إلى حدٍّ ما، فهم يدفعون ما عليهم كل عام، والمشكلة الوحيدة عند بعضهم هي التأخر في السداد طمعًا في كَرَم المالك ومسامحته في بعض حقِّه. وكان جدّي المرحوم كريمًا مع أكثرهم، لكنني أظهرتُ لهم الحزم، وكانوا يعرفون صلتي القوية بالحاكم بأمر الله فكانوا يخشونني، لخشيتهم من بطشه الشديد بالذين يستهينون بحقوق غيرهم.

بعد مرور شهرين على وفاة جدّي «خلف» وبعدما كنتُ قد انتهيتُ من ضبط الأمور المتعلقة بإيجارات رَبْعنا بالفسطاط وبالأنصبة الواجبة لنا من ميراث «الوهط» وغير ذلك من الأمور المالية، طلبتُ من محبوبتي أن نستخرج المخبوء تحت سرير جدّي المرحوم، قبل النظر في أمر الأطيان. أعني أملاكنا من الأرض التي تُزرع بجزيرة النيل وأبي النمرس، فقالت: غدًا.. وفي الغد صرفتِ الخادمتين إلى السوق، وصرفتُ العبدين مع بنَّاءٍ ماهر لترميم جدران دارنا بالجيزة، وإعلاء سورها بمقدار ذراع. ولما انفردنا في الدار، دخلتُ مع محبوبتي حجرة المرحوم جدّي وبيد كلٍّ منا جاروف. كشطنا أرضية الحجرة بالجاروفين بأيسر حفرٍ، فكشفنا منها مقدارًا يقل عن شِبرين، ثم ظهرت الجرابات المتراصة المتخذة من رقاب الجمال والنوق. عددها سبعة، في كل جرابٍ منها عشرون ألف دينار من الذهب الخالص، وبجوارها جـ اب غير مملوءٍ فيه تسعة آلاف دينار، فصار المجموع تسعة وأربعين ومائة ألف قطعة ذهبية.

كانت محبوبتي تعرف مسبقًا عدد الجرابات، ومقدار المال المدسوس فيها. فهي التي دفنتها مع جدّي سرًّا خلال السنوات السابقة، وما كانا يخبراني بما يفعلان لأنني كنت صغيرًا. سألتني:

ماذا ستفعل بهذا المال يا مطيع؟ قلت لها: سأفعل أشياء كثيرة، أولها ما تعهدتُ لكِ بعمله.. ابتسمتْ بصفاءٍ وبشيءٍ من الدلال، فصارت أبهى وأشهى. وبنبرةٍ خاضعةٍ رخيمةِ النغمات سألتني: سوف تأتي من النخّاس بجاريتين، صح؟ قلت:

ـ صح، سأشتري غدًا جاريتين وعشرة عبيد مولّدين.

ـ عشرة عبيدا لماذا هذا العدد الكثير؟

ـ لأن ما نملكه من الأطيان، لن يُزرع بعد اليوم بالنصف.

دامت العادةُ في نواحينا، بأن مالك الأفدنة يشاركه المزارعون بطريقتين: الأولى هي الزراعة بالنصف، حيث يتولى المزارعُ جميع الأعمال، ويدفع كل نفقات الغرس والسقاية والحصاد. ثم يتوزع المحصول، بالتساوي بين مالك الأرض والمزارع، لكل منهما نصفٌ. فيكون المزارع بذلك، في مقام الشريك. والطريقة الأخرى، أن يتولى المالك سداد كل النفقات، ويعمل المزارعُ في الأرض بما لديه من خبرةٍ بأمور الزراعة، ويعطيه المالك من المحصول مقدار السُّدس. فيكون المزارع، كالأجير المؤجّلة أجرته إلى حين الحصاد. وهذه الطريقة المجزية لمالك الأرض، تحتاج لعبيدٍ يعملون عنده.

كان لي في جزيرة النيل السابحة بين الفسطاط والجيزة، مساحة مقدارها اثنان وعشرون فدانًا، يجاورها من جهة مجرى النيل نقائع رخوة يملؤها نبات «الحلفا» كانت قديمًا تُزرع في الأعوام التي يقل فيها فيضان النيل وينخفض منسوب المياه، ثم أُهملت لفترةٍ طويلةٍ فصارت على تلك الهيئة الرخوة البائسة، وسكنها الوَرَلُ والأفاعي، بل صارت في معظم حوافها موئلًا للتماسيح. وهذه الأرض المجاورة مساحتها

النان وأربعون فدانًا. وكان يملكها شيخ من العلريين. فلهبت إلى داره بحلوان، ومعي جدّي «أنس» و«حسام بن يانس» وفاوضته حتى اشتريتها منه بثمن زهيد، والجميع يستغربون من مسعاي لامتلاك أرض سَبِخةٍ لا تزرع، ويغطيها الغرين. وظن بعضهم بي الظنون، فتركتهم في غيِّهم يعمهون، ولم أخبر أحدًا بما أنويه.. وكنتُ في تلك الأيام أعيدُ في الأمسيات قراءة كتاب «الفلاحة النبطية» لابن وحشية، وأقرأ في غيره من الكتب والرسائل المتعلقة بعلوم الزراعة.

اشتريتُ الأرض المثيرة للاستغراب، بعد أسبوع من استخراج الدنانير التي كانت مدفونة، وبعد ذلك بيومين اشتريت الجاريتين المثيرتين لشهوة غير العاشق، وبعدهما بعدة أيام اشتريتُ سبعة عشر عبدًا مولدًا، أقوياء كالثيران.. حين دخلتُ على محبوبتي الدار مساءً وخلفي الجاريتان، وطرحتُ عنهما في حجرة الضيوف النقابين الساترين لهما خلال الطريق، شهقت محبوبتي وقالت وهي ترفع أصابعها إلى خدَّيها: يا ربي، ما هذا الجمال!

تقدمتُ إليها وهمست في أذنها بأنني لا أرى في الوجود جميلةً غيرها، فضحكت وقالت: كُف يا مطيع، كُف، وأخبرني هل هما من بلاد الروم، وهل تتكلمان بالعربية؟.. أجبتها بما عرفته من النخاس، من أن إحداهما مولدة وتجيد لغتنا، والأخرى من بلاد الغال وتتحدث العربية مثل الأطفال. نظرتْ «تمنّي» إليهما حينًا بعينٍ تندهش، ثم قالت بصوتٍ يبتهج: زرقاء العينين هذه سوف نسميها «زَهْرة» والأخرى اخترت لها اسم «نَوْرة» تعاليا معي لأريكما محل مبيت كل منكما، والله المعين عليكما.

رأيتُ عند الباب خادمتَي الدار؛ «بان» و«طريزة» واقفتين تشاهدان بدهشة ما يجري بالحجرة. وحين ذهبت محبوبتي بالجاريتين تبعتاها وبقيت وحدي، ولاحظتُ أن طريزة نظرت للخلف نحوي، وضحكت بميوعةٍ قبل أن تختفي من أمامي مسرعةً خلفهن، فاعتراني الخجل.. صعدتُ إلى غرفتي العلوية، حيث أنام أيام الحر، ولحقت بي محبوبتي بعد حينٍ أمضيته في القراءة على ضوء القنديل، وبين يدَي كتاب المسعودي «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهو من لطائف النصوص الفصوص.

محبوبتي «تمنّي» دخلت عليَّ متمهلةً بثوبٍ فاتن، وبوجهٍ باسم يكسوه احمرارٌ خفيف يزيد حسنه إشراقًا، فاستبشرتُ بحضورها على تلك الهيئة البهية، وتشجعتُ فسألتها عما وعدتني به من التفكير في زواجنا، وقد مرَّ الآن ثلاثة أشهر.

- شهران وأسبوعان فقط يا مطيع، لا تغالط في احتساب الأيام. وأمرك عجيب، تسأل عن ذلك الآن، وبين يديك وطوع أمرك، هاتان الجاريتان الجميلتان!

- ما جئتُ بهما إلا إرضاءً لكِ.. وهذا الكتاب الذي كان بين يديَّ، مذكورٌ فيه أن الخليفة «المتوكل» كان بقصره أربعة آلاف جارية، جامعهن كلهن خلال فترة خلافته.

- يا مطيع، هذا خليفة وله أن يفعل ما يشتهي، أما أنت فتكفي لك جاريتان.

- وزوجة..

ـ طيب، أخبرني أولًا، لماذا اشتريت تلك الأرض المجاورة لأرضنا بالجزيرة، مع أنها لا تزرع ولا فائدة منها؟

أفهمتها على مهلٍ أنني وجدت في حجة شراء دارنا بالجيزة، أن الأرض المحيطة بالدار على مساحة مائة ذراع من جميع الجهات، هي جزء من ملكيتها. وهذه الأرض تقع عند التقاء حدود الطين والرمال، ولمَّا حفرتُ فيها بمقدار ذراعٍ واحدة وجدتُ أن الرمل يكثر على السطح بسبب طمر الرياح، أما تحته فالتربة سوداء صالحة للزرع. فإذا نقلت منها على ظهور الجِمال الأحمال المناسبة لإصلاح حال أطيان الجزيرة، وأخذت من طين الجزيرة اللازب ما يلزم لإصلاح أطيان الجيزة الرملية فسيكون عندي بذلك في الموضعين تُربة طَفْلية مناسبة للزراعة، بل هي الأفضل لزراعة معظم المحاصيل والأشجار المثمرة.

سألتني عما سوف يستغرقه ذلك من الوقت. فقلتُ قرابة شهر، شريطة أن أشتري العبيد وأكتري من الجِمَال ما يكفي للانتهاء من إصلاح التربة قبل موعد الفيضان، ثم نشرع في الزراعة هنا وهناك. وسوف يكون جملة ما بأيدينا من الأفدنة، مائة وعشرين فدانًا. وسوف أتخذ على حدود أرضنا بالجيزة معلفًا للأبقار، للاستفادة منها في تسميد التربة وحرث الأرض، بالإضافة إلى مكاسب تكاثرها بالتناسل.. حين انتبهتْ من البوح بما أنوي عمله، تفكَّرت محبوبتي لحظةً وبدت حيرةٌ يحتفُّ بها الفرحُ، ثم انتهتْ لأمرٍ فسألتني: ومن أين ستأتي بالماء اللازم للزرع في الجيزة؟ هناك، ظهر الماء على بُعد خمس أذرع فقط، لقرب الموضع من مجرى النيل. ولسوف أحفر ست آبار، إحداها للدار والثانية لمعلف الأبقار، والبقية لري الأرض. وقد رأيتُ في كتاب «بني موسى بن شاكر» حيلة لاستخراج المياه من الآبار لريِّ الأرض، بأيسر

مجهود. بكرةٌ دوارة فوق البئر، معلق بها حبلٌ مربوط به أوانٍ معدنية، فكأنه ساقية... قطعت كلامي وهي شاردة:

ـ وماذا عن أطيان «أبو النمرس»؟

ـ هي اثنان وثلاثون فدانا، وقد ألغيتُ عقود زراعتها بالنصف، وسأتولى زرعها بنفسي.

ـ هذا عمل كثير يا مطيع، وصعب. كيف ستقدر عليه؟

ـ إذا قدرتُ عليكِ، فسوف أقدر على أي صعب.

ضحكت برقةٍ وابتهاج، وسكتت لحظةً وهي تنظر إلى الأرض ثم رفعت نحوي وجهها الجميل، وقالت باستحياءٍ إنها طيلة الفترة الماضية، منذ وعدتني بالتفكير في الأمر. وهي تسعى مع نفسها، كي تراودها وتروِّضها على رؤيتي بشكلٍ يخالف ما اعتادت عليه، وهذا عسير. لكنها مؤخرًا، صارت تشعر بي على نحو جديد.

ـ يعني موافقة على زواجنا؟

ـ نعم، ولكن بعد شهرين، وبشرط، لابد أولًا أن تحبل منك هاتان الجاريتان الجميلتان.

ـ حاضر، حاضر، وسأشتري عشرين جارية غيرهما وأحبلهن جميعًا.

ـ لا، تكفي زَهْرة ونَوْرة. وأنا.

ـ أنتِ كل النساء.

ـ وهناك شرط آخر، لا تنادِني بعد اليوم بعمتي أبدًا. لا أمام الناس، ولا فيما بيننا.

ـ حاضر.. تمنّي، تمنّي، تمنّي، تمنّي.

غمرها الحياءُ فأشاحت بوجهها لتحجب عني ضحكتها، وخرجتْ تجري من غرفتي وهي فرحة. كانت تلك الليلة واحدةً من أصفى الليلات التي مرت بحياتي، وابتداءً من الليلة التالية عليها، أمست الجاريتان تبيتان في سريري تباعًا. وكنتُ أُعتم المكان تمامًا ما دامت واحدة منهما معي، وأغمض عينيَّ ليضعُف شعوري بأنني مثل الثور الطالوق، ويقوى توهُّمي أن محبوبتي هي التي معي، فأقبل على التي معي.. وبقيتُ مدةً من الزمن على تلك الحالة، حتى تأكد حملهما بعد أسابيع، فمنعت محبوبتي صعودهما إليَّ، كي تثبت البذرتان في أرضهما. لم أكترث لذلك كثيرًا، مع أنني كنتُ قد استطبتُ تلك الليلات المتتاليات، لكنني كنتُ من الجهة الأخرى أقضي أوقات النهار منهمكا إلى حدِّ الإنهاك، من أجل إصلاح التربة وتهيئة الأطيان للزروع. حتى إنني في كثير من الأيام، كنتُ أخرج من دارنا بأطراف الفسطاط، إلى أرضنا بالجزيرة، إلى أملاكنا بالجيزة، إلى أطيان «أبو النمرس» وأعود مع مغيب الشمس إلى دارنا بالفسطاط.. وفي أيام الانهماك والإنهاك هذه طرأت على خاطري فكرة، ولمعت، فنفَّذتها من فوري. فقد اشتريتُ قاربًا يجدف فيه أربعةٌ من العبيد، وصرتُ أنتقل به في مجرى النهر من تحت الفسطاط إلى حواف الجزيرة وضيعة «أبو النمرس» ومن تلك المراسي أذهبُ بالبغال إلى حيث أريد.. بعد أيام من اقتنائي القارب، قالت لي محبوبتي وقد صعدتْ لغرفتي بطعام العشاء، إنها تود أن تصحبني في تلك

الرحلات النهرية. فقلتُ لها إنه لا مانع عندي من ذلك، ولكن عليها أن تتنكر بأزياء الرجال خلال اليوم، فعقدت ما بين حاجبيها اللامعين العريضين وهي تقول بصوتٍ مسالم ومستسلم إنه لا داعي للتنكر، ويكفي أن ترتدي النقاب. قلت لها: أنتِ فاتنةٌ حتى بالنقاب، وأخشى على رجال الجيزة والفسطاط من سحركِ الفتَّاك! فضحكت بدلالٍ هادئ واستدارت بوجهها إلى الجهة الأخرى. كانت تجلس إلى جواري على السرير، فاحتضنتها من ظهرها برفقٍ فسكنت بين ذراعيَّ، وبأطراف أناملي فركتُ فاكهة صدرها فشهقت مرتين، وفي الثالثة قامت لتهرب من أمامي. ضحكتُ فوقفتْ عند باب غرفتي، وتولَّت ناحيتي بوجهٍ يفيض منه احمرار الحياء وقالت: أراكَ قد صرتَ بعد الجاريتين جريئًا يا مطيع، وأرى أن نتزوَّج الأسبوع القادم، فقد مضى على وفاة عمي أكثر من خمسة أشهر.

* * *

أولمتُ للعرس ودعوتُ إليه أقرب الأقارب والجيران، وذبحتُ للفقراء بدنةً عند باب الجامع العتيق. حضر عُرس زواجي بمحبوبتي صديقي «حسام بن يانس» وصديقه غادي، صقلبي، وعدد من أبناء المرحوم «ابن الفرات» وأحفاده، وخادمٌ من القصر الكبير جاء بهديةٍ لي من الحاكم بأمر الله. فرسٌ بيضاء عليها سرجٌ فاخر، وثيابٌ تليق بالأمراء، وصندوق بديع الصنع فيه ألف دينار.

بعدما انصرف المدعوون وهدأ الحال، دخلتْ عليَّ محبوبتي الغرفة وهي في كامل زينتها، يعني في كامل سحرها الأنثوي، وقالت وهي واقفة قبالتي وأنا ألتهم بعيني كل ما فيها، إنني وعدتها قبل أيامٍ بأن أدخل عليها مترفقًا، في ثلاث ليالٍ. في الأولى نُعتم الغرفة

ونكتفي باللمسات، وفي الثانية نُضيء القنديل ونكتفي بالتقبيل، وفي الليلة الثالثة يكون ما يكون. أظهرتُ الموافقة وقمتُ إليها فطويتها بين جوانحي، وطرتُ بها فوق السرير مثلما يطير الإعصارُ بالغبار. لا شيء يشبه شريكة فراشٍ مُشتهاة تشتهي، ومعشوقة تعشق حتى تشتعل عشقًا. اختصرتُ الليالي الثلاث في ثلاث سويعات مرَّت كالبرق، وقبل الفجر كان كل ما يكون، على أبدع وجهٍ يمكن أن يفعله المتزوجون.

* * *

بلغ مقياس النيل في ذاك العام، الخامس والتسعين بعد الثلاثمائة، خمس عشرة ذراعًا وخمس أصابع. ثم غاض النهرُ بعدما فاض، وآن الأوان لغرس البذور فاحتجتُ إلى المزيد من الأيدي العاملة، عبيدًا ومزارعين.. ذهبتُ إلى جدّي «أنس» لأستعين به في شراء العبيد وكراء الزراع، فوجدته في حجرة المضيفة اللصيقة بداره، ومعه رجلٌ نحيلٌ أرمد العينين، يبكي. استخبرتُ، فعرفتُ أن هذا المسكين الباكي، من بلدة بعيدة تسمى «سِجِلْماسة» وأنه كان يطوف البلاد ويتاجر بمالٍ يأخذه من أهل بلدته، ويرده إليهم بضائع مما يحتاجون ويجلبها إليهم. وهذا العام وجد الرجلُ الحجيجَ من أهل مصر والقاهرة، يستعدون لأداء الفريضة، فتاقت نفسه للذهاب معهم وأودع ما معه من المال، لدى صاحب دكان يعرفه ويستعين به في تجارته. لكنه عندما عاد وطالب بوديعته، أنكرها الرجل عليه. قال جدّي «أنس» للرجل السِّجِلْمَاسي، وهو متأثر: واللهِ يا مسعود قد

راجعته مراتٍ، فأنكر.. عاد الرجل للبكاء مجددًا، وقال وهو ينوح: سوف أسمي نفسي «متعوس» لا «مسعود» وسأبقى حائرًا بين البلاد وغير قادرٍ على العودة لداري، فماذا سأقول للدائنين هناك؟!

رقَّ قلبي للباكي وسألته عن مقدار ما أَوْدعه من المال، فقال ثلاثة آلاف دينار. وهذا كثير. فاستأذنت جدّي في مراجعة صاحب الدكان لعله يتقي ويعيد المال، فهزَّ رأسه ومط شفتيه موافقًا وغير مستبشر. أخذتُ «مسعود السجلماسي» وذهبنا للرجل في دكانه الكبير ذي الأبواب الأربعة، فوجدته صفيق الهيئة يدل سوء منظره على قُبح مخبره. رجوته أن يعيد للمسكين ماله، فصاح فيَّ: ليس له شيء عندي، وليس لديه ورقة موقَّعة ولا لديه شهود، ومن أنت أصلًا حتى تتوسَّط له؟ آه عرفتك، أنت الشاب الذي نشأ في طاعة الحكام، ههه.

انصرفتُ من أمامه خائبَ المسعى وخجلانًا، وخلفي سار السجلماسي يسحُّ من عينيه الرامدتين دمعًا. سألته أين سيذهب الآن، فأخبرني بأنه لم يعد يملك أجرة المبيت في الفنادق الرخيصة، وكان بعد عودته من الحج يسكن في «فندق الفِرَاخ» فلما انعدم ما معه من المال، صار يبيت في المساجد خلسةً. سألته إن كانْ يتقن أيَّ عملٍ فأجابني بأنه كان في شبابه شجريًّا، وكذلك أبوه المرحوم الذي كانْ يُعرف في سجلماسة بمحمود الشَّجَري. يعني زارع الشجر. فخطر ببالي أن أستعين بهذا المسكين في تأطير الأفدنة المحيطة بالدار، في الجيزة، بأشجارٍ تمنع عن الأرض المزروعة زحف الرمال. عرضتُ عليه الأمر، فوافق من فوره وهو منكسرٌ بعبارةٍ حزَّت الحزن في نفسي:

وهل يمكنني يا سيدي أن أرفض، بعدما عَبَس في وجهي الزمان وحكم عليَّ بالغربة الدائمة حتى الممات؟

أخذته معي وبات ليلته بإحدى الحجرات الملاصقة من خلفِ لجدار داري بأطراف الفسطاط، وفي الصباح أخذته معي إلى داري وأطياني بالجيزة. وهناك، دار مرتين حول الأطيان الطفلية ثم انفرد بنفسه ساعة، وعاد إليَّ بعدما أجال نظره في الأنحاء المحيطة، ليقول لي فكرةً جيدةً وضعتها من فوري في حيز التنفيذ: انظر يا سيدي، هذه الصحراء المحيطة بأرضك لا صاحب لها، فعليك بالخروج من حدودك خمس أذرع في الجهات الأربع، ونحفر هناك بمقدار ذراع ونضع في كل حفرة فسيلة وحولها الطين الأسود والغرين، فإذا امتدت جذورها في الأرض وصلت إلى العمق الخصيب المغطى بالرمال.

ـ وكيف نسقيها؟

ـ احفر عند الزاوية القبلية حيث الماء قريب، بئرًا وخذ منها الماء في مسرب يحيط بالصفوف الأربعة للأشجار.

ـ وبأيِّ نوعٍ من الأشجار تنصحني؟

ـ ما دمت يا سيدي تريد حجب الرمال، فشجر الكافور والسنط هو الأفضل، وهو لا يحتاج رعاية كثيرة.

ـ لا يا مسعود، تلك أشجارٌ غير مثمرة. وهذا المكان مرتفع عما حوله، فلن تغزوه الرياح بالرمال بشكل كبير.

شرعتُ من فوري في تنفيذ الفكرة، وحفرت أربع آبار عند زوايا أرضي، وجعلتُ خطوط الأشجار المثمرة تبعد عشر أذرع لا خمسًا،

فتضاعفت مرتين مساحةُ ما أملكه من الأطيان حول داري. وجرى أمرٌ لطيفٌ بعد انتهائي من غرس الفسائل في الحفر، بيومين، إذ كنتُ في وقت الغروب بين العمال والزراع والعبيد، ومعي «مسعود السجلماسي» نمرُّ على الفسائل وهي تُسقى لأول مرة، مساءً، حسبما نُصحت بذلك. رأيت رجلًا مقبلًا علينا راكبًا حمارًا، وخلفه ثلاثة من الرجال يمشون، وعندما اقتربوا عرفت أن الراكب هو «الحاكم بأمر الله» والذين معه جنده الحارسون. لا أدري لماذا يصرّ على أن يركب حمارًا، وأن يضع على رأسه بدل العمامة المُحلاة بالجواهر، فوطة.. قبل أن يصل قبالتي قال: ما شاء الله، هذه ستكون عما قريب جنة مطيع السهمي.

ـ مرحبًا بك يا أمير المؤمنين.

ـ السلام ورحمة الله وبركاته عليك، وعلى هذا الواقف بجوارك يرتجف.

ـ وعليك السلام يا أمير المؤمنين. وهذا يرتجف من فرط هيبتك، ومن شدة شعوره بالظلم.

ـ ظلم! كيف يا مطيع.. ما قصة هذا الرجل؟

قصصتُ عليه ما جرى وهو مطرقٌ يتأمل، ولما انتهيت رفع بصره نحو النجومِ كالمستطلع، ثم قال: حسنًا، أظنني أعرف هذا الرجل، القبيح، وأعرف موضع دكانه. ثم قال للسِّجِلْماسي: اسمَع يا مسعود، يوجد قُبالة دكان هذا الرجل مسجدٌ صغير، غدًا انتظرني هناك ساعة المغرب ولا تخبر أحدًا بهذا، وليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا.. أقلقني وقعُ العبارة الأخيرة، وذكّرني بشيءٍ كان، لكنني

كنتُ سعيدًا باهتمام «الحاكم» بالأمر وشعرتُ أن الفرج آتٍ. سألني الحاكمُ إن كان عندي حمار لأركب معه ونسير قليلًا في الصحراء، فابتسمتُ وأنا أقول: عندي يا أمير المؤمنين، عندي.. وناديت على أحد خُدامي ليأتي بالأتان العجوز التي كان جدّي «خَلَف» يركبها، إذ كانت أكثر حميري احتمالًا للسير في الرمال، مع أنها أكثرها هزالًا. ونحن ننتظر الأتان عند بوابة الدار، أطلَّتْ محبوبتي برأسها من خلف الباب الموارب، فلمحها «الحاكم» وقال لها ممازحًا: مبارك لكما الزواج يا حفيدة الفاتح، الحمد لله أنكِ قبلتِ بأخي مطيع، قبل أن يهلك عشقًا وتوْقًا.. فقالت له بنبرةٍ مهذبة: أطال الله عمرك يا أمير المؤمنين، وعمره.

أشار الحاكم لحراسه بأن يبتعدوا حتى لا يسمعوا ما نقول، وسرنا متجاورين وقد سرت من السماء نسماتٌ باردةٌ ذات أريج، كأن نوافذ الجنة فُتحت بإزاء الأرض، نهب منها هواءٌ عطريٌّ مصفًّى. نظرتُ نحو هضبة رءوس الأهرام، وتماوج التلال من حولها، فبدا لي لحظتها أن هذا الكون المحيط في حقيقة أمره مسحور، وليس فيه إلا ما أراه الآن من الجمال.

أخرجني «الحاكم» من شرودي بسؤالي عن أحوالي، فحمدتُ الله وأكّدتُ له أنها بخير، فأحوالي المالية إلى رواج، وجاريتاي أنجبتا لي ولدين، فأسميتُ أكبرهما «منصور» وأسميت الذي وُلد بعده بشهرٍ «حسام» تيمنًا بالصحبة الطيبة التي كانت في الصبا.. قال: بارك الله فيك وحَفظك أنت وذريتك، وعجيبٌ أمر هذه المصادفات! نُولد أنا وأنت في يومٍ واحد، ونُرزق في العام ذاته بولدين من امرأتين، لا توأم من امرأةٍ واحدة! فقد ولدتْ لي زوجتي، ابنة عمي «آمنة بنت عبد

الله بن المعز» ولدًا، وولدت لي جاريتي العربية «رقية» ولدًا أجمل من أخيه وأصحّ بَدَنًا. سبحان الله. والآن اصدقني القول يا مطيع، فأنت من القلائل الذين أثق بهم: كيف ترى أحوال البلاد؟ وما الذي يبلغك عني؟

ـ بلغني، إذا ما سمحت لي بالقول، أنك قتلت مؤخرًا عشرات الرجال..

ـ نعم يا مطيع، هذا صحيح. أقتُل العشرات من السُّراق والمتآمرين، ليحيا مئاتُ الآلاف من الأبرياء، في أمانٍ من مكائدهم. ولو أخذتُ بكل ما ينقله لي العيونُ والعسسُ والجواسيس، لقتلتُ المئات لا العشرات.. وهذا يا مطيع.. هذا شأنٌ مربك.. أتعرف.. وليكن ذلك مكتومًا بيننا. أشتهي أحيانًا أن أذبح رجلًا بيدي، وأمزِّق جسمه بالسكين والساطور أمام الناس.

ـ هذا اشتهاءٌ خطيرٌ يا منصور.

ـ نعم.. خطير.

لم أعد أشمُّ رائحة الجنة التي كانت تسري في الصحراء قبل قليل، وتمسُّ وجهي وقلبي. وحمدت الله في سِرِّي حين استوقفني «الحاكم» قبل بلوغ الموضع الذي جلسنا فيه المرة السابقة، قائلًا إن عليَّ العودة من هنا إلى داري، فهو سيلتقي بإخوان الصفا، وهم لا يحبون أن يراهم أحدٌ فيعرفهم. قلت: «أتركك في أمان الله يا أمير المؤمنين» وعدت إلى داري مسرعًا بقدر ما استطاعت سيقانُ الأتان، والأسئلة التي لا إجابة عليها تعصف بجوف رأسي: لماذا يشتهي أن

بذبح بيده؟ هل صار يرى الناس كخِراف الأضحيات؟ ويعرف أن فكره صار خطيرًا؟ مَنْ هؤلاء الذين يسميهم إخوان الصفا؟

في اليوم التالي ذهب «مسعود السجلماسي» عصرًا إلى حيث أمره الحاكم، ولما عاد ساعة العشاء أخبرني بما جرى.. مَرَّ «الحاكم» بالركب فاصطف الناس على جانبَي الشارع، وكان صاحب الدكان بين الواقفين في جانب، وبالجانب المقابل كثيرون يقف وسطهم السجلماسي. ولما لمحه الحاكم بين الناس قال له بصوتٍ يُسمع: كيف حالك يا مسعود؟ وكيف كانت رحلتك للحج؟.. واقترب منه فانفسح عنهما الناس، وراح الحاكم يحكي مع المظلوم بصوت خفيض، وهيئة الحال تدل على أن المودة تجمع بينهما.

وهو يحكي لي ما جرى، فهمتُ ما كان يرمي إليه «الحاكم» مما فعله. ولم يتأخر صدقُ تقديري إلا ساعة واحدة، فبعد صلاة العشاء مباشرة دقَّ باب داري صاحبُ الدكان ومعه اثنان من أقاربه، وراحوا يعتذرون لي ولمسعود السجلماسي، ودفع إليه بالوديعة التي كان ينوي نهبها. قال: هذه يا أخي مسعود الثلاثة آلاف دينار، وديعتك، وتلك مائة دينار زيادة لتأخري عليك في رد الوديعة.. أخذ السجلماسي ماله، ولم يقبل المائة دينار الزيادة. ردَّها إلى صاحب الدكان، وأشاح عنه حتى ارتحل عنا هو والرجلان اللذان كانا معه، وبقى حينًا يردِّد بعينٍ تطفر منها الدمعات: الحمد لله، الحمد لله.. سألته ليستفيق عما ينوي الآن عمله؟ فقال إنه سيرحل إلى بلدته غدًا، فهناك قافلة ذاهبة بالمراكب إلى «طنجة» ومنها سوف يتجه جنوبًا إلى «فاس» ومنها إلى بلدته «سجلماسة» الواقعة بقلب صحراء المغرب الأقصى. وقال إنه لن يأخذ معه بضائع، وفور وصوله سوف يرد المال إلى أصحابه، ولن يشتغل بعد اليوم بالتجارة والتجوال بين

البلاد.. وصمت لحظة، ثم قال قبل أن يفارقني: إنقاذك لي يا سيدي من البؤس وسوء المصير، سيكون في ميزان حسناتك يوم القيامة، وسأهديك الآن فكرةً كنتُ أنوي تنفيذها ببلاد المغرب، ولا بأس لو عُملت هنا وهناك.

بإيجاز شديد، لأنه كان متعجلًا شرح لي فكرته البسيطة، العبقرية. قال إنه زار سابقًا بلاد الشام فوجد هناك من أشجار الفاكهة أفضل الأنواع، خصوصًا في شمال البلاد. فإذا جُلبت من هناك فسائل هذه الأشجار وغُرست هنا، فسوف تثمر أجود الفواكه وأفضلها وأعلاها سعرًا في السوق. ويجب لإنجاح هذا الأمر مراعاة أمرين: أن تظلل الأشجار صيفًا، خصوصًا عند ابتداء نموها في أول عامين، حتى لا تُيبسها شمسُ مصر الحارقة. وأن يُكتم أمر جَلْبها عن الناس، فلا يسارعوا إلى المماثلة فتشتد المنافسة، ويرخص سعر الثمار. فإذا مرت ثلاث سنوات، وثبتتْ جذورُ أشجارك وبدأ الإثمار عندك، فلن يضيرك أن يسعى الآخرون مسعاك، لأن ثمار أرضك ستكون أطيب مما تطرحه أشجارهم، وأشهى، وأعلى سعرًا.

ذهب السجلماسي للمبيت مع عمال أرضي، وترك عندي ماله وتركني أفكر فيما اقترحه عليَّ، فسهرتُ حتى وقتٍ متأخر من الليل. وكانت محبوبتي التي صارت بحمد الله زوجتي، تتطلع نحوي بشغف وتسألني كل حين السؤال ذاته: ماذا يشغلك يا مطيع؟ فأعيد عليها عبارة: لا شيء يا حبيبة قلبي. في الصباح الباكر جاء «السجلماسي» وأخذ ماله وذهب مسرعًا كي يلحق بالقافلة المرتحلة إلى بلاده، وظننتُ أن حكايته قد انطوت صفحتها وخُتمت على خير. لكنني ساعة الظهيرة، عرفت أن الناس أصبحوا فوجدوا صاحب الدكان مذبوحًا ومعلقًا من قدميه على باب دكانه، ولا يجرؤ أحدٌ على

إنزال جثته لدفنها. فقد صدرت أوامر الحاكم بأن تُترك على هذا النحو، حتى تتعفن. حنقتْ محبوبتي وقالت وهي غاضبة: لماذا هذه القسوة المفرطة، وقد رد الرجل المال لصاحبه، وكان يمكن معاقبته بالسجن فترة.

ـ السجون يا حبيبتي امتلأت بأمثاله، ولم يتعظ الناس.

ـ ألا يوجد لوعظ الناس، غير الذبح؟!

ـ يبدو ذلك، للأسف.

ـ لا يا مطيع، أنت تدافع عن منصور الحاكم لأنه صاحبك، مع أنه غدر بكل الذين حوله. وقد يغدر بك في أي وقت. أنا مرعوبة منه.

ـ اهدئي يا حبيبتي، فأنتِ حُبلى ولا يصح أن تنفعلي بقوة على هذا النحو، ولسوف أفهمكِ..

قلت لها بألطف المفردات إن «الحاكم» لم يغدر بأحدٍ ممن حوله، إلا بمن فسد أو انحرف أو تآمر، وقد ورث عن أبيه حكم البلاد فوجد الفساد ينخر في نخاعها، والأخطار تحوطها من خارج، فكان لابد أن يشتد ويحتد ويغلِّظ العقوبات. ألا تتذكرين كيف كان الشطار والعيارون يكبسون الدور نهارًا، ويخطفون النسوة من الشوارع والدروب، ويفرضون على الآمنين الإتاوات؟ ألم يقطع «الحاكم» شأفتهم، وكان يجوس في مساربهم ليلًا، ليدفع شرَّهم بعيدًا عن الناس؟ ألم ينظر بنفسه في المظالم ويرد الحقوق إلى أصحابها؟ وهو لم يسلب مالًا من غنيٍّ أو صاحب تجارة رائجة أو رجل ميسور الحال، مثلما يفعل كثيرٌ من الحاكمين والمتحكِّمين.

ـ لا أدري يا مطيع، لا أدري، لكنه على كل حال قاسٍ، بل بالغ القسوة.

ـ ربما يُخفي عن الآخرين بهذه الخشونة والقسوة البالغة، رقةً لا يريدها أن تظهر.

ـ يمكن. المهم الآن، الشتاء اقترب وعلينا أن نعود إلى الفسطاط ونغلق هذه الدار.

ـ لن نغلق أيَّ دار، وسوف أبني دارًا ثالثة في «أبو النمرس» فقد اشتريت هناك أطيانًا جديدة، والزراعة تحتاج رعايةً ومعاينةً دائمة.

ـ وأين ستكون إقامتنا الدائمة؟

قلت لها برفق، إنها ستبقى في داري القديمة بالفسطاط حتى تضع حملها، ثم تقرِّر من بعد ذلك الإقامة حيثما تريد، وتستقر فيما تختار من دياري الثلاث. وسوف أبيتُ تباعًا في كل دار، ليلتين أو أكثر، بحسب الحاجة ووفق ما تقتضيه المصالح والمعايش والظروف.

نظرتْ نحوي مستغربةً ثم سألتني عمن سيخدمني في الليلات التي أبيتها بعيدًا عنها، فقلت: سنجد لهذه المشكلة الصغيرة حلولًا كثيرة.. هل تنوي الزواج بأخرى يا مطيع؟ لا، لن تكون لي زوجة غيركِ طيلة الحياة.. وماذا ستفعل لو مت أثناء ولادتي أو بعدها بقليل؟ سيموت قلبي معكِ ولن أتزوَّج بعدكِ.. قد ألد بنتًا، فماذا ستفعل وعندك من الجاريتين ولدان؟ سأحبُّ ابنتكِ أكثر من كل أولادي.. هل تنوي اقتناء مزيد من الجواري؟ نعم.. قالت:

ـ أشعر يا مطيع أنني ما عدتُ أعرفك.

ـ لا أحد يعرف أحدًا يا حبيبتي، لكن المحبين يشعرون ببعضهم البعض، على نحوٍ خفي.

ـ أحسّ بأنك يا مطيع، روحي وسبب وجودي. ولي عندك رجاءٌ وحيد، ابتعد عن «الحاكم بأمر الله» بقدر ما تستطيع.

أومأت برأسي موافقًا فارتضتْ، واطمأنتْ مع مرور الأيام، لأنني لم ألتقِ بالحاكم مجددًا خلال تلك السنة. أعني الخامسة والتسعين وثلاثمائة. إلا يوم احتفاله بافتتاح «دار الحكمة» وهي أكبر وأفخم المكتبات في الدنيا، فقد فاقت بمقدار ونفاسة ما فيها من الكتب المتنوعة والنادرة، مكتبة مدينة «بغداد» عاصمة الدنيا.. ورسم «الحاكم» لدار الحكمة بالقاهرة، كل ما يلزم من أجل العناية بمحتوياتها والرعاية لمن يتردَّدون عليها، ولم يقصُر الاستفادة منها على فئة أو جماعة أو مذهب، وإنما فتح أبوابها أمام الجميع مرحبًا بكل قارئ وبكل راغبٍ في حضور مجالس العلم.

ويوم افتتاح «دار الحكمة» لم تسنح فرصةٌ للكلام مع «الحاكم» أو حتى للاقتراب منه، إذ كان الحشد يومها من حوله عظيمًا ويضم أغلب الوجهاء من رجال الدولة ورؤساء الدواوين وسائر المرموقين بالبلاد. وبعد اختتام الاحتفال، لمحت الحاكم من بعيد، ينفرد جانبًا بالعلَّامة «ابن يونس» ويصغي إليه باهتمام ملحوظ، ثم ينادي على الأمير المُسبِّحي وينصرف ثلاثتهم وهم ينهمكون في كلام لا يسمعه غيرهم.

وفي تلك السنة وما بعدها، وقعتْ معي وفي عموم البلاد وقائعُ عديدةٌ لم يكن معظمها متوقعًا، وجاء بعضها بأفضل مما كنتُ أرجو وأتوقع. فقد جلب لي «حسام بن يانس» من بلاد الشام فسائل وعُقل الأشجار المثمرة. المشمش والخوخ والبرقوق. وصحَّ نموها بعد غرسها بأرضي فأورقت بعد عام، وبعد ثلاثة أعوام أثمرت وكثر ثمرها مع مرور المواسم. كما صحت معي الزراعة بالأرض الطَّفْلية في الجزيرة والجيزة، بسبب اعتنائي بما يلزم الزرع، ولأن مستوى الفيضان في السنوات التي تلت تجهيز وزيادة الأطيان، جاء مناسبًا لما تحتاجه المحاصيل كي تغلَّ على أفضل وجه.

وبنيتُ الدار الثالثة في «أبو النمرس» وجعلتها رحبة الأنحاء وقريبة من ضفة النيل الذي يبلغ في هذا الموضع أقصى اتساعٍ لمجراه، وطابت لي الإقامة في الليلات التي أقضيها هناك. وإلى جانب الزراعة والتشجير، شاركتُ «حسام بن يانس» في عدة تجارات فصادفت التوفيق، وقويتُ مع مرور الأيام صداقتنا وتوثَّقت الصلات، وصرنا نلتقي كثيرًا كلما وجدنا إلى ذلك سبيلًا، وكانت تؤنسني صحبته وتطيب لي حكاياته وطريقته في حَكْيِ ما رآه في رحلاته، وما يسمعه من عجائب الشائعات في قلب القاهرة حيث يقيم. في اليوم الأول من شهر رجب، جاءني ملبيًا دعوتي له للعشاء والسمر في مكان جلوسنا المعتاد، عند التقاء حدود أطياني بضفة النيل بـ«أبو النمرس» وبعد العشاء أخرج من جرابه قنينة وألح عليَّ في الشرب معه، فتمنعتُ. قال إنني إذا تناولت معه كأسًا، فسوف يخبرني بأغرب ما يمكن أن أسمعه. لم أشأ مضايقته فحسوتُ من الكاس على مهلٍ وقلت له: هاه، ما هو الخبر الغريب؟

قال: ماذا يصادف اليوم، من أيام الأسبوع؟ فاستغربتُ سؤاله وقلت مستغربًا: هو غرة شهر رجب، وهو يوم الثلاثاء.. فانفجرت منه الضحكات حتى مال على جانبه، واعتدل ثم مال ثانيةً من كثرة الضحك، ثم قال: لا يا صاحبي، لا، فصباح اليوم مولانا الحاكم أصدر أمرًا لكل العاملين بالدواوين، بأن يؤرخوه بيوم الثلاثاء لا الأربعاء، ههههه، كان أمس الثلاثاء واليوم أيضًا الثلاثاء. واليوم الأربعاء، وغدًا أيضًا يوم الأربعاء.

تأكدتُ صباحًا من صحة كلامه، فغمرني الاستغرابُ وغرقتُ في الحيرة. وقد أطلتُ النظر فيما يمكن أن يكون السبب أو السر، من وراء قرار «الحاكم» هذا، لكنني لم أصل إلى شيء. وكان «حسام» ينقل لي دومًا ما يدور على ألسنة الناس في القاهرة من أقاويل عن «الحاكم» وأغلبها شائعات ليس لها من الصحة نصيب. أما موضوع حديثه المفضل فكان مغامراته مع النساء، وأفعاله مع الإماء والحرائر منهن، وهو الذي أهداني الجارية الجميلة هادئة الطباع، البيضاء من غير سوء «سهيلة» وهي عذراء اشتراها من بلاد الشام ليهديها لي، ولم يمسّها. ومع أنها كانت في حدود الخامسة عشرة من عمرها، إلا أنها أنجبت لي بعد عامٍ واحدٍ ولدي «عبد الله» ثم حبلت مجددًا وهي تُرضع، وهذا في النساء قليل الحدوث، فأسكنتها بداري التي بـ«أبو النمرس» وحرصتُ على أن تحوطها لوازم الراحة والاعتناء. وهي الوحيدة من بين أمهات أولادي الثلاث، التي لاحظتُ أن محبوبتي تغار منها، وإن لم تصرِّح بذلك. فكنتُ أصرف عنها غلواء الغيرة بألطف الحيل وأجمل العبارات، مؤكدًا لها وأنا صادق فيما أقول، أنني لم أحب

ولن أحب غيرها. فتردُّ عليَّ مداعبةً، وقد استراح قلبها: نعم، أنت لا تحب سواي، لكنك تميل إلى مجامعة غيري أحيانًا.

وكانت محبوبتي وزوجتي الوحيدة «تمنّي» قد ولدتْ في ربيع العام السادس بعد التسعين وثلاثمائة، بنتًا، فحزنتْ، وأظهرتُ فرحتي بما أنجبت لأخفف من حزنها ولأنني كنتُ بالفعل سعيدًا بالإنجاب منها. سألتني أن أختار للمولودة اسمًا، فقلت من فوري: «تمنّي». فأشرق وجهها بضحكات وهي تنظر نحوي بطرف عينيها الساحرتين وتقول بدلالٍ: ألا تكتفي من «تمنّي» بواحدة!

ـ لا والله، ولو كان بإمكاني لأسميت كل الذين حولي «تمنّي» فلا أنادي أحدًا بغير اسمك.

وفي صيف ذاك العام، كان عندي من العبيد سبعة وعشرون، ومن المزارعين والأُجراء عشرة. وهؤلاء وأولئك موزَّعون على أطياني المزروعة في الجزيرة والجيزة و«أبو النمرس». وكان من بين العبيد المقيمين عندي بـ«أبو النمرس» فتى أرعن اسمه «عصفور».. لا.. لا أريد حكاية ما جرى. لا أحب ذلك، ولا أطيقه.. سأترك الكتابة. وقد لا أعود إليها.

* * *

تَرْكُ الكتابة لا يُجدي. ولو امتنع كل ماسكِ قلم عن التدوين، ما عرف الأواخرُ عن الأوائل شيئًا، ولا كانت العبرة.. ونحن في خاتمة المطاف بشرٌ، ولسنا ملائكة.. مساء غدٍ سأحاول العودة لتسويد هذه الأوراق. وقد أستطيع الكتابة.

ليتني ما خلقتُ.. الهواءُ الليلة ثقيل، وأثقل منه استعادة الذكريات.. وقد حَفِيَ القلم.. سأقوم لفراشي فربما أستطيع النوم.

* * *

في صيف العام السادس والتسعين وثلاثمائة، كنتُ قد أشرفتُ على بلوغ الثانية والعشرين من عمري، وكنت قد بلغتُ من الغرور بزينة الحياة الدنيا حدًّا مريعًا، وانقطعتُ تمامًا عن القراءة ومطالعة كتب العلوم، مُلتهيًا بما غصتُ فيه من جريان الأموال بين يدي، وفرحي بها وغاب عني أنها مثل كل ما في الوجود، زائلة. وزاد من افتتاني، أن الأطيان التي ورثتها عن جدّي ازدادت مساحتها وتضاعفت مراتٍ في أقصر وقتٍ، ولم تعد مهملة كما كانت فدعاني ذلك إلى العُجب والتعالي.. وكلاهما من الموردات إلى الهلاك.

وزاد من رداءة أخلاقي واسوداد نفسي، أنني استرحتُ إلى الحال الحالي ولم يعد يراودني خاطر الاندثار وانقطاع النسل. فقد صار عندي من الأولاد أربعة ومن البنات ثلاث، وسوف يأتي من الذرية مزيدٌ في مقبل الأيام. وكنتُ ألتذُّ بمعاقبة العبيد وتأديبهم جلدًا على ظهورهم العارية بالسياط.. صرتُ قاسي القلب، وغرَّني بالله الغَرورُ حتى تشككتُ في وجود كليهما.

في منتصف ذاك الصيف، اللاهب، كنتُ أبيتُ في داري بـ«أبو النمرس» وكنتُ قد أسكنتُ هناك «سهيلة» أم ولدي عبد الله، ومعها بالدار أَمَةٌ تخدمها، وجاريةٌ من بنات الأندلس تجيد فنون الوَنَج والمجامعة على نحوٍ لا تعرفه معظم النساء.. وكانت الأندلسية هذه، تبيتُ ليلة تمام البدر في سريري. وحين أطلَّت عليَّ شمسُ النهار

الجديد، وليتها ما أطلَّت، سمعت «سهيلة» تصرخ قرب بوابة الدار. قمتُ فزعًا وأخذتُ من زاوية الغرفة العلوية حربةً صدئة الرأس، وملهوفًا هبطتُ الدرج مسرعًا فوجدت أم ولدي ترتدي ثوبًا واسعًا، وناعمًا، وأمامها العبد «عصفور» يقف مشدوهًا وبيده دورقٌ فيه حليب. استخبرتُ زاعقًا والغضبُ يطيش عقلي، فأخبرتني أن العبد دسَّ كفَّه بين فخذيها. نظرتُ إليه بعين ينقدح منها الشررُ، فقال وهو يتلعثم: لا يا سيدي، لا أعرف، ظننتُ أنها تريد... نخسته في بطنه برأس الحربة، فاحتمى بالأرض متكوِّمًا خلف بوابة الدار وأحاط دماغه بذراعيه وراح يرتجف من فرط الخوف.. أعماني الغضب.. والغرور.. وضعتُ رأس الحربة على جانب صدره، وبعنفوان الغضب وعنفٍ مريع، دفعتُ بكلتا يديّ الحربة حتى انغرست في قلبه وانفجر منه الدمُ. انتفض بقوة مرتين، فانتثرت دماؤه، وبعد عدة ارتعاشات من أطرافه مات.. زعقت من أمام البوابة مستدعيًا عبدين، فأسرعا الخطى حتى وصلا إليَّ فقلت لهما: خُذا جثة هذا الكلب وادفناها بالخرابة المجاورة للكنيسة المهجورة التي بآخر الدرب.. فأخذاه وذهبا به والدم يتقاطر من أسماله المخضَّبة بدمه.

أغلقت البوابة واستدرت فوجدت «سهيلة» تجلس على أول درجات السلم، تبكي وتشهق، فأمسكتُ بشعرها وصعدت بها إلى غرفتي وسألتها بلسان المهووس: أين دسّ يده؟ فأشارتْ بأنامل يُمناها نحو قُبُلها، ومسَّته وهي ترتجف من فرط الرعب.. لا أدري كيف غاب عقلي ساعتها، ولا أعرف سببًا للهوس الذي اعتراني.. فقد اشتعلتْ بباطني شهوةٌ مفاجئةٌ، عنيفةٌ، فأنعظتُ.. وبعد برهة ذهولٍ خاطفة، طرحتُ عنها بعنفٍ كل ما كانت تلبسه، وبكلتا يديَّ

دفعتُ بقوةٍ كتفيها إلى الخلف فارتمتْ أمامي على السرير عاريةً، ومستسلمةً تمامًا، ومستباحةً تمامًا.. تأملتُ عُرْيها الظاهر والباطن مليًّا وعقلي غائبٌ، ثم رفعتُ ذيل جلبابي وارتميتُ فوقها وجامعتها بعنف، كأنني طالوق ينزُو.

بعد هذا الغليان وغياب العقل خمدتُ، وغبتُ في غياهب نومٍ كالإغماء، فلم أشعر بها وهي تنسلُّ من تحتي وتتسلل من غرفتي، وتترك خلفها بابي مفتوحًا.. وقت الظهيرة استفقتُ فزعًا عندما دخلت عليَّ من بابي المفتوح عمتي «تمنّي» أعني زوجتي وأم ابنتي، وهي تمور مثل إعصار فيه نار. صرخت فيَّ بصوتٍ كالهزيم: ماذا فعلت يا مطيع؟ تقتل بيدك! متى صرتَ من جملة المجرمين؟

ـ هو الذي أجرم واعتدى على حرماتي، فماذا عساي أفعل؟

ـ بِعْه. اتركْ غيرك يؤدِّبه أو يعاقبه بالقتل، ولكن لا تلوِّث يدك بدمه. أم تراك جُننت.

ـ نعم، جننتُ. فماذا تريدين الآن؟ وما الذي جاء بكِ من الفسطاط؟ ماذا تريدين؟

ـ أريد مطيع.. أريد مطيع الذي أعرفه.

أجهشتْ وانفجر منها من بعد الغضب البكاءُ، واستدارتْ مسرعةً. ابتعدتْ عني كأنها تهرب مني ولا تنوي العودة، ولعدة أسابيع بعد تلك الواقعة المريعة، بقيتُ ذاهلَ اللب، تائهًا، سادرًا في فراغٍ مثل المسلوب المدهوش المفجوع. نهاراتي شرودٌ وعزوفٌ تامٌ عن

الكلام، وليلاتي أرقٌ ومعاناةٌ لما أعاينه خلال خطفات الوسن من جوائم وكوابيس. وعرفتُ آنذاك دون أن أعي ما عرفتُ، أن «سهيلة» صارت تأخذها نوباتٌ من الصرع، فلم أهتم. وطمَّت البلايا عليَّ، وعمَّت على الجميع، عندما دخل الشتاء الذي لم يَرَ الناسُ في مصر مثله من قبل، وقد لا يرون مثيلًا له مستقبلًا.

كانت حدود البلاد مضطربةً في نواحي الغرب منذ فترة، بسبب ثورة «الوليد بن هاشم» المعروف بلقب أبي ركوة، ضد منصور الحاكم بأمر الله. وكان هذا الثائر قد تحالف مع قبائل بني «قُرَّة» الناقمة على الحاكم، وقاموا معًا برفع راية السُّنة في مواجهة الشيعة، والعروبة ضد الصقالبة والمماليك الأتراك. وتحت تلك الراية المزعومة سعى «أبو ركوة» للسلطة والحكم، ونشر في الأنحاء الفوضى.. وفي ابتداء أمره امتلك زمام «برقة» ثم زحف إلى الإسكندرية وهزم جيش «الحاكم» الذي حاربه هناك، ثم ذهب بمن معه من المقاتلين إلى «الفيوم» فاجتاح نواحيها ونهبها.. والفيوم قريبة من «الجيزة» وتبعد عنها بمرحلتين فقط، يعني مسيرة يومين، وداري بالجيزة تقع عند حَدِّها الغربي. وستكون أول ما يقابله «أبو ركوة» الذي وردت الأخبار وتواترت، بأنه زحف فعلًا نحو الجيزة. وآنذاك، لم يكن «أبو ركوة» يعلم أن «الحاكم» يستدرجه إلى الجيزة بحيلةٍ خادعة، إذ جعل وجوه الرجال وقادة الجيش وشيوخ القبائل ومشايخ أهل السنة، والشيعة، يبعثون بالرسائل السرية إلى «أبي ركوة» فيؤكدون له أنهم على مذهبه وميَّالون إلى الدخول في طاعته، ويشتكون من سلطان الحاكم ويدَّعون أنهم يتمنون الإطاحة به وتدمير دولته. فأعجب ذلك الحال «أبو ركوة» وانخدع به، فأسرع بمن معه من

المقاتلين إلى الجيزة، كي يجتاز منها إلى الفسطاط ثم يقتحم القاهرة بمساعدة هؤلاء الذين يكاتبونه سرًّا. وأرسل الحاكم عساكره إلى الفيوم، وعلى رأسهم القائد «فضل بن صالح» فهزم رجال أبي ركوة هناك، وأرسل رءوسهم المقطوعة إلى القاهرة، فطاف بها الجند الشوارع. وفي الوقت ذاته، حشد الحاكم جيشه بالجيزة تحت قيادة «عليّ بن فلاح» فسار نحوه أبو ركوة، لكنه حين سمع بانكسار شوكته في الفيوم، عاد إليها ليستردها من عسكر «الحاكم» فكبس عليه هناك الجيش، وانتصر عليه. واضطُرَّ «أبو ركوة» إلى الفرار بعد أن قُتل من رجاله ستة آلاف، وأُسر مائة رجل جاء بهم جيش الحاكم إلى القاهرة والفسطاط، وطيف بهم وعوام الناس تصفع أقفيتهم وتنتف لحاهم، وفي خاتمة الطواف بهم ذُبحوا بالسيوف في الشوارع. أما صاحب ثورتهم «أبو ركوة» فقد فرَّ إلى الصعيد ثم التجأ إلى النوبة، فقَبض عليه هناك القائدُ «فضل بن صالح» وأرسله إلى القاهرة، فطيف به وعلى رأسه الطرطور، وصُفع وأُهين من الناس، ثم حُزَّت عنقه.

وخلال الشهور التي جرت فيها هذه الدواهي بالبلاد، كان الأسلم أن نقيم جميعًا في داري بأطراف الفسطاط. فازدحمت الدار التي ما ظننتُ أنها سوف تمتلئ يومًا بالآهلين، لرحابتها وكثرة حجراتها التحتانية وغُرفها السطوحية.. حتى عبيدي، ضاقت عليهم الأحواش الملحقة بسور الدار، لكثرتهم، فصار بعضهم يبيت ليلًا في العراء.

وكانت «تمنّي» تخاصمني من يوم قتلي العبد الأرعن «عصفور» وتعتزل الجميع في غرفةٍ صغيرةٍ بزاوية سطح الدار، فلا تفارقها، وما عادتْ تطل عليَّ لتطمئن مثلما كانت تفعل طيلة العمر. وعرفتُ أنها تزداد كل يومٍ نحولًا، ويكسوها الاصفرار، وجفَّ لبن الرضاعة

من صدرها فصارت تضع الوليدة في حِجْرها، وتبكي.. لما استفقت رويدًا مما مرَّ بي، أوجدتُ لابنتي منها مرضعة، ولما طال خصامها أردتُ أن أنهيه إكرامًا لكل ما كان، فدخلت الغرفة عليها ساعة الغروب.. أشاحت «تمنِّي» بوجهها عني إلى الجهة الأخرى، فجلستُ إلى جوارها وحاولتُ أن أقترب منها أكثر، فابتعدتْ عن السرير وبقيتْ واقفة بزاوية الغرفة وهي تولي إلى الحائط وجهها. قلت لها: وماذا بعد؟

ـ لم يعد هناك بعد، وربما لم يكن قبل. فأنا لا أعرفك.

ـ كيف.. ولماذا تفعلين كل ذلك؟

ـ لماذا! لأنك ظلمت، وتجبَّرت. وقتلت المسكين.

ـ مسكين! لو فعل معكِ ما فعله معها، لكنتِ ستقولين: المجرم.

ـ ما كان لأي رجل أن يفعل معي ما يشين، فأنا لا أمازح أحدًا كلما سنحت لي الفرصة.

ـ ماذا تقصدين؟ هل كانت «سهيلة» تمزح معه؟

ـ ومع غيره..

أشعل كلامها النار في بدني وقلبي، فقلتُ لها إن الغيرة تعميها فتدعوها إلى رمي المحصنات، ولن يغفر لها الله ذلك، وأنا لن أغفره. استدارت إليَّ بوجهها فهالني شحوبه، وبدت بالاسوداد الذي تتشح به، كأنها زائرة وفدتْ من دهاليز الموتى. لم تنطق بشيء، لكن نظرتها كانت تقول الكثير، الخطير. خرجتُ من أمامها إلى غرفتي،

واستدعيت «بان» الخادمة وسألتها أن تخبرني إن كانت «سهيلة» تمازح الرجال حقًّا؟ فأجابتني بأنها لا تعرف، ولا ترى شيئًا ولا تسمع ولا تتكلم. أثارتْ غيظي فزعقتُ فيها حتى ارتجفتْ خوفًا، وقالت لتتخلَّص مما هي فيه: اسأل «طريزة»..

جاءتني «طريزة» بوجهٍ جاد لم أعهده، فتوقَّعت ما سيكون منها. لم أقل شيئًا قبل أن أمسك بأطراف أصابعي دينارًا يلمع ذهبه، وألقيه إليها. ابتسمت. فقلتُ: هذا لكِ، وسيكون لكِ غيره إذا قلتِ لي الحقيقة، هل رأيتِ «سهيلة» تمزح مع أحد؟

ـ مع الجميع يا سيدي..

ـ أقصد مع الرجال.

ـ مع جميع الرجال يا سيدي، كلما سنحت لها الفرصة.

ـ كيف؟ وهي الهادئة المنكسرة المسكينة.

ـ أمامك يا سيدي، فقط.

متخابثةً، جاءت «طريزة» نحوي وجلست على الأرض عند قدمي، وقالت وهي تهزُّ كتفيها وتلعب بحاجبيها كأنها تبوح لي بسرٍّ أنثويٍّ مريع، إن معظم النساء يُحببن محادثة الرجال وممازحتهم، والقرب منهم والاحتماء بهم. وبعضهن يسعدن بالمهارشة مع أيِّ رجلٍ، بلا تفرقة بين حرٍّ وعبد، أو بين كبير وحقير. فكلهم في النهاية ذكور، والذكورة تحرك رواكد الأنوثة وتفتِّح ورودها: وكانت «سهيلة» عندما أتيت بها يا سيدي إلى الدار، تخاف وتتَّقي، فلما أصبحت «أم ولد» لن تُباع أو تُشترى، تخلَّت عن الحرص القديم واستهانت بالجميع،

خصوصًا حين أخذتها إلى «أبو النمرس».. اشتد غيظي من كلامها وانكشاف أسرار داري أمامها، وتزايد حنقي حتى بلغ المدى، فألقيتُ بدينار آخر في حجرها ودفعتها عني بقدمي وقلت: اخرجي في التوِّ من بيتي، ولا تعودي إليه أبدًا.

صرتُ حاد الطباع مع جميع الذين حولي، ومع نفسي، وانقطعتُ عن التردُّد على الحمَّامات ومنعتُ نسائي من الخروج إليها، وإلى غيرها. وحظرتُ عليهن رؤية الرجال بالكلية، والكلام مع أيٍّ واحد منهم، ولو كان خادمًا أو خصيًّا. وعافت نفسي الخلاعة التي تزايدت في الأسواق والحمَّامات عن الحد المقبول، بل فاقت كل معقول. حتى صار الناس يتظاهرون في العلن باحتساء المسكرات وعبِّ الخمور، دون حياء، ويتعرَّون بلا مئزرٍ في الحمَّامات رجالًا ونساءً، وينغمسون تمامًا في اللهو والانحلال. وكان ذلك يشعرني بقُرب قيام القيامة.

ثم وقعت على رأسي الطامةُ الكبرى في ابتداء شهور الشتاء، وتحديدًا في غُرَّة المحرم من العام المشؤوم، السابع والتسعين بعد الثلاثمائة للهجرة. إذ هبَّت على النواحي رياحٌ صرصرٌ عاتية، كتلك التي أهلكت «عادًا» والقرون الأولى والممالك القديمة، وقذفت السماءُ الأرض بالأمطار الغزيرة ومعها كرات كبار من البَرَد لم يُر مثلها بهذه البلاد، فكانت تلك الكرات تقصف الأنحاء وتقصِّف فروع الأشجار وتكسِّر خشب النوافذ، كأنها حجارة من سجيل يرميها من علٍ الطيرُ الأبابيل. ارتجفت قلوب الناسِ واضطربت أمورهم، وتوهَّم بعضهم أن العالم خرب وأوشك انبعاثُ الموتى من بعد طول رقاد، فانهمكوا في تلاوة الأدعية والابتهال لاستنزال الرحمة.. في غبش

الفجر كَثُرَ اندفاقُ مياه المطر حول الدور، وانسربت من فُرج أبوابها مهدِّدةً بإغراقها، فخرجتُ من داري مكشوف الرأس لمساعدة العبيد والخدم في نزح المياه وحماية ما حول البوابة بأجولة الرمل، لصدِّ المياه الدافقة. وكذلك فعل كل جيراني. وعندما انتهيتُ من ذلك بعد معاناة، أسرعتُ إلى حجرتي التحتانية لتبديل ملابسي التي اتَّسخَتْ وتهرأت. وحين خرجتُ من الحجرة متدثرًا بما يُدفئ، رأيتُ الثلوج تكسو رحبة الدار والبَرَد يستمر هطوله على هيئة صفائح زجاجية الشكل، وكراتٍ مثل بيض الدواجن. ووجدتُ أمهات أولادي وأطفالهن، والخادمات، واقفات يرتجفن خوفًا ويرتعدن من شدة البرد، في حجرة الطبخ.. أين تمنِّي.. دهمني فجأة خاطرٌ مريع، وزاعقًا أمرت خادمتين بالصعود إلى سطح الدار لتأتيا بزوجتي المنزوية عني بغرفتها العلوية، فما كادتا تصعدان السلم وتريان السطح حتى صرختا بصوتٍ فزِعٍ، مفزعٍ، زاده هزيمُ الرعد رعبًا. أسرعتُ الصعود فصعقني ما رأيت.. رأيتُ الخادمتين ترتعدان في وسط السطح أمام كومة بياضٍ، تحتها زوجتي مستلقية على وجهها وفوقها البَرَدُ يعلو بارتفاع شبرٍ، وقد تراكم وتماسك حتى صار جليدًا. تسمَّرت لحظة من هول المنظر، ثم جريتُ كالمجنون نحوها وأزحتُ الثلوج وحملتها إلى تحت، ومن حولي يتعالى صراخُ الخادمات والنسوة، وعويلُ الأطفال. دخلتُ بها حجرة الضيوف وحاولت تحريكها آمِلًا في إنقاذها، لكنها كانت مُتيبِّسة الأعضاء متخشبة البدن، زرقاء اللون حاولتُ.. لكن «تمنِّي» كانت ميتة.

سقطت قواي وذهل عقلي، فلم أقوَ على إقامة العزاء لزوجتي. محبوبة عمري، روحي التي انتزعتْ مني، أم ابنتي الرضيعة: «تمنِّي».

بقيتُ طريح الفراش، أتقلّب بين الحضور والغياب. لا ميتًا فأُنعى ولا حيًّا فأُرجى. لا أشعر إلا برعدة المحموم وحميم الجحيم، وغليان الخواطر المغرقة فيما يشبه الموت. أو هو الموت. أستفيقُ فأسأل نفسي: هل قتلتها يوم قتلت العبد عصفور؟ لماذا خَرَجتْ من غرفتها إلى وسط السطح الثلجي برداءٍ خفيف؟ وكيف لم تقاوم بالأغطية عصف الريح وهطول البَرَد والجَمَد؟ أتراها أرادت أن تموت، أم كانت تريد رؤية «تمنّي» الرضيعة النائمة في حضن المرضعة؟ أم كانت تحتاج إليَّ؟ أم كانت تفرّ مني بمفارقة الحياة؟

بقيتُ على تلك الحالة فترة امتدت لأسبوعين أو ثلاثة، أو أكثر. لا أدري. تطنُّ في جوف أذني أصواتٌ صارخة، تعلو وتعلو ثم فجأة تسكت ويسودُ سكونُ القبور من حولي، وفي داخلي. فأغيبُ في إغماءٍ غريب، لا أدري معه إن كان ما يتراءى لي حقيقة، أم هو خيالات وتوهمات ولا أعرف إن كنت الآن في صحوٍ أم أخذني الوسن. أرى وجوه أناس لا يشبهون البشر، ينظرون نحوي ولا يتكلمون، وفجأة يصرخون ويقتربون مني، ويغوصون فيَّ، فأصيرُ هم. وأراني أسيرًا في بلاد الصقالبة والنخاسُ يشكو من كونه لا يجد من يشتريني، ولو بدراهمَ معدودة، ثم أراني وقد صرت بحرًا مطمورًا بالرمال وبالثلوج، في باطن صحراء لا حياة فيها. فأقوم من نومي فزعًا لأرى أطياني تُنبتُ أشواكًا وشجر زقوم، فأقوم لأرى امرأتي «سُهيلة» هانئة في حضن العبد «عصفور» القتيل ورمحي مغروس بصدره. فأقوم لأرى ولدي «عبد الله» يلعب في رحبة الدار، والناس من حوله يقهقهون لأنه يشبه العبد المقتول.. أراني أقف أمام بوابة داري عاريًا.. وأراني في حفرةٍ سحيقة، ليس معي فيها إلا منصور الحاكم، يقتلني بسيفٍ قديم صدئ

وأقتله بحَرْبِةٍ، فنموت، ونحيا ثانيةً بعد حين فنتطاعن ونموت مجددًا، ثم نحيا ونموتُ.. ولا يهلكنا الدهر.

انتبهتُ حين عادني «حسام بن يانس» بعدما عاد من رحلة تجارية وعلم بما ألمَّ بي. جاءني في الصباح، وقد تدهورت صحتي ووهنت قواي حتى ضعفتُ عن الكلام معه. دخلتْ عليه «بان» الخادمة بكوب فيه شراب السكر والليمون، فطلب منها إحضار أبنائي وبناتي ليعطيهم هداياهم والحلوى التي أحضرها معه. سمعتُ ما طلبه من الخادمة بالكاد، وكدتُ أغيبُ من جديد عما حولي، لولا أنه راح يحمل أطفالي وبأيديهم الحلوى، فيضعهم على السرير من حولي فيمرحون، ولما رآني انتبهتُ قال بوجهٍ جادٍّ وصوتٍ غير معتادٍ منه: صغارك هؤلاء، ليس لديهم غيرك، فلا تتركهم وتذهب، فيتعذَّبوا من بعدك.

عبارته الموجعة دفعت عني بالألم الآلام، فتحاملتُ وتحمَّلتُ الدوار العاصف برأسي، حتى استويت جالسًا على السرير. تزحف نحوي أطفالي الخمسة كالذرِّ، وراحوا يُقبِّلون وجهي فبكيتُ رغمًا عني، وخجلتُ من بكائي أمام صاحبي، فضحك بلطفٍ وهو يقول إن الدموع مودعةٌ في الأعين كي تسيل في بعض الأحيان. وراح يحادثني بلطيف العبارات ويلقي على مسامعي ظريف الحكايات، حتى سايرته.. قال إنه جائع لأنه لم يفطر إلى الآن، وقد حان وقتُ الظهيرة، فطلبت له الطعام فأقسم ألا يأكل إلا إذا أكلت معه، فتناولت لقيمات. وألحَّ عليَّ في تناول الحلوى، فمضغتُ منها شيئًا يسيرًا. فلما شعرتُ بطعمها أحسستُ بالظمأ، فسقاني وقال: أحتاجك في شيءٍ عاجلٍ ومهم.

ـ خير يا حسام؟

ـ النواحي قد هدأت بعد هزيمة «أبي ركوة» وهروبه، وسوف تنكسر موجة الغلاء بعد مجيء الفيضان القادم ونمو الزروع، وأريد الآن شراء أطيان بجوارك في «أبو النمرس».

ـ طيب.. خير.. فكرة جيدة.

ـ أريدك أن تذهب معي يا مطيع، لتشير عليَّ بشراء الأجود من الأطيان، فأنت خبيرٌ بذلك.

ـ لكنني لا أستطيع الآن مفارقة الفراش.

ـ ليس الآن، غدًا في الصباح سأمرُّ عليك ونذهب معًا، ولن نتأخر هناك. وليتك تقوم معي الآن وتترك هذه الحجرة، فنجلس ساعة نستقبل فيها الشمس والهواء أمام الدار، فالطقس اليوم صحوٌ.

خرجتُ معه متباطئ الخطو، وفي الصباح ركبنا إلى «أبو النمرس». لم يكن يريد شراء أطيان هناك، وإنما احتال بذلك لإخراجي من داري ومما كنتُ فيه. وحسنًا فعل، فقد استعدتُ رويدًا قواي واستفقت من دوار الأفكار، بل استطاع خلال اليوم انتزاع ضحكاتي بحكاياته اللطيفة الطريفة. وحين تماوج ما بداخلي واحتجتُ إلى البوح قصصتُ عليه القصص وأخبرته بما جرى، فاستمع لي باهتمام حتى انتهيتُ من الحكي. نكت بعصاه ما بين قدميه من التراب ثم قال إنني لم أخطئ فيما يخص قتل العبد، فهذا يردع غيره. ولم يكن من الصائب بيع هذا الأرعن، لأنه سيحكي ما كان، ويزيد عليه، والناس في نواحينا هذه يحبون حكاية الفضائح.. سألته متحيِّرًا: وسهيلة؟

وزوجتي التي ماتت غاضبة عليّ؟ فلم يتوقف عند ذلك كثيرًا، واكتفى بقوله إن هذا شأن النساء فلا تشغل بالك بهن بأكثر مما تريده منهن، فمن يجعلهن شغله وتجاراته تعظُم خساراته..

مع مرور الأيام وتكرار التجوال مع «حسام بن يانس» استعدتُ قواي وعافيتي وعدتُ لسابق عهدي، مع ندبة غائرة في القلب لفقدان «تمنّي» وافتقادي لتلك الطمأنينة التي كانت، فبانت.. وخلال تلك السنة، الثامنة والتسعين وثلاثمائة، اشتد الغلاء في الأنحاء واشتد منصور الحاكم على النصارى، لأنهم اغتروا بسلطة «ستّ المُلك» وخاليها البطاركة، فتجرءوا، فقمعهم وبالغ في ذلك كالمعتاد منه في مثل تلك الأحوال. حتى إنه منعهم من تزيين كنائسهم والاحتفال بأعيادهم. ولما بلغه أنهم صاروا يقومون بالحج في موكبٍ احتفالي، كالمسلمين، ويرفعون الأعلام ويتعالون بالترانيم فرحًا بذهابهم إلى الكنيسة الكبرى ببيت المقدس، المسماة عند المسلمين واليهود «قمامة» لأن موضعها كان قبل بنائها مجمعًا للقمامة. ويسميها النصارى «قيامة» لأن بموضعها قام المسيح من بين الأموات، حسبما يعتقدون. هدمها. خصوصًا بعدما علم من الجواسيس أن القساوسة يقومون هناك بحيلةٍ لخداع العوام من حجاج النصارى، بأن يعلقوا في مذبح الكنيسة القناديل وبها دهن البلسان والزئبق، فيسطع منها نورٌ باهرٌ يزعمون أنه النور الإلهي. فاغتاظ الحاكم منهم وأمر بهدم كنيسة القيامة المسماة القمامة، وكاد يهدم بقية الكنائس بعموم البلاد. لولا أن العقلاء من المحنكين رأوا أن عاقبة ذلك ستكون خطيرة، وحذَّروه من أنه لو فعل ذلك فإن ملوك الروم سوف يهدمون ما في بلادهم من المساجد، ردًّا على هدمه الكنائس فعدل عما كان يريده استصوابًا منه لهذا الرأي، واتقاءً للتفاقم.

وقبل اختتام شهر رمضان من تلك السنة، وتحديدًا يوم الجمعة السابع والعشرين من ذاك الشهر، توفي جدّي «أنس» في يوم اشتد فيه الصيفُ بالحرِّ الخانق، حتى صارت الأرض كالمقلاة والهواء كاللهيب في جوف الفرن. وأقيم له العزاء بساحة جامع جدّي العتيق، وحضر خلقٌ كثيرون للتعزية في المتوفى، وكان من بينهم أستاذي القديم «ابن يونس».. بعد أدائه واجب التعزية، مشيتُ معه احترامًا له حتى يصل إلى مربط الدواب حيث ينتظره الحمار الذي جاء به. وفي طريقنا القصير، سألني عن أحوالي وأجاب بدلًا مني! قال: كيف حالك في هذه الأيام الحالكة يا مطيع، علمتُ أنك هجرتَ المعارف والعلوم وتركتَ الكتب، واشتغلت بالزراعة والمال والتجارة، يا مسكين ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾..

ـ صدق الله العظيم. لكنه الاضطرار يا سيدي، وليس طلب الدنيا..

ـ الدنيا، النفس الأمَّارة، المعايشُ، الأوهام. أعداؤنا يا مطيع كثيرون، فاحذرهم، ولا تنخدع بزخرف هذه الدنيا الفانية، فالزَّبَدُ يذهب جُفاء. آه واللهِ، كل شيء يذهب جُفاء.

ـ أهذا حمارك يا سيدي؟ أين البردعة؟ هل تركبه هكذا من دون بردعة أو لجام!

ـ هو يعرف الطريق إلى داري، أكثر مني، وأنا لا أحتاج معه إلى برادع. دع عنك هذا واسمعني، فعندي خبرٌ مهم.

ـ خير يا سيدي، ما هو.

ربت على ظهر حماره، وأحاط عنقه بذراعه اليمنى كأنهما صديقان، وبعد أن أجال في نجوم السماء نظره، كالمشدوه، أخبرني بأنه قرأ كتابًا للحسن بن الهيثم في الحيل. يقصد في عمل الآلات ذاتية التحريك والدواليب الدوَّارة، فوجد في الكتاب وصفًا لإحدى الحيل الهندسية التي يمكن بها رفع مياه الأنهار إلى المزارع إذا انخفضت عند نقص الفيضان عن المقدار اللازم للزرع.. وبلغه نقلًا عن «ابن الهيثم» أنه قال: لو كنت بمصر لعملتُ على نيلها عملًا يحصل به الخير ويمتنع معه الخراب عند زيادة الفيضان عن المقدار النافع للزرع.

وقد نقل «ابن يونس» للحاكم، ما بلغه من كلام ابن الهيثم. فاهتمَّ الحاكم بذلك وهمس بأنه سيدعو ابن الهيثم للمجيء إلى مصر.. قلتُ مستفهمًا: وهل سيوافق ابن الهيثم على المجيء من العراق؟ فأجابني: هو لم يعد يعيش بالبصرة، فقد ضيَّق عليه العراقيون سُبل العيش هناك، فهجرهم.

ـ وأين يعيش الآن؟

ـ في الشام. ينزوي بها منذ أعوام، ويعيش كالنُّسَّاك وأهل الزهد. فهو لا يريد الحياة الدنيا وحظ قارون منها، لأنه أكثر منك حكمةً. يا ألله. عُد يا مطيع إلى المعارف والعلوم، فهي أفضل لك مما أنت فيه. أراك على خير قريبًا، وقد لا أراك إذا أدرك الموتُ أحدنا.

اعتلى «ابن يونس» ظهر حمار واستوى جالسًا وهو سعيد، كأنه سلطان يجلس على العرش. وزيادةً مني في توقيره، سرتُ إلى جواره

خطواتٍ حتى حثَّ الحمار بكعبيه، فانطلق به. وعندما عدتُ إلى موضع التعزية، سمعت القارئ يتلو الآية ﴿ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ والسامعون ما بين مطروب الأذن ومضطرب القلب بسبب التلاوة المتفنِّنة التي أعادها القارئ ثلاث مراتٍ، مجوِّدًا جلستُ في الركن وتدبَّرت الآية فاحترتُ، وتعجَّبتُ منها ثلاثًا، الأولى لقوله تعالى ﴿سوَّاها﴾ مع أن نفوس معظم الناس ليست سوية. والثانية لقوله إنه تعالى يُلهم بالفجور، قبل التقوى، والثالثة لأن بقية الآية تقول ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسَّاها﴾، فلم أقع على معنى معقول أو اشتقاق مقبول، لكلمة ﴿دسَّاها﴾ التي تعسَّف المفسرون في تأويلها وذهبوا كل مذهب، لكنهم لم يقدِّموا قولًا معقولًا أو مقبولًا. ولمَّا لم أجد ما يُذهب التعجُّب، أسلمتُ للمولى الأمر، قبولًا لقوله تعالى ﴿الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.. لكن ذلك أنبت بذهني المُنهك محيراتٍ أخرى.

بقيت الأفكارُ تتأرجح في رأسي حتى انتهى وقت العزاء، فعدتُ إلى داري محاطًا بالإحساس بفقدان الأحبة تباعًا. جدّي خلف، ثم محبوبتي «تمنِّي» والآن جدّي أنس. وتتالت عليَّ حتى انتصف الليل خواطرُ كثيرة، لم يكن من بينها ما قاله لي «ابن يونس» عن دعوة ابن الهيثم إلى مصر، وإمكان تلبيته هذه الدعوة. ولم يخطر ببالي ولو من بعيد، أنني سوف ألتقي بابن الهيثم. بل وألازمه وأصحبه، طيلة السنوات الثلاثين التالية. كنت غافلًا عن المسطور في كتاب الغيب، وعن المستور عن أفهام الخليقة. ولا مناص عن تلك الغفلة، لنستطيع أن نحيا، ولينفرد الخالق وحده بمعرفة الغيب المخبوء للخلائق.

الحكيم

عجيب. كأن الأقدار كانت تُعدُّني من دون أن أدري، لملاقاة العلامة «الحسن بن الهيثم» أو بتعبيرٍ أدق تُهيئني لصحبته، فقد أدخلتني نهايات السنة الثامنة بعد التسعين وثلاثمائة وبدايات السنة التالية عليها، في أحوالٍ لم تكن في الحسبان. إذ تلاحقت أمورٌ لم أدرك أثناء وقعها ما بينها من صلة، فظننتُ أن الحادثات تجري كالمنايا خبط عشواء.

وكان أول ما وقع بعد وفاة جدّي «أنس» بأيام، وهو ذلك السيل الذي اندفق ماؤه الهادر من فوق «المقطم» محملًا بالأحجار الكبار والصغار، فأغرق الفسطاط. لا سيما الناحية المنخفضة منها المسماة «عمل تحت» وردم حارة الروم، ومات المئات من الناس تحت الردم. وسلمت داري وما حولها، لكونها فوق ربوة. وأوحى هذا السيلُ لكثيرين، بأن الفيضان سيأتي في الصيف وافيًا فتصح الزروع، وهذا اعتقادٌ لا دليل عليه، لكنه سرى بين الناس فتزايد طلبهم على الأطيان، وسارع التجار بالشراء الآجل للمحاصيل وأجزلوا للزراع المبالغ المقدمة.

كنتُ جالسًا على سطح الدار أنظر نحو أعالي المقطم، وأتأمّل

ما جرى معي خلال العامين السابقين. وأثناء ذلك جاءتني جماعة من أهل «زويلة» يعرضون عليَّ شراء بعض أطياني في الجزيرة و«أبو النمرس» إن أردت، بثمنٍ كبير. استغربت من عرضهم لأن الأطيان لم تكن برسم البيع، ولم يخطر ذلك ببالي. استمهلتُ يومين لأرد على مطلبهم، وذهبت عصرًا إلى القاهرة لأستشير «حسام بن يانس» فأشار عليَّ بالبيع ومشاركته بالمال في التجارة، لأن معظم الرزق فيها. ودعاني للذهاب إلى الحمَّام الكبير القريب من منزله، فذهبت معه دفعًا للملل ولاحتياجي للصحبة، مع أنني كنتُ قد قاطعتُ الحمامات وقطعتُ عنها حريم داري.

وجدتُ الحمَّام هادئًا ورواده متأدّبين، فاستغربتُ صلاح الحال واعتقدتُ أن هذا الحمَّام مختلف. لكن «حسام» وصاحبه «غادي» أخبراني بأن الحمَّامات كلها صارت كذلك، فقد أمر الحاكم بمعاقبة كل من يتعرَّى عن المئزر في الحمّام. سألت «حسام» عن العقوبة المقررة، فضحك وهو يقول: وهل عند الحاكم عقوبة إلا القتل؟! ثم تطوَّع غادي الصقلبي بالشرح مضيفًا، ما كنتُ أعرف معظمه: خلال ثورة «أبي ركوة» التي استمرت وقائعها عامين، ورُفعت فيها راية «السُّنة» في مواجهة «الشيعة» استشعر الحاكم خطر انشطار المسلمين بين المذهبين، وأبطل مجالس الدعوة للمذهب الشيعي، ولاطف أهل السنة بطرق عديدة. فلما اندحر «أبو ركوة» فرح الناس ومال بهم الفرحُ إلى الانحلال وإظهار المجون، وبالغ أهل السنة في إغاظة الشيعة بطبخ الملوخية تذكيرًا بمعاوية، والمتوكلية تذكيرًا بالمتوكل العباسي. وبيع الجرجير والمناداة عليه بصوتٍ عالٍ تذكيرًا بعائشة، وأكِل سمك «الدُّلْنيس» المسمى عند العامة «قراميط» تذكيرًا

بالقرامطة أعداء الفاطميين. وفي المقابل من ذلك، بالغ الشيعة في سبِّ الصحابة وكتبوا السباب على حوائط المساجد، وتزيَّدوا في الاحتفال بيوم الغدير لإغاظة أهل السنة. وخلال هذا وذاك، ازدادت فوضى الناس وزادت الخلاعة وفشا الانحلال، فما كان من «الحاكم» إلا أن منع الشيعة والسُّنة مما كانوا يفعلون ذلك كله، وهدد بالويل كل من يخالف أوامره. وقد قتل بالفعل رجلًا سبَّ الصحابة، ورجالًا شربوا خمر الفُقَّاع علانيةً.. وأضاف حسام: ويقال إنه ينوي أيضًا إغلاق حمامات النساء، وسوف يمنع خروجهن من البيوت بالكلية ويحظر على السقائين والباعة من الرجال، دخول البيوت والتعامل مع النساء.

كنتُ أثناء حديثهما أتدبَّر في نفسي أمرًا، ولما سطعتْ في رأسي الفكرةُ قاطعته بقولي: اسمع يا حسام، سوف أبيع الأطيان والدور في الجزيرة و«أبو النمرس» وكذلك العبيد: فقد مللتُ من الزراعة ومن التوزُّع بين الديار، وسوف أستقر بالفسطاط.

ـ خيرًا تفعل، وهل ستشاركني في التجارة؟

ـ لا، لكنني سوف أشيع ذلك بين الناس. حتى لا يقال إنني أكنزُ المال في داري بالفسطاط، ويستهدفها السرَّاقون. وسوف أستبقي الدار التي بالجيزة.

ـ وماذا ستفعل بالمال؟

ـ سأخبرك بذلك فيما بعد..

كانت الخاطرةُ التي راودتني، ثم ازدادتْ سطوعًا ونصوعًا في

رأسي، هي أن جدّي «خلف» رحمه الله كان رجلًا حكيمًا، فقد أدرك أن المال الذي بين يديه يزيد عن احتياجنا، فدفنه تحت سريره. إذ ليس من الصواب المغامرة به في تجارة أو زراعة أو غير ذلك، خصوصًا أنه وحيد ووريثه صغير السن. وممارسة الأعمال، يلزمها العدة والعدد. واليوم، بعدما تضاعفت أموالي عدة مرات، حتى صارت تزيد عن احتياجي وحاجة أطفالي الصغار وأطفالهم من بعد. فما معنى المغامرة والمخاطرة بالخوض في الأعمال، والتكالب على المال من أجل المزيد والمزيد. والمال في حقيقة أمره كالماء المالح، لا يشفي غليل العطشان مهما عبَّ منه، بل يزيده عطشًا.

في الأسابيع التالية بعتُ الأطيان كلها والمنزلين اللذين بالجزيرة و«أبو النمرس» بثمنٍ غالٍ. وبعتُ العبيد واستبقيتُ منهم «عيد» و«سعيد» إذ كانا أحسنهم خُلقًا، والدار بأطراف الفسطاط تحتاج وجودهما. وبطبيعة الحال استبقيت الدار التي بالجيزة، وما حولها، لأن جدّي مدفونٌ خلفها وهو الذي بناها أصلًا. ولي فيها مع «تمنِّي» ذكريات. وبعدما أتممت بيع بقية الدور وكل الأطيان، شاركتُ «حسام» في تجاراته بمبلغٍ صغير، ودفنتُ الباقي بزاوية الحجرة التحتانية التي جعلتها خزانةً للكتب، وهي حجرة محكمة الإغلاق ولا يدخلها غيري، ولم أُخبر بذلك أحدًا. وبعدما انتهيتُ من ذلك كله، عاودتُ مطالعة الكتب وعدتُ للتردُّد على الحمَّامات وإلى مجالسة «ساويرس» و«صفوان» آونة المساء. فاسترحتُ من معظم الأحمال والأثقال، التي كانت تُطبق على صدري.

وصادفني التوفيق فيما فعلت، عن غير قصد. إذ دخل العام التاسع والتسعين بعد الثلاثمائة، فلم يكن مقياس النيل قد بلغ خمس عشرة

ذراعًا، وسرعان ما انحسر الماء فلم يصح الزرع. ومن ثم اشتد الغلاء. وزاد البلاء بسبب انتشار الوباء، فساءت الأحوال وانعدمت المعايش حتى أكل فقراء الناس الكلاب. واستمر غيضُ الماء، حتى انقطع سير المراكب في النيل وصار مثل المخاضة، وعطنت رائحته وكثرت الفئران. والله المستعان. وكنت بحمد الله في مأمن من هذا الضيق الحادث بالبلاد، بسبب التدبير المصادف للتوفيق.

وكان ابتداءُ العام يوم الأحد غرة المحرم، مميزًا ومليئًا بالأحداث. ففي الصباح الباكر كنتُ في القاهرة لتوديع «حسام بن يانس» الذاهب فجر الغد بتجارته إلى شمال الشام، فوجدته مبتهجًا جدًّا ومستبشرًا بالرحلة، ودعاني للإفطار في منزله مع والدته وأخته الصغرى.. كنتُ قد التقيتُ من قبل بأمه مرات، وهي امرأةٌ فاضلةٌ مضيافةٌ يبلغ عمرها الخمسين عامًا أو أكثر من ذلك بقليل، وهي مع ذلك فتيةٌ حسناء. أما أخته فكنتُ أعرف أن اسمها «صفا» لكنني لم أرها من قبل، ولم يخطر ببالي أنها بهذا القدر الباهر من الجمال. هي في حدود السادسة عشرة من العمر، ومع ذلك وقورةٌ وأنيقةٌ كالأميرات. حين دخلنا عليهما، كانت «صفا» جالسة بزاوية الحجرة، تنسجُ على قطعةٍ من الحرير بخيوطٍ من الحرير ذات ألوانٍ زاهية، زهورًا وأوراق شجر تمرح بينها طيورُ الطواويس. أبهج النسيج فؤادي فتوقفت أمامه متأملًا تفاصيله، وأطلت الوقوف، فقال حسام: هذا فنٌّ فارسيٌّ، تعلَّمت «صفا» أصوله من عجوزٍ شيرازية كانت تخدم أمي، وأتقنته مع الوقت، وهي تُزيِّن بهذه الرسوم المزركشة ستائر البيت والوسائد، فتجعلها كما ترى من حولك.. نظرتُ حولي فرأيتُ الجمال متجليًا في جوانب الحجرة الفسيحة، فقلت بلا تروٍّ: سبحان الله، هذا جمالٌ لم أر مثله من قبل.

ـ جمال الرسم يا مطيع، أم جمالها؟

ـ كلاهما يا حسام.

أثناء تناولنا الفطور عرفتُ من «أم حسام» أن ابنتها أمضت ليلتها أمام النول، وأنها لم تنم منذ أمس. تعجبتُ في نفسي، لأن إشراق وجه «صفا» وأناقة ردائها، لا يدلان على أنها سهرت حتى الصباح. وسألتُ أمها عن السبب في عكوفها على النول ليلًا لا نهارًا، فأجابت «صفا» بصوتٍ يسحر الأسماع، كأنه تغريد العنادل مصحوبًا بخرير الماء الجاري في جنادل الجنة: الليل أصفى، وأبعد عن صخب الناس.

فور خروجنا من المنزل سألت «حسام» إن كانت أخته مخطوبة أو محجوزة للزواج، فقال: لا، طَلَبها صديقي «غادي الصقلبي» للزواج فرفضتْ أمي قائلةً: كفانا من العسكر والجنود. و«صفا» وافقتها الرأي. سكت «حسام» لحظه ثم ضحك وهو يقول مازحًا: ولكن لا تفكر في الزواج منها، فهي لا تفعل في حياتها شيئًا غير الرسم بالحرير على الحرير.. قلت له: ولكنها أيضًا سوف تنجب أفضل الأطفال إذا تزوجت.

ـ نعم، عندك حق. وهي تحب الأطفال وتحنو عليهم، معتقدةً أنهم يكونون ملائكة، حتى يكبروا. هاهاها.

ـ يا حسام دعنا ننظر في عودتك.

ودَّعته وعدت إلى داري وحيدًا وقد ملأتني فكرةُ الزواج بهذه الفتاة ساحرة الحسن، بالبهجة.. وفي وقت الظهيرة من اليوم ذاته، جاءني من القصر الكبير مرسال من «الحاكم بأمر الله» يدعوني للغداء

معه يوم غدٍ، الاثنين، فاستغربتُ الدعوة. وبعد غداءٍ خفيفٍ ذهبتُ ساعة العصر إلى الحمَّام، فتحرَّكت عندي مع التدليك والتمريخ بالأدهان والطيب، الشهوة للنساء، من بعد طول خمودٍ. ليلتها، ولا أدري لماذا، طلبت من «سُهيلة» أن تشاركني الفراش، ففرحتْ وأتقنتِ الزينة وتفنَّنت في الغنج حتى اشتهيتها وأقبلت عليها، وكأن ما كان ما كان. ولا أدري لماذا قلت لها ونحن على السرير مستلقيان، بعد قضاء الوطر: كيف حالكِ الآن يا رقيعة، بعدما مُنعتِ من رؤية الرجال؟

ـ أنت يا سيدي كل الرجال. فما شأني بغيرك؟

ـ ما كنتِ كذلك قبل عام.

ـ كنت صغيرة بلهاء، وأمازح الجميع من دون استثناء. لكنني لم أرتكب يومًا معصية. والناس يا سيدي يتغيَّرون مع الوقت، ويتعقَّلون حين يكبرون.

ـ وأنتِ كبرتِ في سنة واحدة!

ـ الإنسان قد يكبر في ساعة واحدة، بحسب ما يتعلمه فيها.

نظرتُ نحوها مستغربًا نطقها بهذه الكلمات الحكيمة، وانتبهتُ في لحظةٍ من الوهج الذهني المفاجىء، إلى أنني في واقع الحال لا أعرفها أصلًا، ولا أعرف أمهات أطفالي الأخريات «زَهْرة» و«نَوْرة».. وكيف سأعرفهن مادمت لا أتحدث مع واحدةٍ منهن، وأعبس حين أراهنَّ ويتوارين حين يرونني، فيُعجبني ذلك وأعده من مظاهر التوقير الواجبة.. لا.. لن أديم حالي المعتل، فاقد المعنى، بل فاقد الروح.

قلتُ ذلك في نفسي، وقررتُ قبل نومي أن أبدأ معهنّ من الغد عهدًا جديدًا، يجعلني سعيدًا ويجعلهنّ راضيات.

في اليوم التالي، وصلتُ إلى القاهرة قبيل أذان الظهر، وأخذني الخدمُ إلى «منظرة السُّكَّرة» فوجدتُ الأمير عز المُلك المُسبِّحي ينتظرني هناك، وهو يومئذ يعمل مع الحاكم كمثل وزيرٍ له ومتولٍّ لديوان الترتيب. لم أكن قد رأيتُ هذه المنظرة من قبل، لكنني كنتُ قد سمعت عن جمالها، وليس السمع كالمشاهدة. فهي بالفعل، وليغفر الله لي، جنةٌ أرضية تنافس فراديس الخلد في الآخرة، وتسلب الألباب بزخرفٍ لا مثيل له.. قال لي المُسبِّحي إن «الحاكم» سوف يتأخر قليلًا فقلتُ لا بأس، وسألني عن أحوالي فأخبرته بحسب ما سمح به الحال. ولما امتدحتُ المنظرة البديعة، حاول أن يتبسم لي لكنه لم يستطع، وعلت ملامحه علاماتُ الحزن. وفي لحظة صمتٍ اكتست عيناه بدمع لم ينسكب، سألته عن سبب الحزن البادي عليه. فقال إن أم ولده عليلةٌ، وشفاؤها عسرٌ. فدعوت الله أن يلهمه الصبر، ويمنحها الراحة من المرض. وأردت مسايرته للتسرية عنه، فقلت: لابد أن في دارك نساءً غيرها.

ـ لا توجد في الدنيا نساءٌ غيرها.

ـ أنت إذن محبٌّ يا سيدي، وعاشقٌ.

ـ ومتيمٌ، ومسلوبٌ، وموَلَّهٌ، وهائم. قل ما شئت. والمكان هنا يذكرني بها، فقد كانت تحبُّ جلوسنا هنا، وتعشق هذه الورود الكبيرة الحمراء، وهذه الشجرة المزهرة.

بكى فجأةً، فاكتوى قلبي بنيران أحزانه، وبذكرياتي المؤلمة.. شردتُ مع خواطري حتى انتبهت لقدوم «الحاكم» علينا، وحوله

حرسٌ كثير. أوقفهم بعيدًا بإشارةٍ من يده، وجاء إلينا بوجهٍ متجهم تكسوه الهموم، فألقى السلام ثم جلس على كرسيِّه القريب وقال لي: كيف حالك يا مطيع، علمتُ أنك نفضت يدك من المعايش الدنيوية، فما الذي دعاك لذلك؟

ـ وجدتُ بيدي ما يكفي، ووجدتُ أن طالب الدنيا لا يكتفي، فكففتُ عن التكالب.

ـ أراك قد صرتَ زاهدًا مثل جدك «خَلَف» رحمه الله. ليت لي مثل هذا الحظ، وتلك القدرة على الاختيار.

ـ أراك مهمومًا يا أمير المؤمنين..

قال بنبرة غاضبةٍ لم أسمعها منه سابقًا، وبحرقةِ قلب مجروح: طبعًا مهموم يا مطيع، مهموم جدًّا، ألا ترى ما يعصف بالبلاد من قحطٍ وبلاء. الدولة ينخر بقلبها سوسٌ كثير، وميلٌ للفساد والإفساد. وخلف حدودها شرقًا وغربًا يكمن في العتمة المتربصون، ينتظرون الفرصة المواتية للانقضاض.

تدخل المُسبِّحي ملطفًا، فقال للحاكم إن المتربصين سوف يرد الله كيدهم، والأزمات في تاريخ الدول تشتد وتنفرج بعد حين. وبحمد الله، فإن حدود الدولة اتسعت حتى بلغت حواف العراق والمغرب، وسوف تزداد بإذن الله اتساعًا.

ـ إذن، سوف تزداد الهموم يا أمير. ولكن، أين المهرب؟ المهم الآن. هل علمتَ يا مطيع أنني دعوتُ العلامة المهندس «ابن الهيثم» للمجيء إلى مصر؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين، أخبرني أستاذي «ابن يونس» بذلك.

ـ جيد. وأنا الآن أخبرك بأنه وافق، وسيأتي إلينا قبل انتهاء هذه السنة، ربما بعد شهرين. وأريدك...

جاء الخدم بالسماط وعليه أطايب من الطعام، من دون بذخ، فقطع الحاكم كلامه لي قائلًا: نأكل أولًا.. أكلنا على هونٍ صامتين، وفي رأس كل واحد منا ما يشغله ويشرِّد فكره في نواحٍ بعيدة. وفور الانتهاء من الغداء رُفع السماط وعاد الحاكمُ لما كان يتكلم فيه، فقال بنبرةٍ أهدأ إنه مستبشرٌ بمجيء ابن الهيثم، وإذا نجح في بناء سدٍّ على النيل للتحكُّم في فيضانه، فسوف يعمُّ الخير على البلاد ويستأمن الناس من قلق التحاريق، إذا نقص ماؤه، ومن خطر الغرق إذا زاد فيضانه عن المقدار.. أضاف الحاكمُ: وظني أن هذا الرجل عبقري، فقد قرأت كتبه ورسائله في الهندسة وفي الفلك، فوجدته متقنًا، هل قرأت مؤلفاته يا مطيع؟

ـ قرأت منها رسالة أو رسالتين يا أمير المؤمنين.

ـ عليك بها. وكلها موجودة في «دار الحكمة» يمكنك قراءتها هناك أو الاستعارة منها، وقد أمرتُ «القيِّم» بأن يكون في خدمتك.

ـ سأفعل يا أمير المؤمنين، لكنك لم تخبرني بما تريده مني.

ـ أريدك أن تصحب «ابن الهيثم» بل تلازمه في كل خطوة، وأن تُعدّ ذلك العمل وظيفةً ديوانيةً لها راتبٌ معلوم، ولن أجد غيرك أنت والأمير «عز المُلك» لمثل هذه المهمة،

فلا ثقة عندي بغيركما. لكنه مشغولٌ معي في ملاحقة البلايا المتوالية على البلاد والعباد، وامرأته مريضة ولا يملك الابتعاد عنها، ولهذا احتجتُ إليك.

ـ هذا يشرِّفني يا أمير المؤمنين. ولكن بعد إذنك، لا أريدها وظيفةً ديوانية، ولا أحتاج الراتب.

ـ يا مطيع، افهم. ما سوف يفعله ابن الهيثم أمرٌ جليل، ويحتاج أموالًا وعُمالًا ونفقات كثيرة، ولابد أن يكون زمام تلك الأمور بيدك، كي لا تتعطل الأعمال أو تتعوَّق. وستكون مفوَّضًا مني لتوفير كل ما يلزم للإتمام، وهذه وظيفةٌ ديوانية لابد لك منها، لتكون مُطاعًا.

ضحك الحاكم فجأةً وقال ممازحًا: مطيع، مُطاع.. فقلتُ وقد رأيت الارتياح براوده: سأفعل كل ما تريد يا أمير المؤمنين.. انشرح قلبه لمَّا قلتُ ذلك، وردَّد مرتين: بارك الله فيك. ثم قام فقمتُ معه ومشينا خطوات، وقبل أن يعود للمسبِّحي الجالس في انتظار عودته إليه، أدهشني حين همس لي بنبرةٍ راضيةٍ، قبل مفارقتي له. قائلًا: بلغني أنك تفكر في الزواج من «صفا» ابنة القائد يانس الصقلبي، رحمه الله، وهذا جيد فهي فتاةٌ راقية وتليق بك، وأنت تليق بها.. وفقك الله يا مطيع، تصحبك السلامة.

تحيَّرت في كيفية معرفة الحاكم بحديثٍ عابرٍ جرى صبيحة اليوم السابق، ولم يسمعه مني إلا «حسام بن يانس». وبقيتُ فترة مُتحيرًا في ذلك، حتى أشفق عليَّ «حسام» من دوام الحيرة فاعترف لي بعد أن عاهدته على الكتمان، بأنه يعمل سرًّا مع «الحاكم» ويتخذ من

التجارة ستارًا للتجوال بين البلاد لمعرفة تفاصيل ما يجري فيها، ويخبره، وهو يُوصِّل سرًّا رسائل «الحاكم» للمرسلة إليهم، ويتلقى منهم الردود عليها. وكان هو الذي رتَّب خِفيةً، لمجيء «ابن الهيثم» من الشام إلى مصر.

في طريق عودتي من لقاء الحاكم، مررت بدار الحكمة فوجدتُ قيِّم الدار ينتظرني عند بوابتها الكبيرة. اسمه الأستاذ نُجيم. بعد أن رحَّب بي قلتُ له إنني أود الاطلاع على مؤلفات الحسن بن الهيثم، فخايلتْ قسماته ابتسامةٌ وهو يقول: أعرف.. سار معي فعبرنا الساحة الداخلية لدار الحكمة، وهي إيوانٌ كبيرٌ يقف على أعمدة رشيقة، محلاة بالنقوش والزخارف. ومفتوحٌ عليها أبواب قاعاتٍ فسيحة، حوائطها كلها مكسوَّة بأرففٍ خشبية تتراص عليها الكتب. وفي كل قاعة صنفٌ من صنوف الحكمة. فهذه لكتب اللغة وتلك لكتب التاريخ، وهذه لكتب الطبيعيات والفلك وتلك لكتب الرياضيات والمنطق والحكمة الفلسفية، وهكذا.. سألتُ القيِّم عن عدد المجلدات والرسائل بالدار، فقال إنها قرابة ألف ألف.

أخذني إلى قاعة فخمة التأثيث، رفوفها غير ممتلئة بالكتب مثل بقية القاعات سألته عن سبب ذلك فأجابني بأنها مخصصة للمؤلفين الذين على قيد الحياة، وما زالوا يكتبون. وأشار إلى المجاميع المتراصة على الأرفف وهو يقول: هذه كتب الأمير المُسبِّحي، وهذه الكتب لحكيم يعيش في بلاد الأفغان اسمه أبو الريحان البيروني، وهذه للطبيب الفيلسوف المشرقي ابن سينا، وهذه كتب أستاذك ابن يونس.. وتلك هي كتب ورسائل الحسن بن الهيثم.

وجدتُ لابن الهيثم أكثر من ثلاثين كتابًا ورسالة، متنوعة الموضوعات، فأوهمني ذلك بأنه شيخٌ أشيب، بلغ من العمر عتيًّا. لكنني عندما التقيت به أول مرة بالقرب من قرية «الخندق» لم أجد في فوديه ولا لحيته شعرًا قد شاب، بل بدا لي في حدود الأربعين من عمره، أو أصغر سنًّا من ذلك. لأن ضآلة بدنه وسماحة ملامح وجهه ولمعان عينيه، توحي كلها بأنه لم يتعد من عمره الأربعين. وبعد الصحبة، لما سنحت الفرصة وسألته عن ذلك بلطفٍ، قال وهو يندهش من سؤالي ويقلِّب في الهواء راحته اليمنى تعجُّبًا: سؤالك غريب، وعلى أيِّ حال، عمري الآن خمسة وأربعون عامًا.

عندما أخبرني «نجيم» القيِّم، في أول أيام تردُّدي على دار الحكمة، بأنهم يغلقون أبوابها قبل مغرب الشمس بساعةٍ. يقصد أن موعد الإغلاق اقترب. توقفتُ عن تصفُّح مؤلفات ابن الهيثم، وقلت له إنني سأعود إليه غدًا مبكرًا وأستكمل القراءة. في طريقي إلى داري عرجتُ على «القطائع» لشراء الحلوى لأطفالي وأمهاتهم من دكان «فرهاد الدَّبَّاس» المعروف بجودة صنعته. فرحوا بها وفرحتُ لفرحهم، وأمضيت الأمسية متأنسًا بحركتهم المرحة من حولي. ورسمت ليلتها لأمهات أطفالي، بأن كل واحدةٍ منهن سوف تبيت بحجرتي ليلة، تباعًا بصرف النظر عن أمر المجامعة.. فقد رأيتُ أن العدل الواجب بين الزوجات، يجب أيضًا لأمهات الأطفال، أولادًا كانوا أم بنات.. سألتهنَّ على سبيل المسامرة، أو المداعبة والتدليل، عمَّن ستبدأ المبيت معي، فتهامسن فتركتهن يقررن وقمت لصلاة العشاء، وعندما عدتُ أخبرنني بأنهنَّ اخترن «سهيلة» لأن «زهرة» الليلة ممعودة، و«نورة» معطوبة بما يعتري النساء كل شهر. في

حجرتي تعمدتُ أن أطيل مع «سهيلة» الحديث، وأفهمتها أنني تجاوزتُ عما كان منها سابقًا، فاستراحتْ. وتحاورنا في الأمور اليومية التي تشغلها، لأول مرة، ففرحتْ. وحين أعربت عن خوفها من مفاجأة نوبات الصرع لها، أفهمتها أنها حالات عَرَضية سوف تختفي مع مرور الوقت، فقالت: ليتها.. ودَسَّتْ نفسها في حضني، فاحتويتها بحنو حتى هدأت وأهدتني النهدين ثم أتاحت الحِمَى. ونمتُ ليلتها، لأول مرةٍ منذ فترة طويلة، مرتاحًا.

في الصباح كنتُ بدار الحكمة أقرأ مؤلفات «ابن الهيثم» وأندهش من قوة ذهنه وتماسُك أفكاره، ومن وضوح مفرداته ودقة تعبيراته، وإصراره على متابعة البحث ومداومة الاستقصاء. وجدتُ له رسالة تستحق الإعجاب، يردُّ فيها على نقائض «يحيى النحوي» المعروف باسم «يوحنا الجرماتيقي» وملاحظاته القوية، على آراء أرسطو وأقواله في كتاب «السماء والعالم» وما يتعلق بذلك من الطبيعيات المسماة في اصطلاح الحكماء: الآثار العلوية. ثم وجدتُ له رسالة أخرى يدل عنوانها على محتواها، ويدل محتواها على اهتمام ابن الهيثم بمتابعة استقصاء البحث، وضبط ما يتعلق به. عنوانها بحسب ما هو مذكور في بدايتها: رسالة إلى مَنْ نظر في نقدي ليحيى النحوي، فشكَّ في بعض المعاني الواردة فيه وجدتُ له رسالة أخرى في الرد على كلام «عليّ بن العباس» المعروف بابن فَسَنْجَس، في نقض أقوال المشتغلين بالفلك وعلم النجوم. تتلوها رسالة في رد ابن فَسَنْجَس على ردِّ ابن الهيثم عليه! ويتلو ذلك في المجلدة ذاتها: رسالة في ردِّ ابن الهيثم على ردِّ ابن فَسَنْجَس على نقد ابن الهيثم لنقض ابن فسنجس لبعض آراء وأقوال الفلكيين والمنجمين..

جاءني «نجيم» قيِّم الدار وجلس قبالتي بهدوءٍ، وبهدوءٍ قال مبتسمًا إنني منذ الصباح لم أتناول طعامًا ولا مشروبًا، وقد اقترب أوان العصر. وسألني إن كنت أحب أن يأتي لي بقطعة لحم مشوي ورغيف، من مطعم قريب. فقلت إنني تعودت على وجبةٍ واحدة في اليوم، عند الغروب، ولا أريد تغيير عادتي. نظر في عناوين الرسائل العلمية التي على الطاولة، وهزَّ رأسه راضيًا ثم قال بلطف: إن كانت هذه المباحثات والمراسلات والردود تعجبك، فهذا المجلد الذي بأول الرفِّ الأيمن، فيه مساجلات علمية جرت قبل سنوات قليلة بين البيروني وابن سينا، وهي طريفةٌ وفيها فوائدُ ومعارف جمة، وقد وصلتنا الشهر الماضي من المشرق.

ـ شكرًا لاهتمامك يا شيخ «نجيم» لكنني حاليًّا مهتم بمؤلفات ابن الهيثم خصوصًا.

ـ لا بأس، كما تحب. ويمكن أن تستعير ما تريد منها وتعيده بعد يومين أو ثلاثة، ما عدا هاتين الرسالتين.

ـ ألا توجد لديكم نسخٌ أخرى من الرسالتين؟

ـ توجد، لكنهما من مجموعة الكتب التي أوقفها للدار القاضي «سليم البهنسي» رحمه الله، وكان شرط الوقفية ألا يخرج من دار الحكمة أي شيء منها، سواءً كان كتابًا كبيرًا أو رسالة صغيرة.

ـ عليه رحمة الله، كان رجلًا فاضلًا.

ـ ومحبًّا للعلوم.. وكُتب الحكمة القديمة.

سكت «نجيم» لوهلةٍ، كأنه متردِّد بين الكتم والبوح. ثم حسم أمره وقال وهو يقرب رأسه مني عبر الطاولة، ويخفض من صوته، إن من بين كتب القاضي البهنسي، مجلدًا نادر المحتوى ويكاد تاريخ كتابته يعود إلى أكثر من مائة عام، وهو يحتوي على رسائل «إخنوخ» في تصفية النفس بالزهد والتقشف، وتحلية الروح بالاطلاع على أسرار الوجود، وغير ذلك من المعاني التي عُني بها عديدٌ من حكماء اليونانية. وأراد مولانا الحاكم بأمر الله أن يقرأ هذه الرسائل، وأرسل إليَّ في طلبها، فأخبرته وقلبي يرتجف من شدة الخشية، أنني كلَّفتُ ناسخًا متقنًا بعمل نسخةٍ جيدة منها، وسوف أرسلها له فور الانتهاء منها، أما نسخة الأصل فإن شَرْط الواقف هو ألا تخرج من الدار. ويقيت أترقب ردَّه على ذلك لمدة يومين، مَرّا عليَّ كأنهما أعوام.. سألته: وماذا فعل أمير المؤمنين؟

ـ أمر النجَّارين فصنعوا له هذه الدكَّة التي بطرف الإيوان، وواظب على المجيء صباحًا كل يوم، حتى انتهى من قراءة المجلد بعد تسعة أيام. ثم قال لنا ممازحًا في آخر يوم أن نُبقي أريكته في مكانها، فربما يضطر إلى المجيء والجلوس عليها مجددًا. وخلع على جميع العاملين بدار الحكمة، حتى الذين يكنسون الرَّحَبة التي أمام الدار والعَرَصة التي أمامها.

وخلال تلك الأيام وجدتُ في كتب ابن الهيثم، بين السطور، لمعاتٍ ساطعة تدل على قوة ذهنه وعمق معرفته بالهندسة، سواءً الجانب النظري منها أو الجانب العملي. فهو في جانبها النظري يهتم بالبرهنة اهتمامًا خاصًّا، وله في ذلك رسالة بديعة بعنوان لافت

للنظر، هو: «رسالة في برهنة ما لم يبرهن عليه إقْليدس» يقصد بذلك المصادرات والبديهيات التي أوردها المهندس السكندري القديم «إقْليدس» في كتابه الشهير أصول الهندسة. وله أيضًا بالدار رسالة لطيفة الحجم دقيقة الصيغة، مكتوبٌ على غلافها: مقالة الحسن بن الهيثم في أن البرهان واحدٌ.

وقرأتُ له كتابًا مبتكرًا، في الهندسة العملية، عنوانه «إجراءات الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية» تفنَّن فيه لتبيين الأصول والقواعد واجبة الاتباع عند الحفر والتشييد. وفي هذا الكتاب وجدتُ العبارة التي نقلها أستاذي ابن يونس للحاكم، وكان نصّها بحسب ما كتبه ابن الهيثم: لو كنتُ بمصر لعملتُ في نيلها عملًا يحصل به النفع في كل حالةٍ من حالاته، من زيادة أو نقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موضعٍ عالٍ في طرف الإقليم المصري.

كما رأيتُ لابن الهيثم مؤلفاتٍ أخرى في الهندسة العملية وتطبيقاتها، منها رسالةٌ في استخراج سَمْت القبلة من أي مكان في العالم، ورسالة فيما تحتاجه الأمور الشرعية من الهندسة.. وله غير ذلك كثير من المقالات الممتعة للعقل والرسائل المبهرة والكتب، مما أبقاني عدة أسابيع هائمًا في سماواته الهندسية، وأفكاره الفلكية. وشعرتُ خلال هذه الفترة أنني امتلأتُ بهذا الرجل العبقري ومؤلفاته، حتى إنني قبل أن ألقاه، رأيته كثيرًا في مناماتي. لكنه كان في أحلامي مختلفًا تمامًا عما هو عليه في واقع الحال، فقد كنتُ أراه ضخمًا عالي القامة كأنه من العماليق الغابرين.

تراجع الوباءُ وصلُح الهواءُ، مع نهاية ربيع السنة التاسعة بعد

التسعين والثلاثمائة، كما خفَّت وطأةُ الغلاء مع إثمار الشجر ووفرة محصول التمر. وفي تلك السنة عصر يوم الأحد، كنتُ جالسًا على سطح داري وحولي «زَهْرة» و«نَوْرة» وحولهما أطفالنا يلعبون. وكنتُ في تلك اللحظة أحادثُ «سهيلة» عن نوبات الصرع التي صارت تتتابها على فترات متباعدة، بيد أنها لم تنقطع عنها بالكلية. دقَّ باب الدار خادمٌ من القصر الكبير جاءني برسالة قصيرة كتبها «الحاكم» بخط يده، نصُّها: صاحبنا سوف يصل من الشام ظهر غدٍ، الاثنين، وأريدك أن تكون معي في استقباله.. فرحتُ بخبر قدوم ابن الهيثم، وتحمَّستُ فوضعتُ العمامة على رأسي وأسرعتُ إلى حارة القرائين لأزفّ الخبر إلى أستاذي «ابن يونس» فصدمني فور وصولي إلى داره خبرُ وفاته، فجأةً، ساعة أذان العصر. لم يكن عليلًا، ولا به بأسٌ من أي نوع، ولا علامات موت! فسبحان مَنْ له الدوام.

في الصباح الباكر ارتديتُ أفخر ثيابي، وساعة الضحى وصلتُ إلى أبواب القصر الكبير، فأدخلني الخدمُ إلى الإيوان الكبير حيث لمحتُ «الحاكم» جالسًا خلف شباكٍ فوقه قُبَّةٌ مذهَّبة، يوقِّع أوراقا كبيرة وحوله المحنَّكون، وإلى جانبه «المُسبِّحي» وقد ازداد نحولًا وبدا عليه الهزال. وذلك من فرط حزنه على أم ولده التي ساءت صحتها وعجز الأطباءُ عن علاجها، حسبما عرفت منه لاحقًا.

حين رآني «المُسبِّحي» استأذن من الحاكم، وجاء إليَّ عند باب الإيوان وهو يخطو ببطءٍ، كأنه كبر في السِّن فجأة. وبصوتٍ خفيض أخبرني بأن علينا أن نسبق موكب الحاكم، إلى خارج سور القاهرة، وننتظر هناك.. على بغلتين خرجنا صامتين من الخطِّ الكبير، أعني الشارع الرئيس بالمدينة، واجتزنا بوابة السور المحيط بقصورها

ومبانيها. وخارجه رأيت البنائين منهمكين في استكمال بناء الجامع الكبير الذي كان «العزيز بالله» قد بدأ في بنائه، لكنه مات ولم يكمله، فاستكمله الحاكم. ومن عند الجامع عرجنا إلى جهة الشمال الشرقي، وسرنا على الدرب المعبَّد في الأرض الرملية، حتى وصلنا بعد سويعةٍ قبالة قرية صغيرة اسمها «الخندق» عندها نُصبت خيمتان كبيرتان من الحرير. دخلنا الخيمة الأفخم منهما، وجلسنا هناك ننتظر. ويبدو أن «المُسبِّحي» أحسَّ بالحرج من كونه لم يكلمني طيلة الطريق، فقال بنبرة اعتذار: كيف حالك يا مطيع؟ أرجو أن تغفر لي شرودي، فحالي اليوم مريع.

ـ لا عليك، فإنني أعرف حالك يا أمير، ومررتُ بذلك من قبل. فقد عشقتُ طيلة عمري وتمنّيتُ الوصال، ولما سمح به الزمان حينًا، عاد وضنَّ عليَّ وأفقدني معشوقتي. زوجتي وأم ابنتي. ولم أهنأ بقربها، إلا أيامًا مرَّت عليَّ كلمح بالبصر.

ـ وكيف احتملت حرمان الفراق؟

ـ لم أحتمله يا أمير. وكاد يهلكني، لولا أن الله ألهمني الصبر، فصرتُ أرجو السلوان.

ـ ها هو موكب الخليفة يقترب..

علا صوت الطبول فخرجنا إلى مدخل الخيمة، ووقفنا نتطلَّع إلى بهاء الموكب القادم نحونا. الحاكم بأمر الله يركب فرسًا مسرَّجة، ويتزيا بالأردية الحريرية ذات الزركشة المذهبة، وعلى رأسه العمامة المبثوث فيها قِطَع الجواهر البراقة. ومن حوله يصطف حاملو البنود

والرايات وضاربو الطبل، ومن خلفهم صفان من الجند في الملابس العسكرية، خلفهم الطرَّادون الذين يُبعدون عن مسير الموكب، العوام الذين احتشدوا على الجانبين. وخلف «الحاكم» حامل المظلة وجماعة من الأستاذين المحنكين، خلفهم عددٌ من رؤساء الدواوين وكبار رجال الدولة.

بعد وصول «الحاكم» بوقتٍ قليل، وصل ابن الهيثم يركب بغلةً ومن حوله دواب يحملون الكتب ومن حولهم حرسٌ كثيرٌ، جاء بعضهم معه من الشام وانضم بعضهم الآخر إليه حين اقترب من القاهرة.. تقدم «الحاكم» خطواتٍ نحو العلامة ابن الهيثم، فنزل العلامة وسلم عليه يدًا بيد، من دون أن يجثو أمامه ويقبل الأرض مثلما يفعل رجال الدولة وأصحاب الحاجات.

عند باب الخيمة تقدم «المُسبِّحي» وسلَّم على ابن الهيثم، وفعلتُ مثله، وتقدَّمَنا «الحاكم» إلى داخل الخيمة التي امتلأت بالخدم، ودخلنا خلفه تباعًا.. ابن الهيثم رجلٌ عجيب الخلقة، قصيرٌ نحيلٌ ضئيل الحجم، لكن عينيه الواسعتين تشعان بذكاءٍ يلمع مثل الشمس في وسط النهار، وعلى شفتيه شبح ابتسامة محيِّرة لا يدري رائيها إن كانت انبهارًا أم استهانةً أم رضا أم عدم اقتناع. قال له الحاكم فور جلوسنا: حمدًا لله على سلامتك يا حكيم، كيف كانت رحلتك؟.. فردَّ عليه بصوته العميق، غير المتناسب مع قَضافة بدنه، بقوله: كانت مريحة، ولك الشكر على ذلك والفضل فيه يا أمير المؤمنين.

ـ وكيف وجدت النواحي المصرية في طريقك إلى هنا يا حكيم؟

ـ خضراء، ووفيرة الخيرات بإذن الله.

ـ هي أكثر من ذلك خضرةً وخيرًا، فأغلب الأطيان لم تزرع هذا العام لنقص الفيضان، ولهذا نحتاج بناء السّد الذي اقترحته يا حكيم.

ـ سأفعل ما بوسعي. لكن يا أمير المؤمنين، أنا لست بحكيم وإنما محب للحكمة. الحكيمُ هو الله.

ـ هذا كلام قدماء اليونانية.

ـ نعم يا سيدي، والحكمة ضالة المؤمن يجدها عند اليونان وقد يجدها عند الصقالبة.

ـ صدقت، لكنه لن يجدها أبدًا عند طالبي الدنيا والمتكالبين عليها، وقد بلغني أن لك في الزهد مذهبًا.

ـ مذهبي بسيط يا مولاي، كل ما زاد عندي عن حاجة يومي فهو عبءٌ عليَّ.

ـ بارك الله فيك.. وقد منعتُ مؤخرًا مناداتي بمولاي أو مولانا أو مولى جميع المؤمنين، لكنك مباحٌ لك أن تناديني بما تشاء.

ـ علمتُ بأن جدك «المعزّ لدين الله» كان يفضل لقب أمير المؤمنين.

ـ وأنا كذلك.. أين مائدة الطعام؟

مدُّوا أمامنا السماط ووضعوا عليه الأطايب من الأطعمة

والمشروبات والحلوى، فأكل ابن الهيثم على هونٍ كالطفل. وكان يطيل مضغ ما في فيه، كأنه يتوقَّى نزول الطعام إلى معدته. وعندما رُفع السماط، عرَّفني الحاكم إلى ابن الهيثم بقوله: هذا أخي وزميلُ دَرْسي في الصبا، مطيع السهمي، هو محل ثقتي وهو أيضًا محبٌّ للمعارف والعلوم، وسيكون مصاحبًا لك وقائمًا على خدمتك، وملبيًا لكل ما سوف تطلبه من عددٍ أو عتاد.

ثم أشار الحاكم بيمناه إلى «المُسبِّحي» وقال لابن الهيثم: وهذا أخي وصاحبي، الأمير المختار عز المُلك محمد المُسبِّحي، كان يود لو يكون بصُحبتك ولكن الشواغل تعوقه عن ذلك.. سأله ابن الهيثم إن كان «الأمير المُسبِّحي» فاطميًّا، فابتسم الحاكم بهدوء وهزَّ رأسه نافيًا، ثم أردف: لا، هو أميرٌ مصريٌّ من قبل أن يأتي جدّي رحمه الله إلى الديار المصرية، وهو مشتغل بالعلوم وكثير التأليف، غدًا نفطر صباحًا معًا ويحدِّثك عن كتبه، أما الآن فسندخل إلى القاهرة لترتاح من مشقة السفر، وستكون إقامتك في قصرٍ يليق بك..

- يا أمير المؤمنين، لا عهد لي بسُكنى القصور، ولا شغف عندي بذلك. يكفيني منزلٌ صغير، أو حجرة تسعني وتتسع لكتبي.

- لك ما تريد.. هيا إلى القاهرة.

سرنا جميعًا والناس يحتفون بالموكب ويهتف كثيرٌ منهم لتحية الحاكم، وعندما عبرنا من بوابة القاهرة ثم وصلنا عند باب الذهب، ودَّعنا الحاكمُ بعد أن همس لي بأن الخدم سيذهبون معي إلى المنزل المخصص لسُكنى ابن الهيثم، وطلب مني أن أعود إليه بعد أن أطمئن

على راحة الضيف الجليل. المنزل لطيفُ البناء، أنيقٌ بلا بذخ، يلاصق القصر الغربي من الجهة الجنوبية ويمدخله حديقةٌ كثيرةُ النباتات. أوصلت ابن الهيثم إلى مستقره، وعدتُ إلى الحاكم فوجدت معه المُسبِّحي، ومعهما رئيس ديوان النفقات «إبراهيم بن إلياس» وهو رجلٌ أنيق مهذب، كان نصرانيًّا فأسلم قبل سنوات. قال له الحاكم بنبرةٍ آمرةٍ حاسمة: لا تؤخر ما يطلبه منك مطيع، ولا تحوجه إلى مراجعة أو تكرار طلب، وهو لن يأتيك بالديوان لانشغاله بملازمة ابن الهيثم، فيكفيك منه ورقة بخطه حتى تسرع في تلبية ما طلب، انصرف الآن في أمان الله.

ذهب الرجل وسار معه المُسبِّحي، فلما انفردنا قال الحاكم: لا تخفى عليك يا مطيع أهمية ما سيفعله ابن الهيثم، فلا تسمح بأن يمنعه عن ذلك عائق.. وسكت قليلًا قبل أن يضيف أنه لا بأس لو تجوَّلت معه الأيام القادمة بالقاهرة وما حولها، فسوف يحب أن يرى المباني والطرقات، ولكن لا تذهب به إلى الجيزة ولا تريه الأهرامات، ولا تدخله إلى الهرم الكبير حتى وإن طلب ذلك وألحَّ.

ـ لماذا.. أقصد، هل يمكنني معرفة السبب؟

ـ ألم تدخل من قبل إلى جوف الهرم؟

ـ بلى يا أمير المؤمنين، دخلته مرةً فأذهلني..

ـ هذا هو السبب. هندسةُ الهرم وصنعته الغامضة المتقنة، والكتابات المبهمة على حوائطه الأربعة المائلة، ومساربه العجيبة من داخله. كلها أمورٌ من شأنها إذهال الأذهان لدى عموم الناس، فما بالك بما يمكن أن تفعله بعقل

مهندسٍ بارع مثل ابن الهيثم. وللرجل في ذهول العقل سوابق.

لم أدرك مقصود «الحاكم» من عبارته الأخيرة، فاستخبرتُ حتى عرفتُ من الأمير «المُسبِّحي» أن العلامة ابن الهيثم مرَّ سابقًا بمَسٍّ من الجنون أصابه بالبصرة، في صباه أو في شبابه، ثم برأ منه بحمد الله. ولهذا كان «الحاكم» يتحسَّب لهذا الأمر ويتوقَّاه، خشية تكراره. وكانت خشيته في محلها، فقد رأيتُ بنفسي بعد فترةٍ أثناء رحلتنا إلى الصعيد، كيف انذهل عقل «ابن الهيثم» حين تجوَّل في البرابي القديمة، وراح يحوقل ويسبِّح محتارًا وهو يحدِّق في دقة صنع القدماء، وهندسة معابدهم، وما على الحوائط والجدران من رسومات بديعة.. لكنني فهمتُ بعد شهور، حين صارحني ابن الهيثم بحقيقة الأمور، حسبما سأذكر بعد قليل. أن البون شاسعٌ والفارق كبير، بين دهشة المهندس بالإبداع الهندسي البارع، وبين جنون ابن الهيثم الجميل.

وخلال الفترة التي قضيناها في الاستعداد للسفر جنوبًا عبر النهر، لتحديد أنسب المواضع لإقامة السد، وهي الفترة التي دامت قرابة شهرين. لم يطلب ابن الهيثم مني الذهاب إلى الجيزة أو زيارة الأهرامات، لكنه طلب الذهاب إلى «مقياس النيل» لرؤيته، فأخذته إلى الجزيرة.. وقف هناك يتأمل المقياس، ويسرح بناظريه فوق صفحة الماء المنخفض منسوبه آنذاك، ثم هزَّ رأسه وقال قبل أن ينصرف: رحم الله «الفَرَغَاني» كان عبقريًّا.. وابتسم على هونٍ حين قلتُ له من فوري: أنت يا سيدي خيرُ خَلَفٍ، وهو خير سَلَف.

كنت أعرفُ منذ صباي من دروس الأستاذين، أن مقياس النيل صنعه قبل مائة وخمسين عامًا، العلامةُ المهندس الفلكي «أبو العباس أحمد بن كثير الفرغاني» مؤلف المتون العلمية الرصينة. وهو الذي اشترك مع العلَّامة «الخوارزمي» في عديد من الأعمال المبهرة، التي منها قياس مساحة صحراء «سنجار» بالعراق وتحديد طول خط الزوال بها، ومقياس النيل بمصر.

بعد زيارتنا لمقياس النيل بيومين أو ثلاثة، طلب ابنُ الهيثم الصعود فوق «المقطم» كي يرى من جهته الغربية، جريان النيل ومجراه. كان هواء ذاك اليوم الشتوي لطيفًا، وفوق الجبل أصفى وألطف، ولا غبار في الأجواء يعوق العيون عن النظر والرنوِّ إلى بعيد. بقي ابن الهيثم يتأمل ما حوله ويدوِّن ملاحظاتٍ في كراسٍ معه، وبعد أن انتهى من ذلك قال وهو مستبشرٌ: أتعرف يا مطيع، إذا كان النيل في الجنوب ينحدر من موضع عالٍ شبيهٍ بهذا المقطم، سوف يسهُل علينا إقامة السد هناك، وتقلّ نفقاته وتزداد منفعته. قلت: إن شاء الله يكون..

لكنه لم يكن.

قبل نزولنا من المقطم إلى طرف الفسطاط، نظر ابن الهيثم إلى جهة الجيزة وأجال ناظريه في جنوبها المتلاصقة فيه الزروع والمنازل، وفي شمالها حيث تترامى الصحراوات من خلفه وتطل رءوس الأهرامات وبقايا البنايات والمعابد من تحت تلال الرمال، وبعد لحظة استغراق قال: هذه الديار المصرية بلادٌ طيبة، وإذا أعاننا الله على إنجاح ما ننوي عمله بالجنوب، فسوف أسكن هنا بقية عمري يا مطيع، وأتفرَّغ للتأليف والتأمل في أسرار هذه الأهرامات،

وفيما هو مطمورٌ بسجن يوسف.. أدهشني أنه يعرف علاوة على الأهرامات وما حولها، بدائع الآثار والدفائن بالبربا العجيبة بالجيزة، المسماة على ألسنة الناس «سجن يوسف».

في طريق رجوعنا إلى القاهرة، عصرًا، عبر الطريق الصحراوي الملتف حول الناحية الشرقية، مررنا بعد نزولنا من «المقطم» قرب داري، فطلبتُ من ابن الهيثم أن يشرِّفني بالغداء معي. وأردفتُ دعوتي بأنني أتمنى أن يفخر أطفالي حين يكبرون، بأنهم رأوا العلامة ابن الهيثم عن قرب وجالسُوه. فابتسم وهو يقول: ليت كل الأماني سهلة التحقيق كهذه الأمنية، هيا بنا إلى دارك، فإنني أحب أيضًا أن أرى صغارك.. في حجرة الضيوف صخب عيالي من حولنا ففرح بهم ابن الهيثم، وراح يمازحهم بما يناسبهم، وأخذ يلاطفهم بأن يطلب منهم نطق أسماء المدن فيقول: بغداد. فتنطقها ابنتي «تمنّي» بدغاء، ويقول «أصفهان» فتقول هي أصهفان. ويضحكان. وبعد سويعة أبعدتُ صغاري وجئتُ بالطعام، بعدما وقر في نفسي أن قلب ابن الهيثم يختبئ فيه طفلٌ بريءٌ، يتوق إلى المرح واللعب. وأن هذا الرجل العلامة خليق بالمودة، وبأن يحبه مَنْ يقترب منه. أثناء تناوله لقيمات الغداء، أجال في الحجرة ناظريه وقال إنه كان يتمنى في شبابه منزلًا كهذا، وابنًا مثل ولدي «عبد الله» الصغير الوقور. هكذا وصفه. فقلتُ معربًا عن محبتي له: يشرِّفني يا سيدي أن تُعد هذا بيتك وأنا ابنك وهؤلاء الصغار أحفادك. فابتسم وهو يهمسُ بقوله: بارك الله فيك يا مطيع. ثم سألني عن كتبي وخزانتها فأخذته إلى الحجرة الفسيحة، الحصينة، فمرَّ بنظره على رفوفها ولمح على الطاولة التي بوسط الخزانة مجلدًا عتيقًا يزيد عمره عن مائة عام،

فأشار إليه مستفهمًا. قلتُ إنه أنفس ما في كتبي، وهو مجموعٌ عتيقٌ فيه «جوامع الإسكندرانيين» بترجمة حنين بن إسحاق، وبأوله إجازة بخط المترجم. فتح الغلاف وابتسم وهو يقول إن الورَّاق خدعني، فهذا ليس خط حنين بن إسحاق، وإنما هو تقليدٌ قديم له.

ـ هل أنت متأكد من ذلك يا سيدي؟

ـ نعم، فقد رأيت في العراق كتابات كثيرة بخط حنين، وأنا أعرف شكله جيدًا.

ـ على كل حال، هو كتابٌ نفيس ورثته عن جدّي، وكنتُ قبل أيام أعيد للمرة الخامسة قراءة آخر كتاب فيه، وهو رسالة أبقراط في المرض المقدس.

ـ ولماذا تعيد قراءة هذا الكتاب تحديدًا، خمس مرات؟

قلتُ له لأنه يتكلم عن الصرع، وأمُّ ولدي «عبد الله» مبتلاة به. فهزَّ رأسه آسفًا ومواسيًا، ثم قال إن القدماء والمحدثين من الأطباء لم يهتدوا إلى علاجٍ ناجعٍ لهذا المرض، وغاية ما يمكن أن تجده عنه هو فصول في تدبير المصروع.. وسكت لحظةً وهو يقلِّب في أوراق المجلدة، ثم جلس وهو يُضيف أن ذلك لا يقدح في قيمة كتاب أبقراط وأهميته، ففي السطر الأول منه يقرِّر قاعدةً أراها من أهم أصول النظر العقلي والبحث العلمي، حين يقول الفاضلُ أبقراط: سوف أشرع بهذا الكتاب في الكلام عن المرض المعروف بالمقدس، ولستُ أرى فيه أي قداسة تميِّزه عن غيره من الأمراض.

استغربتُ حفظ ابن الهيثم لنَصِّ كلام أبقراط، وأعجبني منه ذلك.

وحين راح ينظر في عنوان الكتب المتراصَّة على الأرفف الخشبية بالحجرة، في هدوءٍ وسكينة، رأيت أن اللحظة مناسبة لإخباره بما طلبتْ مني الأميرة «ستّ المُلك» قبل يومين، إذ كنت ساعة الغروب في طريق عودتي إلى داري من منزل ابن الهيثم المجاور لقصرها، حين استوقفتني في عرض الطريق الخالي من المارة، امرأةٌ ترتدي النقاب. وأقلقتني عندما أمسكت بمقود بغلتي بل أثارت فزعي، لكنها هدَّأت من روعي بقولها: هذه أنا يا مطيع.. ورفعتْ عن وجهها القناع الأسود لأعرفها ثم أسدلته بسرعة من جديد. نزلت عن البغلة وقلت مرتبكًا:

ـ ستّ المُلك، سيدتي الأميرة.. ماذا...

ـ اخفضْ صوتك وسِر بجانبي هادئًا، فلا أريد أن نلفت نظر العابرين..

ـ أمركِ يا سيدتي. ولكن لماذا تتخفَّين هكذا؟ وأين حراسكِ وخدامك؟

ـ لا عليك من ذلك. اسمع، أريدك في أمرٍ مهم.

ـ أنا طوع أمركِ يا سيدتي، فأنتِ صاحبة فضل.

لم أفهم في البداية مرادها، لتشوش ذهني وعدم وضوح كلامها. فقد أخبرتني بأنها رأت ابن الهيثم بالأمس من شرفة قصرها، جالسًا في ركن حديقة منزله، وحيدًا وبقي بمكانه ساكنًا لساعتين، يقرأ في كتابٍ على ضوء قنديل هزيل ويكتب على حواشي صفحاته تعليقات. وظلَّ على تلك الحالة طيلة الليلة..

ـ وما الغريب في ذلك يا سيدتي؟

ـ هذا الرجل وحيدٌ جدًّا يا مطيع، وليس لديه من يعتني به.

ـ لعله يا سيدتي يحب الوحدة، ولا يحتاج عناية.

قالت إنها استخبرتْ عنه فعلمتْ أنه الآن غير متزوج، ولا يتسرَّى بأَمَةٍ أو جارية، وهو رجلٌ جليل القَدْر، ولا يجب أن يبقى هكذا وحده. على الأقل وهو هنا ضيفٌ في ديارنا، يعني لابد له من امرأةٍ تؤنسه، أليس كذلك؟ قلت لها موافقًا، ومتحيرًا فيما تريد: نعم يا سيدتي.

«ستّ المُلك» بعيدًا عن كونها أميرة الأميرات، امرأةٌ جميلة. وأعرفُ عنها أن بلغت من عمرها حدود الأربعين مع أنها تبدو في سن الثلاثين. وهي لم تتزوَّج، ولن، فلا يوجد بين الرجال من يطاولها ويليق بها، حسبما أخبرني بذلك منصور الحاكم ونحن صغار.

خشيتُ أن أتسرَّع في خوض غمار الكلام معها، فأُخطئ، فتغضب. فآثرتُ التريث وسألتها بلطفٍ عما تريد مني أن أفعله، فقالت من خلف قناع نقابها: تحدَّث معه في هذا الأمر يا مطيع، حين تجد لذلك لحظةً مناسبة، واسأله إن كان يود مثلًا أن يتسرَّى.. وسكتت لمحة قبل أن تُضيف: أو لعله يريد أن يتزوَّج.

أثار حديثها حماسي فتخلَّيتُ عن بعض تخوُّفي وسألتها بعد أن مهَّدت للسؤال، قلت: تعلمين يا سيدتي أن لكِ عندي مكانة لا تدانيها إلا مكانة أمير المؤمنين، وقد سبق إليَّ فضلكِ وحقَّتْ عليَّ خدمتك. وربما أتجرَّأ بحكم المحبة الخالصة لكِ، والمودة الصافية، فأسأل:

لو افترضنا أن ابن الهيثم تقدَّم لخطبتكِ، هل توافقين عليه أم تغضبين من جرأته؟.. قالت: لن أغضب، وسأفكر مليًّا في طلبه.

النساءُ، نساء.. ختمتْ «ستّ المُلك» حديثنا بقولها: المهم يا مطيع، عليك بكتمان هذا الكلام ولا تحدِّث به أحدًا، حتى أمير المؤمنين.. سألتها: وماذا لو سألني أمير المؤمنين؟ فقالت: لن يسألك.

ذهبتْ «ستّ المُلك» مثلما ظهرتْ، متخفية. فاستكملتُ طريقي إلى داري مضطرب البال، شاردًا بين شوارد الخواطر المتعارضة، أحادث نفسي سرًّا بما فحواه: واضحٌ أن ستّ المُلك تريد أن تخطب لنفسها العلامة ابن الهيثم، أم أن لها مقصدًا آخر مستترًا؟ وماذا لو كانت تخطبه لنفسها، ألم تخطب السيدة خديجة لنفسها النبي المصطفى، وخطب «شعيب» كاهن «مَدْين» النبي موسى لإحدى ابنتيه، فما العيب في ذلك؟ نعم، هي أميرة فاطمية بل هي درة الفاطميات، ولكن ابن الهيثم أيضًا من دُرر البشر، وهو من أعلام العلماء النبلاء ولا يليق به إلا سيدة مثلها. ولكن، هل يوافق «الحاكم بأمر الله» على زيجة كهذه؟ ولِمَ لا، هي أخته الكبرى وراعيته منذ الصغر ولابد أنه يود إسعادها، ولن يرفض إن ارتضتْ. ولكن كيف يلتقيان؟ صحيحٌ أن ابن الهيثم وافر الفضل ويندر أن يوجد مثله بين الرجال، غير أنه غارقٌ تمامًا في الفلك والهندسة، ولا شغل له إلا بالمعرفة. والمعرفة لا تؤهل للزواج بربات القصور. أم هي تؤهل؟ لا أعرف.. ولا أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله.. لن أفعل شيئًا.. سأصبر حينًا، حتى أرى ما سوف تسفر عنه الأيامُ المقبلة.

* * *

لما بدا لي ونحن في حجرة الكتب والمال المدفون، أن الفرصة سانحة للإلماح إلى ما ألمحت إليه ستّ المُلك، سألتُ ابن الهيثم بأدبٍ إن كان يحتاج أنيسةً بمنزله، أَمَةً أو جارية؟ فقال من فوره إنه لا طاقة لديه لاحتمال سُخف الجواري وثِقَل الإماء. قلتُ له كأنني أجامله: والله يا سيدي، لا تليق بك إلا زوجة من الأميرات الراقيات، من أمثال الجليلة ستّ المُلك.. فاستغرب كلامي بنظرةٍ مستنكرة، وكأنه أدرك ما أتردَّدُ في مصارحته به، وقال: إذا لم تكن عندي طاقة لاحتمال وجود جاريةٍ أو رفقة أَمَةٍ، فكيف سأحتمل الحياة مع أميرة ذات نفوذ؟! وكما كتبتُ سابقًا في رسالة «الأخلاق» فإن الإنسان مجبولٌ على التباعد ممن دنا منه، والدنوِّ ممن يبتعد عنه. فلا تعُد لمثل هذا الحديث يا مطيع، ودعنا نجتهد لإنجاز ما وعدت به الحاكم بأمر الله، فذلك هو شغلي الشاغل.

ـ نعم يا سيدي، معك حق.

بعدها بأسبوع وصلتنا رسالة فيها دعوة، علنية، من «ستّ المُلك» للغداء في قصرها ترحيبًا بالضيف، ومذكورٌ في رسالتها أنها دعت إلى مأدبة الاحتفاء بابن الهيثم، الأمير المُسبِّحي وجماعةً من الأستاذين المحنكين. أرسلتُ إلى «الحاكم» أستشيره في أمر هذه الدعوة، فاستدعاني إليه وسألني عن تفاصيل الاستعداد لرحلة الجنوب، فأجبته أن العمل يجري على قدم وساق، وتم تحديد المعدات والعدد اللازم من العمال. فأخبرني بأنه أَمَرَ لنا بما يكفي من العشاريات. يقصد المراكب النيلية التي تبحر في النهر بالشراع، وبعشرة عبيدٍ يجدِّفون من الجانبين. وأضاف أنه أرسل مع الحَمَام الزاجل إلى الولاة بالصعيد، ليكونوا في خدمتنا خلال الطريق، كما أَمَرَ والي

«أسوان» بأن يكون رهن إشارتنا هناك.. سألته عن الدعوة المرسلة من «ستّ المُلك» فأومأ برأسه بهدوء، وهو يقول: لا بأس، فهي تحب أن تشارك في كل شيء، وتعرف تفاصيله من قريب.

ـ يعني، نلبي الدعوة يا أمير المؤمنين؟

ـ لا مانع. لكن الأمير «عز الملك» لن يذهب معكم، فقد توفيت فجر اليوم أمُّ ولده.

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون. سأذهب الليلة لتعزيته.

ـ لا داعي. هو يرفض تلقّي العزاء فيها، مسكين. يقول إنها توارت بيدنها، ولم تمت. كان الله في عونه.

يوم غدائنا بالقصر الغربي، تعلّقت عينا «ستّ المُلك» بابن الهيثم معظم الوقت، وأكثرت من سؤاله عن أمورٍ عديدة، فكان يجاوبها وهو مطرق الرأس، خافض النظر. ولم يتطلع نحوها إلا مرةً واحدةً حين سألته عن اختلافه مع المعتزلة، فقال لها إنه كان ينشغل بذلك في شبابه وكتب رسالةً في الردِّ على أبي هاشم الجبّائي رئيس المعتزلة بالعراق، فيما تكلم به على كتاب «السماء والعالم» لأرسطو.. قالت له: بعيدًا عن هذا التفصيل، كيف ترى كلام المعتزلة إجمالًا؟

خفض ابن الهيثم نظره عنها مجددًا، وأجابها برويةٍ ونبرة هادئة: لا أجد فائدة في كلامهم ولا يرضيني نهجهم، فهم يزعمون أن بالإمكان إخضاع العقيدة لأحكام العقل، والقرآنُ يقول إن المتقين يؤمنون بالغيب ويسلِّمون بما أُنزل على الأنبياء من دون اعتراض، فكيف يتوافق ذلك مع ذلك؟ كما أن كلام المعتزلة في الطبيعيات

كله عِلل، وفيه الكثير من عدم الفهم.. وسكت حينًا ثم أردف: لكنني منذ فترةٍ طويلة، أقلعتُ عن كل ذلك ونأيتُ بنفسي عن الخوض في مثل هذا الجدل واللجاج، وأنفقت أوقاتي كلها في العلوم النافعة للناس، وليس في الآراء التي تغرس بذور الشقاق والخلاف، فبرأتُ مما كنتُ فيه وتبرأتُ منه وكل ما كان بقلبي من نارٍ تتأجَّج، صار بعقلي نورًا يتوهَّج.. قالت «ستّ المُلك» فأثارت دهشة ابن الهيثم وإعجابه: وكان ابتداء ذلك، بكتابك «الجامع في أصول الحساب والهندسة» أليس كذلك؟

- نعم يا مولاتي، ففي هذا الكتاب جمعت الأصول الهندسية والقواعد الحسابية، حسبما وردت في كتابات إِقْليدس وأبلونيوس السكندري، ونوَّعت فيه تلك الأصول والقواعد وقسَّمتها وبرهنت عليها بالبراهين التعليمية والحسية والمنطقية.

سأله أحد الأستاذين الحاضرين، عن مقصوده بكلمة «البراهين التعليمية» فأجابه بأنها الاستدلالات الرياضية التي يتوقف اليقين فيها على اتساقها الداخلي، بصرف النظر عن انطباقها على عالم المحسوسات والماديات، ففي الرياضيات رجلٌ ورجلٌ يساوي رجلين، وإذا أضيف لهما اثنان كان المجموع أربعة، لأنهم حسابيًّا يتساوون. أما في الواقع المادي والحياة المحسوسة، فقد يساوي رجلٌ واحدٌ ألفًا من الرجال أو مائة ألف، وكذلك الحال في النساء.. فقطعت ستّ المُلك كلامه بقولها: أنت يا ابن الهيثم خزانة علم، ومثلك نادرٌ في الوجود وقليلٌ بين الناس.

أطرق ابن الهيثم خَجِلًا من مدحها له وإطرائها، وابتسمت هي ولمعت عيناها وبدت لي كأنها تلتهمه بنظراتها القوية.. وقبل أن نترك قصرها بعد انتهاء الغداء، استوقفتني في حديقة القصر وسألتني هامسة عما طلبته مني، فقلت لها إنني تحدثت إلى ابن الهيثم في الأمر، ومسسته على هونٍ معه، فاستغرب وفَزِعَ من خشية إشغاله بذلك عما يشتغل به من العلوم.. مالت عيناها جانبًا ولمعت ببريقٍ أخَّاذ، وقالت وهي تبتسم: لعل الأوان ما حان بعد.

* * *

تقرَّر أن تنطلق رحلتنا من القاهرة إلى جنوب البلاد، يوم الأربعاء غرَّة المحرم، تيمُّنًا بأول أيام العام الموافق لسنة أربعمائة للهجرة. ولأنه يتزامن مع فيضان النيل في آخر شهور العام عند أهل الزراعة وسكان الريف، وهو الشهر المسمى «مِسرَى» بلسان القبط. واستدعاني «الحاكم» قبل انطلاق الرحلة بيومين، ليطمئن مني على أن كل ما هو مطلوب قد استوفى، وليخبرني بأن الأمير المُسبِّحي سوف يذهب معنا. فقد برَّحه ألمُ الفراق حتى يكاد الحزن يميته محترق القلب، وقد يجد في الرحلة والصحبة سلوانًا ومواساة. وسألني الحاكمُ عن حال عيالي، فأخبرته بأنني رتَّبت للدار وأهلها كل الأمور، حتى لا يحوجهم مطلوبٌ أثناء غيابي عنهم. فدعا لي بالتوفيق، ودعاني للغداء معه فاعتذرت عن ذلك بسبب الأمور الكثيرة اللازمة لرحلتنا بعد غد.. لم يكن معنا أحدٌ، وكان «الحاكم» مستريح البال، فرأيتُ الفرصة سانحةً لسؤاله:

ـ هل أستطيع سؤالك عن أمر يحيِّرني منذ عدة سنوات؟

ـ ولماذا صبرت عليه عدة سنوات؟.. ما هو؟

ـ لماذا أمرت قبل أعوام، بأن يكتب في الدواوين يوم أربعاء، يوم الثلاثاء.

ـ الأيامُ والأعوام أوهام يا مطيع، وقد أردتُ أن ينتبه الناس إلى أن هذه التواريخ كلها مختلقة، والزمن ذاته لا يعرفها ولا يعطي الأيام شكلًا ولا اسمًا مخصوصًا. ولكن، لم ينتبه أحدٌ لذلك.

قلتُ له ما مفاده إن هذا التنبيه لم يكن كافيًا، لدقة المعنى وسخافة عقول الناس، فماذا لو نُبه إلى ذلك المعنى بشكلٍ أوضح؟ سألني: شكل مثل ماذا؟ قلت إن الشهور الهجرية تدور عبر الفصول مع منازل القمر، فيأتي ربيعها الأول في الربيع وفي الصيف وفي الخريف والشتاء! ويبدأ العام القمري مرةً مع بدء التقويم الشمسي ومراتٍ في غير هذا الموعد، والتقويم أصلًا شمسي ويجب أن يرتبط بفصول السنة. وما القمر إلا علامة يحتاجها أهل الصحراوات، وليس لذلك نفعٌ عظيم عند سكان المدن، وعند الذين يزرعون. فلماذا لا يُسقط «الحاكم» العمل بالسنة الهجرية ويجعل التقويم شمسيًّا، كما يجب أن يكون؟

ـ هذا يا مطيع، سوف يثير بواطن العوام من الناس، فهم يتوهَّمون أن التقويم الهجري جزء من الدين.

ـ لكننا نعرف أن الخليفة «عمر بن الخطاب» هو الذي استحدثه وأمر بالعمل به.

ـ ولهذا سوف يثور أهل السنة من أجله، ويظنون أن تصحيحه هو مقصد مذهبي عندي.. ولسوف أصدر الأيام القادمة أوامر بمنع جميع مظاهر التعصب المذهبي بين السُّنة والشيعة، فهذا التعصب يطيح بصالح البلاد وأهلها، ويمزق روابطها. ولن يكون من المناسب الآن تقويم التقاويم.. دع العوام ينعمون بغفلتهم إلى حين.

صباح يوم الأربعاء الموعود لبدء الرحلة جاء «الحاكم» لتوديعنا عند «باب البحر» وتحادث كثيرًا مع ابن الهيثم وهو يضع على كتفه اليسرى كفَّه اليمنى، وأنا إلى جوارهما، وكان آخر ما قاله ابن الهيثم يومها للحاكم: ثق يا أمير المؤمنين بأنني لن أدَّخر جهدًا في إتمام العمل المطلوب، إن وجدتُ انحدار النهر في الجنوب على الصورة التي بلغتني، ولن أغامر بتبديد النفقات، إذا لم أتيقَّن من حصول النفع.

أبحرنا على صفحة النهر وكان ابن الهيثم يقيس في كل ساعةٍ عمق مجراه من الوسط، ويحسب درجة الميل عند الضفَّتين، ويسجل ذلك بدقة في أوراق معه. أما «المُسبِّحي» فقد ظل طيلة النهار الأول صامتًا، ينظر إلى موجات النهر بوجهٍ شاحبٍ وبعينين تريدان أن تبكيا. وبعد مغيب الشمس، أمضينا الليلة في خيام نُصبت على ضفة النهر، الشرقية، بعد عبورنا عصرًا على الناحية المسماة حلوان. لم ننم إلا خطفات الوسن، بسبب كثرة الهوامّ من حولنا ولسعات الناموس التي أضجرت الجميع حتى الفجر، وأقضَّت المضاجع. وعندما عدنا صباحًا إلى المركب، عرفنا من النوتية أن المبيت بالمراكب في

وسط النهر أنسب لنا، لأن الهواء يكون ألطف والهوامّ أبعد. فصرنا من بعد نتام أغلب الليلات بالمركب، واسترحنا إلى ذلك وسعدنا بالاعتياد عليه.

بعد عدة ليالٍ، كان القمر في التربيع الأول وكنت جالسًا بمقدمة المركب في سكون إلى جوار ابن الهيثم، وهو يتأمل في النجوم. لا أعرف ما الذي كان يدور في ذهنه لحظتها، أما أنا فكنتُ أفكّر في صغاري وأمهاتهم وتلوح بخاطري صورة الفتاة الفاتنة «صفا» بنت «يانس الصقلبي» وأهيم مع الأماني.. ونحن على تلك الهيئة الهادئة ظاهريًّا، جاءنا «المُسبِّحي» وجلس بيننا، وبعد برهةٍ قال بصوتٍ خافتٍ كالمستحي، إننا اقتربنا من ناحية بلدة «البهنسا» وقد نصل إليها غدًا أو بعد غدٍ، فهل نود المرور عليها بزيارة سريعة؟

قلتُ لابن الهيثم موضحًا، إن الأمير المُسبِّحي كان واليًا على «البهنسا» وما حولها، وإنني لم أر هذه الناحية من قبل لكنني سمعتُ أنها عامرة، وبها برابي كثيرة وآثار باقية مما شيَّده الأوائل. وأكَّد المُسبِّحي كلامي بإيماءةٍ من رأسه، فتحمَّس ابن الهيثم للمرور على البلدة وأردتُ زيادة حماسته، فقلت إنها من عواصم الصعيد وإن لها تاريخًا طويلًا لم ينقطع، وعدد المسلمين الذين قتلوا أثناء فتحها في زمن جدّي «عمرو بن العاص» يزيد عن عدد قتلى المسلمين في فتح مصر وسائر ربوعها.. ردَّ ابن الهيثم باقتضابٍ قائلًا إنه سمع فعلًا بذلك، واستغرب منه. ثم أخذ حديثنا إلى وجهة أخرى، بأن سأل المُسبِّحي عن الكتب التي ألَّفها، وأظنه كان يقصد بذلك مسايرته والتسرية عنه. ذكر له المُسبِّحي بعض عناوين مؤلفاته ولم يذكر من

بينها واحدًا، فسأله عنه ابن الهيثم وهو يبتسم: سمعتُ يا أمير، أنك أَلَّفت كتابًا من مائتين وألف ورقة، في فنون النكاح، فهل هذا صحيح؟

ـ نعم، صحيح. فقد أردتُ أن أهديه لأم ولدي، لأنها كانت حين عرفتها حَيية مفرطة في الحياء، وكانت تخجل من الأمور المتعلقة بالمجامعة، وتتحرَّج من كونها امرأة.

ـ إذن، فقد داويتها بالتي كانت هي الداء، كما قال الشاعر. وهل قرأت محبوبتك الكتاب؟

ـ لم يمهلها القدر، ولم يتمهَّل معي ولم يترفَّق. فقد مرضت فترة طويلة ثم رحلت عن دنيانا.

ـ يرحمها الله. وقد قيل لي يا أمير إنك شاعر، فلماذا لم تكتب في رثائها فإن الرثاء فيه سلوان.

ـ لا سلوان من بعد غيابها يا حكيم، ولا معنى بعد غيابها لأي شيء. والليلة الماضية كتبتُ أبياتًا في حبي لها وحُرقتي لرحيلها.

شردتُ بخواطري عن حديثهما وأسلمتُ قلبي للذكريات التي هجمتْ عليه، ولم أستفق إلا حين ألقى علينا «المُسبِّحي» أبياته الشعرية في رثاء أم ولده المتوفاة، فكانت أبياته رهيفةً مثل نصال السيوف الذابحة على مهلٍ.. قال، وسالتْ دموعه مع آخر الأبيات:

ألا في سبيل الحب قلبٌ تقطَّعا

وفادحةٌ لم تُبقِ بالعين مدمعا

أَصَبرًا، وقد حلَّ الثرى مَنْ أودُّه
فللهِ هَـمٌّ، ما أشـدَّ وأوجعا
فيا ليتني بالموت قد متُّ قبلها
وإلا، فلَيْت الموت أذهبنا معا

* * *

رسونا على الضفة الغربية للنيل قُبالة «البهنسا» وأخذتنا إليها الركائب، وكان ابن الهيثم يتلفت طيلة الطريق مندهشًا، ويطيل التحديث نحو بقايا الكنائس المخرَّبة، والبنايات المندثرة، ويتأمل الأعمدة الكبار الواقفة على استقامتها والمستلقية على الأرض. أمضينا هناك وقتًا طيبًا، وفي طريق رجوعنا أعرب لنا ابن الهيثم عن استغرابه من الناس الذين يأخذون الأحجار الكبار من الكنائس والمعابد، ويجعلونها أساسًا للمنازل والبنايات التي يعمرونها. فقال له «المُسبِّحي» إن الجميع في الصعيد يفعل ذلك، لاعتقادهم بأنها غنيمة من تراث الأقوام المندثرين، الذين غضب الله عليهم وقطع دابرهم.. ردَّ عليه ابن الهيثم بأسى: غضب عليهم، كيف! وقد وهبهم هذه الهندسات والعلوم والصنائع الدقيقة المذهلة، المدهشة للعقول.

ولم تكن دهشة ابن الهيثم في «البهنسا» شيئًا، بالقياس إلى دهشته وحيرته حين زُرنا البربا العظيمة في بلدة إخميم الواقعة شرقي النيل، البرابي الهائلة بالأقصر، شرقي النيل وغربه. فقد كان يجوس خلال البرابي ويطيل التحديق نحو شواهق الأعمدة، ويتأمل مليًّا في الرسومات الفلكية والكتابات والنقوش الملونة بأعالي الحوائط التليدة، ويسألني عما لا أعرف إجابته، أو يغمغم بعبارات غير واضحة

المعنى، من مثل: قبة النجوم هذه تختلف صورتها عما تظهر به، فكيف استطاعوا حساب انحراف الشعاع.. هذا التمثال المكسور يزيد طوله واقفًا عن خمس وأربعين ذراعًا، فما الطريقة التي أتقنوا بها نِسَبَ الملامح.. بأي آلةٍ رفعوا حجارة الأسقف إلى هذا الارتفاع.. هل تعلَّم بطليموس هنا؟.. وغير ذلك كثير من التساؤلات التي همس بها وهو يجوس خلال البرابي، ويطيل الوقوف صامتًا أمام البنايات التليدة العالية، حتى صرت أخشى على عقله من الوقوع في دوامات الذهول. وصحَّ عندي ما تحسَّب منه «الحاكم» وحذَّر، حين كنا في القاهرة.

قبل وصولنا إلى أسوان سألتُ ابن الهيثم عن سبب تحيُّره وعزوفه مؤخرًا عن الطعام والكلام، فردَّ في البداية باقتضابٍ وتمهُّل، ثم أفاض في التبيان وقال: تشغلني أمور لا حصر لها، وأسئلة لا إجابة عليها. هندسة القدماء هذه، وبدائع صنعتهم، مربكة للأذهان. أتعرف يا مطيع، هذه الأعمدة العالية في الأقصر، وفي غيرها، يزيد طولها عن عمق النيل في عدة مواضع. فلماذا لم يضمها الأوائل فتكون سدًّا يتحكمون به في الفيضان؟ وهذه الكتابات الكثيرة على مبانيهم، لا يمكن أن تكون عبثًا، ولابد أنهم يخبرون بها عن أسرارٍ كثيرة. فكيف اندثرت لغتهم فجأة، وما عاد أحدٌ يقدر اليوم على فهم رموزها.. ولماذا احتفلوا بالنساء، وصنعوا لهن هذه التماثيل الكبار؟!

ـ لعلها طبيعة الناس هنا يا سيدي، منذ قديم الزمان وحتى الآن. فإلى يومنا هذا، يوجد في هذه الصحراء الشرقية

قومٌ اسمهم «البَجَّة» تتولى أمورهم النساء. ولا عمل للرجال عندهم إلا مضاجعة المستعدات منهنَّ للحَبَل، وهم ينسبون المواليد لأمهاتهم.

ـ هذا عجيب فعلًا. وكيف تصلح أمورهنَّ؟ وماذا لو هجم الرجال عليهن.

ـ أمورهن صالحة منذ زمن، وهنَّ يقاتلن عند اللزوم بشراسةٍ يخشاها الرجال المحاربون.

ـ ويخلق ما لا تعلمون، سبحانه، ولعل هؤلاء هن حفيدات الكاهنة «دِهْيا» التي دوَّخت جيوش المسلمين، أيام فتوح المغرب الأقصى. فلا غرابة إذن في أحوالهن، وطريقة حياتهن الغريبة هذه.

ـ ربما يا سيدي، فكلهم من البربر الذين يسمون أنفسهم «أمازيغ» وهم يتكلمون بغير اللغة العربية.

في «أسوان» استقبلَنا الوالي بالترحاب، ورسم لنا جماعة يقومون بخدمتنا. ورست المراكب العشاريات عند ضفاف البلدة، لصعوبة سيرها مع النهر جنوبًا بسبب الجنادل، وهي منحدرات صخرية بالغة الوعورة، يتدفق الماء من بين صخورها ويندفق في بعض المواضع فيكون له خريرٌ يصطخب، له صوت الشلالات.. بقي ابن الهيثم والعمال شهرًا منهمكين في العمل، يرفعون مساحات المواضع موضعًا بعد الآخر، ويقيسون ارتفاع الأرض وعمق المجرى. وكان يصنع لكل موضع هيئة مصغرة من الطين والحجارة والرمل، ويسكب من خلفه مقدارًا من الماء ليرى قوة اندفاقه وقدرة الحاجز على احتمال ضغط المياه، ويحدِّد شكل البحيرة التي تكون خلف الحاجز.

وحين لا يجد الحال منضبطًا على النحو الذي يريد، يسير جنوبًا ويعيد الكرَّة في موضع تالٍ، حتى بلغنا حدود بلاد النوبة. ولها ملكٌ مطاع. أخبرنا والي أسوان بأن حدود دولة «الحاكم بأمر الله» تقف بنا عند هذا الحد، ولن نستطيع استكمال السير جنوبًا إلا بإذن ملك النوبة. وأكد لنا أن «النوب» و«المقرة» وكلاهما من القوم الأقوياء، لن يوافقهم إقامة سدٍّ أو بناء حاجز للنيل عند تخوم بلادهم. لأنهم يسكنون على ضفاف النهر بحذاء المجرى، ولسوف تنطمر منازلهم وتغرق نواحيهم تحت سطح الماء المحتجز خلف السدّ.. قال ابن الهيثم وهو محتار: لكن أرض أسوان منخفضة عما يلي موضعها من جهة الجنوب، ولن تناسب أرضها المنبسطة السد، فما العمل؟

بقي ابن الهيثم يومين يرسم في أوراقه أشكالًا، وينظر في النواحي المحيطة متأملًا، ثم أُسقط في يده بعدما تفكَّر طويلًا. وطلب أن نخبر «الحاكم» بما انتهى الحال إليه من الإقرار باستحالة عمل السد أو إقامة حواجز في مجرى النهر، ما دامت ممالك النوبة والمقرَّة قائمة.. حمل الحَمَامُ الرسالة، وعاد إلينا بأمر «الحاكم» برجوعنا إلى القاهرة بلا تباطؤ أو تأخير.

وكان الأمير المُسبِّحي قد سبقنا في العودة إلى القاهرة، بأيام، بعدما استعاد بعض ذاته واستردَّ خلال الرحلة رشده من غَيابة الحزن. وأظنه تحدث إلى «الحاكم» عن كمِّ المجهود الكبير الذي بذله ابن الهيثم لتنفيذ فكرته، وحرصه على عدم المغامرة بتبديد النفقات بغير طائل. ولهذا تفهَّم «الحاكم» الأمر وقبل بالفشل، على مضضٍ، ولكن من دون غضبٍ ظاهر.

عُدنا من أسوان بالرواحل، لبطء سير المراكب تجاه الشمال بسبب معاكسة الريح للأشرعة، وكنا نبيتُ كل ليلةٍ ببلدة أو قرب قرية، وتصلنا الأخبار مختلطة بالشائعات والروايات المائعات. فكان مما بلغنا خلال الطريق، أن «الحاكم» يصبُّ غليان غضبه على النصارى، وخصوصًا الروم منهم. بسبب استعلائهم بأسقفهم العام، المسمى عندهم أبو الآباء، البطريرك «أرسانيوس» رأس كنيسة الإسكندرية، خال ستّ المُلك. وصاروا يتظاهرون بأعيادهم، فمنع الحاكم الاحتفال بها. ثم لحق غضبُ الحاكم ببقية النصارى القبط، وباليهود، فألزم غير المسلمين بالملابس المغايرة واشتد عليهم. فلما طال بهم البلاءُ، ترك كثيرون منهم دياناتهم ودخلوا في الإسلام، تقيةً أو اتقاءً للتضييق والمضايقة. خصوصًا بعدما هدم «الحاكم» أديرة وكنائس، كانوا يتوهَّمون أنها مقدسة في ذاتها وأن انهدامها سوف يزلزل الأرض، فلم يحدث بعد إزالته أي شيء. وكان قد فشا بين النصارى حديثُ خرافةٍ يزعم أن جبل المقطم لم يكن بموضعه هذا، وإنما انتقل إلى مكانه الحالي استجابةً لدعوة أحد قدِّيسيهم! فأمر الحاكم بهدم أديرة المقطم وكنائسه. كما بلغنا أن «الحاكم» قتل بطريرك الإسكندرية أرسانيوس، فتوقعتُ أن يدب الخلاف بين الحاكم وأخته ستّ المُلك. ولم أخبر أحدًا بذلك. وقد صحَّ توقُّعي هذا، وتأكَّدت منه بعد عودتي إلى الفسطاط والقاهرة، خصوصًا بعدما أخبرني «حسام بن يانس» وغيره، أن نساء «الحاكم» بالقصر الكبير تآمرن عليه. فلما سمع بمكرهنَّ، نقم عليهنَّ فأغرقهنَّ في النيل وصادر أملاكهنَّ.. وخلال هذا الخضم أخفتْ «ستّ المُلك» بقصرها أمَّ ولد الحاكم «رقية» ومعها ابنها «عليّ» ومنعت الحاكم

من رؤية الولد وأمه.. وقد بقيا مستورين عندها سنوات زادت على العشر، حتى اختفى الحاكم سنة إحدى عشرة وأربعمائة، فنصَّبتْ «ستّ المُلك» ولده «عليّ» مكانه، فصار خليفةً بعد أبيه وحمل لقب: «الظاهر لإعزاز دين الله». حسبما سأذكرُ بعد قليل.

وصلنا من أسوان إلى القاهرة لثلاث ليالٍ بقين من شهر ذي القعدة، وانتظرنا عدة أيام للدخول على «الحاكم» لأنه كان منشغلًا بجملة أمور، أهمها فرار قائد القوات «الحسين بن جوهر الصقلبي» من القاهرة، وذيوع أخبار بأنه التحق بقبيلة «بني قرة» أعداء الحاكم، وهم الذين تحالفوا قبل سنوات مع الثائر الملقَّب بأبي ركوة. فبعث الحاكم بالعساكر لمطاردة «الحسين بن جوهر» ثم خادعه وأمَّنه، وبعد حينٍ قتله.

وكان ابن الهيثم خلال تلك الأيام المدلهمَّة مرعوبًا من مقابلة «الحاكم» وألحَّ عليَّ في حضورها، فذهبتُ معه ولم يعترض الحاكم على ذلك.. جرى اللقاء بمنظرة اللؤلؤة في يومٍ صيفي شديد الحرارة، كأن الشمس احتضنت فيه الأرض فهرب من بينهما الهواءُ. ألقينا السلام على أمير المؤمنين بما يقتضيه المقام، فردَّ باقتضاب ووجه متجهِّم، ولم يبدأ بالكلام. وبعد برهةٍ بدت طويلة، أشار بيمينه إلى ابن الهيثم، كي يخبره بما عنده. تلعثم ابن الهيثم وهو يقول للحاكم إنه لم يدَّخر جهدًا لإنجاح الفكرة، بذل كل ما أوتي من الأفكار والوسائل والحيل، لكن طبيعة الأرض في ولاية أسوان لن تعين على بناء السدود، فلابد لذلك من الدخول في أرض النوبة، وعبورها، وهذا حسبما قيل له: غير ممكن.

لم يُظهر الحاكم أي اندهاش مما سمع، وأطرق قليلًا ثم نظر نحوي فأومأتُ برأسي مؤكدًا صدق كلام ابن الهيثم. التفت إليه الحاكم وقال: كنتُ أحب أن تنجح في مسعاك، ولكن قدَّر الله وما شاء فعل، فماذا تريد الآن أن تفعل؟ هل تود مفارقتنا والعودة إلى الشام أو العراق؟

ـ يا أمير المؤمنين، عفوك. لا يخفى على وافر علمكم، أنه صار من العسير قبولي بالشام أو العراق، بعد مقامي بمصر. فهذه النواحي مضطربة بخلافات السلطة واختلاف المذهب، وفيها العباسيون من السنة المتعصِّبين، والبويهيون وهم على المذهب الاثنا عشري، وبقايا الحمدانيين.. وقد رحل «المتنبي» من مصر إلى تلك النواحي وساح فيها، فلم يجد له مأمنًا وساء مصيره، وقُتل في خاتمة المطاف.

ـ تريد أن تبقى بمصر؟

ـ نعم يا أمير المؤمنين، فهي بلاد طيبة، و...

ـ لا بأس، يمكنك ذلك. وسوف أوليك حساب النفقات في «ديوان دار الطراز» أو تتولى «الديوان المفرد» الجديد، وهو برسم ما تتم مصادرته من أموال المقتولين، السرَّاقين. ولا أظنك سارق مالٍ، أو متآمر، فستكون بأمانتك بمأمن من القتل. انصرفا الآن، فإن عندي شواغل عدة.

كان لقاؤنا هذا بالحاكم، عصر يوم الأحد الموافق للثاني من

ذي الحجة سنة أربعمائة، وفور خروجنا قابلنا الأمير المُسبِّحي عند بوابة المنظرة، فسأل عما جرى مع الحاكم. وبعد أن قصصت عليه ما جرى، نظر لابن الهيثم بأسى وقال له: كان يجب عليك أن تستعفي، فالوقتُ غير مناسب والفتن تجوس خلال الديار. ما شأنك أنت بتكاليف الزركشة وحياكة الحُلل والملابس، وما شأنك بالمسلوب من مال المقتولين!

ارتعب ابن الهيثم، ثم ازداد رعبه وفزعه بعد ساعةٍ، عندما أخبرنا «حسام بن يانس» بواقعة الركابي. ذلك أنني بعد الخروج من المنظرة، أخبرت «ابن الهيثم» بأنني سأمرُّ في طريقي بصديقي «حسام بن يانس» فقال وهو يجاهد الخجل: هل يمكنني الذهاب معك؟

كان خائفًا يرتجف، وكنت أريد المرور على حسام لأعرف منه ما انتهى إليه رأيهم، في أمر زواجي بأخته. إذ كان قد أخبرني سابقًا بأنه لن يُتم الزيجة إلا بعد موافقة أمه، وبأنه سوف يعرض عليها الأمر.. عند بوابة داره استقبلنا «حسام» بالترحاب والابتهاج بالزيارة، وبعد جلوسنا أسهب كعادته في سرد ما يجري من الحوادث وما يتناقله الناس من حكايات، منها منع «الحاكم» جميع مظاهر التعصب المذهبي بين السنة والشيعة، بلا تفرقة بينهما. ومنها مقتل البطرك أرسانيوس قبل عشرة أيام، وكان أتباعه يعتقدون بأنه صورة الرب المسيح في زماننا، فلما قُتل قالوا كيف يُقتل الربُّ مرتين. وكفر كثيرٌ منهم بالديانة وأعلنوا إسلامهم، فازدحمت المساجد. ومنها أن القائد «حسين بن جوهر» وأولاده وصهره «عبد العزيز بن النعمان» نهبوا أموالًا وسلاحًا وهربوا بها ليلًا، وفجرًا أحاط الحاكم على كل ما يملكون وصادره، وأصدر أوامره للجيش بمطاردتهم.. وكان

«حسام» يسرد علينا هذه الدواهي، وهو يضحك مثلما اعتاد أثناء الحكي، كأنه يقصُّ علينا مسامرات وفكاهات.

وكان مما حكاه حسام فأثار فيَّ التعجب، وأهاج بصدر ابن الهيثم الوجل، أن «الحاكم» قبل أسابيع كان يمرُّ بموكبه في الفسطاط وأمام الجامع العتيق حيث الساحة العامرة بالعابرين والدكاكين الكثيرة، أمسك برمح وطعن به ركابيًا يسير في موكبه، فقتله. ثم أخذ من دكان الشوّاء «مصطفى الحلبي» الكائن قبالة الجامع ساطورًا، ومزق به جثمان القتيل وأخرج أحشاءه على الأرض، ثم ترك الجثة الممزقة وركب دابته وانصرف في هدوء. اضطرب ابن الهيثم بعد سماعه تلك الواقعة، وطلب أن ينصرف إلى منزله. فأرسل معه «حسام» واحدًا من الخدم ليوصله إلى هناك، مع أن المكان قريب، وعاد إليَّ فقال وهو يضحك: العلّامة مرعوب.

ـ ألا ترى الأمر مرعبًا يا حسام!

ـ لا، فأنا أعرف يا مطيع الخفايا..

ـ خفايا! ماذا تقصد؟

جلس حسام إلى جانبي، وبوجه جاد غير معتاد منه همس لي بعدما أوصاني بالكتمان، بأن الحاكم كان يعرف هذا الركابي المقتول، ويعلم أنه مصاب بداءٍ عضال لا شفاء منه. هو ما يسميه الأطباء «الورم الفلغموني» وقد انقلب في بدنه إلى نوع من «السرطان» يعسر تنقية الجسم منه بالتداوي. الرجل كان لديه عيال وكان يعاني من آلام لا يمكن احتمالها، فأراحه منها الحاكم بالقتل. وفي الصباح التالي أرسل مَنْ يدفنه، وأمر القاضي بالصلاة عليه، وبعث بمالٍ إلى عياله..

ـ ولماذا يفعل ذلك بهذا الشكل الشنيع، وعلى الملأ؟

ـ نعم يا مطيع، كان من الضروري. فقد قصد الحاكم تخويف الناس وردعهم، بعدما تواترت الأخبار عن فرار القائد حسين بن جوهر وجماعته بالمال والسلاح، فزاد عند العوام الميلُ إلى الانفلات.

بدا لي هذا التعليل غير مقنع، لكنني أردتُ الابتعاد بحديثنا عن تلك الفظائع، ومعرفة الأخبار المبهجات، فسألته عما تم بخصوص أخته فضحك وعاد للكلام بصوته العالي، المعتاد، وأخبرني بأن «صفا» لم تمانع، وأمهما وافقت بشرطٍ لا تجوز المجادلة فيه.. «فاقبل أو اصرف نظرك عن الزيجة».. قال ذلك وهو يشرب ثمالة كأسه، وتمهل برهةً قبل أن يخبرني بالشرط ويردف كلامه بأنه ينصحني بقبوله.

قال وهو يبتسم إن أمه تشترط عليه ألا يتزوَّج على «صفا» وذلك عملًا بقاعدة لا ضرر ولا ضرار ولا ضرَّة. فإن تعهَّد بذلك علانية ثم خالفه، تكون «صفا» مطلقةً ثلاثًا ولا سبيل لردِّها. ويمكنك بالطبع أن تتسرى، ويكون لك أمهات أولاد، أما زوجة ثانية فلا.. ثم لا.. ثم لا.

ـ وما رأيك أنت يا حسام؟

ـ اقبلْ، فتكون صديقي وصهري..

ـ قبلت.

كانت أمه فيما أظن تسمعنا من خلف الباب، فقد أرسلت فور

و الفتني خادمةٌ تخبر بقدومها، ودخلت بعدها ببرهةٍ لم تطل. قلت
ها إنني موافق على شرطها، فكيف تريد مني إعلانه على الملأ؟
الت: لا داعي لذلك، يكفي أن تقرَّ به أمامنا الآن، فلسنا بحاجةٍ إلى
شهود نحرجك أمامهم.

ـ أقرُّ يا سيدتي، أقر. هل يمكنني رؤية العروس، بعد إذنكِ طبعًا وإذن أخي حسام.

ـ ستراها في دارك الأسبوع القادم، بعد الزواج.

ـ الأسبوع القادم، يعني في عيد الأضاحي يا سيدتي؟

ـ نعم، نقيم العرس ليلة اليوم الثالث من العيد.

ـ طيب.. جميل.. وماذا عن مهرها؟ ماذا تطلبين يا سيدتي؟ ماذا يا حسام؟

ـ دينار واحد فقط، فإن خالفت شرط الزواج أغرِّمك ألف ألف دينار كمؤخَّر صداق.

ـ لن أخالفه.

ضحك حسام وأحسستُ بأجنحة السعادة تحملني إلى السماوات العُلى، واستأذنت منهم في الذهاب لإعداد ما يلزم للعرس فليس أمامنا إلا عشرة أيام.. خرجتُ من عندهم فرحًا وأسرعتُ الخطى، وقد أنساني ابتهاجي «ابن الهيثم» المنزوي وحده في منزله، وانتبهتُ إلى ذلك عند وصولي إلى بوابة القاهرة، فوخزني الخجل وعدتُ إليه على عجل.

وجدته جالسًا في سكونٍ بحديقة المنزل والظلام يحيط به،

لغياب القمر بالمحاق وانطفاء فتيلة القنديل. أتيتُ من داخل المنزل بقنديلين، وعلى ضوئهما جلستُ قبالته مثلما يجلس التلميذ، وحانت مني نظرة كلمح بالبصر نحو أعالي القصر الغربي، كأنني سأجد هناك «ستّ المُلك» تراقبنا من بعيد، فلم أشاهد شيئًا في العتمة. لَمَحنى وبدا في عينيه استغراب، لكنه لم يسألني عما أتطلع في الأعالي إليه، وسألني عما جاء بي الآن وقد تأخر الوقت؟ قلت: لأطمئن عليك يا سيدي، وأعرف منك سبب القلق البادي عليك.. سكت لحظة بدا فيها مهمومًا، ثم أجابني وأفاض في الكلام على غير المعتاد منه، قائلًا: كل ما حولنا يدعو إلى القلق. لكنني لست قلقًا على حياتي، أو خائفًا من الموت. بل بسبب كتاب لابد أن أُنهيه، ولا أجد معنى لوجودي في هذه الدنيا إذا لم أتمه. وقد أَلّفتُ مؤخرًا كتابين، أحدهما بعنوان «مقالة في تشويق الإنسان إلى الموت بحسب كلام القدماء» والآخر بعنوان: «مقالة في تشويق الإنسان إلى الموت بحسب كلام المحدثين».. وأنا مؤمنٌ بكل ما أوردته في المقالتين، بل موقنٌ به. لكنني أريد إتمام كتاب «المناظر» لأنني أعرف أن ذلك لن يستطيعه غيري، قل لي يا مطيع، هل أستطيع الوثوق بك وأُطلعك على سرٍّ، فتحفظه؟

- طبعًا يا سيدي، فأنت في نظري أجلُّ أهل الأرض. وقد قلت لك سابقًا إنك عندي مثل أبي الذي لم أعرفه.

- حسنًا، دعنا نصعد إلى سطح المنزل، فالهواء هناك ألطف والمكان أبعد عن العيون والآذان.

كان متوجِّسًا جدًّا، وأخبرني على السطح بنبرةٍ مترددة في البداية،

مفصيةٍ لم أدرك مراده منها إلا في النهاية. قال إنه في شبابه بالبصرة تولّى وظائف ديوانية في بلاط أمير بويهي، وكان كثيرٌ من حاسديه يحيطون به. والبصرة معترك للتعصب المذهبي بين الشيعة وعلى رأسهم الأمراء البويهيون والجند، وأهل السنة وعلى رأسهم الخليفة العباسي ومعظم العلماء والكبراء ببغداد. والحماسة المذهبية إذا احتدمت والتحمت بالتعصب، غيّبت الرُّشد وسلبت الألباب وألحقت العاقلين بالمجانين. هكذا قال. وقد وجد نفسه في وسط هذا الأتون المذهبي المتوهجة نيرانه، فأهل السنة رأوه شيعيًّا لأن كُنيته «أبو علي» واسمه واسم أبيه «الحسن». والشيعة رأوا أنه ناكص عن المذهب وغير مخلصٍ له، لأنه لا ينحاز إلى التشيع وإلى جماعته. وازداد الحال سوءًا واشتد، بسبب مجادلاته مع المعتزلة وبسبب نجاحه في عمله، حتى إنه اقترب في دواوين البويهيين من رتبة الوزارة. ولما كثرت الدسائس والمؤامرات من حوله للإيقاع به، وجد حيلة للخلاص من كل ذلك. قال في نفسه: ما دام التعقل قد تبدَّد، وساد بين الناس الجنون. فإن المجانين يميلون بطبعهم للمجنون، بقدر ما يكرهون العاقل. فليكن الجنون هو سبيله لدرء الجنون، وليجعل دخوله في زمرة المجانين مخرجًا له من سطوة المجانين.. وفي اليوم التالي، خرج من منزله بلا عمامة على رأسه، فبدا مثل القلندرية والمجذوبين. وفي طريقه إلى مقر عمله، لم يرد على أحدٍ ممن يحدثونه أو يلقون عليه السلام. وحين جلس بين الناس في الديوان، شَخَصَ ببصره لأعلى وفَغَر فاه وسكن عن الحركة تمامًا. حدَّثوه فلم يجاوبهم بشيءٍ، ولما استدامت عليه تلك الحال ساعاتٍ، أخذوه إلى منزله وحاولوا إطعامه فلم يبلع لقيمةً، وسكبوا في فمه الماء فكان يحسو

منه خفيةً من حيث لا يلاحظون. واستمر على ذلك يومين، فقال الناس إن عقل الحسن بن الهيثم أذهبه التوغل في العلم، وانتشر بينهم هذا الكلام وصدَّقوه، لأنهم ميَّالون بغبائهم إلى تصديقه. وبعد حينٍ توارى عن أعينهم فنسوه وأهملوا أمره، فاستطاع الخروج من بينهم بسلام، وذهب إلى الشام. وكان يقول لمن يلقاه على طريق فراره من العراق، إنه ذاهبٌ إلى طبيب دمشقي سوف يعالجه من جنونه وذهول عقله، فكان بعضهم يدعو له بالشفاء الموهوم. وبعضهم الآخر يتساخف فيقول له عباراتٍ ساقطاتٍ من مثل: لا شفاء من الجنون يا مجنون.. لماذا تحمل معك الكتب، وهي سبب جنونك؟ سواء شفيت أو بقيت مجنونًا، لا تعد إلى هنا، فنحن عنك في غنى.. أخيرًا سنرتاح من وجودك..

* * *

قبل عيد النحر والأضحيات بيومين، كنتُ منهمكا في الاستعداد للعرس المرتقب وقد اقترب موعده. وفي غمرة انهماكي استدعاني الحاكم صباحًا إلى القصر الكبير، فذهبتُ إليه قبل صلاة الظهر. وبعد انتهائه من أعمال التوقيع جلستُ معه، وكان ظني يوهمني بأن الاستدعاء يتعلق بالعرس، لكنه لم يكن كذلك. خرج إليَّ الحاكم عند بوابة القاعة وسار بي وهو صامتٌ، حتى دخلنا «دويرة التين والعناب» حيث كنا نلعب ونحن صغار، وحيث قتل «برجوان» وجلس هناك وأجلسني على مقربةٍ وقال بشيء من الأسى إن «ابن الهيثم» ذهب أول أمس لاستلام عمله في الديوان، بلا عمامة على رأسه! وبعد

وصوله شَخَصَ ببصره لأعلى وفَغَرَ فاه وسكن عن الحركة تمامًا. حدّثوه فلم يجاوبهم بشيء، ولما استدامت عليه تلك الحال ساعاتٍ، أخذوه إلى منزله وحاولوا إطعامه فلم يبلع لقيمة، وسكبوا في فمه الماء فلم يشرب. وهو على تلك الهيئة منذ يومين، وأخشى هلاكه، ولهذا أريدك أن تذهب إليه وترى ما يمكن عمله، لعلك تنجح فيما فشل فيه الأطباء.. قلتُ إنني سأذهب إليه من فوري، وأعتقد ابتداءً أن سبب علّته هذه أنه مرعوب.

ـ مرعوب من ماذا؟

ـ يوم كنا في حضرتك، عرف بعد انصرافنا قصة الركابي الذي قُتل أمام الجامع العتيق، فارتعب.

ـ وما صلته بهذا! لقد أردتُ بما فعلت ردع العوام. فما دخله هو بذلك؟

ـ خائفٌ يا أمير المؤمنين، ولا طاقة عنده بأعمال الدواوين، فهو هائمٌ في عوالم المعرفة والكتب والتأليف. وليتك ترحمه من المهام الديوانية وتعفيه منها، فيخلص مما هو فيه، ويفرّغ وقته للعلوم.

ـ لا بأس، سأعفيه من الوظيفة. وأريدك أن تتولى أمره بنفسك، وتقضي له حوائجه حتى يشفى. بشرط أن يُحظر عليه التجوال، ويُحبس بمنزله فلا يخرج منه أبدًا..

ـ لماذا يا أمير المؤمنين؟

ـ حتى لا يقول العوام وجُهَّال الناس إذا رأوه في الطرقات: هذا هو الرجل الذي خدع الحاكم بأمر الله، وعجز عن تنفيذ ما وعد به، وها هو حرٌّ طليقٌ.. فيُطمعهم ذلك فيَّ، ويتجرأون عليَّ.

ـ هذا رأيٌ حكيم، وسوف أكون في خدمتك يا أمير المؤمنين وخدمته فهو عندي رجل جليل الشأن، ويجب العناية به حتى يخرج مما هو فيه، فلا يقال إن عالمًا مثله جاء إلى بلادنا فأصابه الجنون.

ـ بارك الله فيك يا مطيع. اذهب الآن إليه، وانظر فيما يمكن عمله حتى ينصلح حاله.

ـ حاضر. ولو أذنت لي، فسآخذه إلى داري فيقيم بغرفة على سطحها وينعزل هناك، فهذا أوفق له. وهو لم يكن يريد الخروج من مصر، فلن يهرب، ولن أسمح بخروجه من داري إلا بإذن منك. وسكناه عندي أوفق لي، وأيسر، لأن زواجي بابنة يانس الصقلبي رحمه الله، بعد أيام.

ـ مبارك زواجك يا مطيع، وأرجو أن يرزقك الله منها ذرية صالحة. سوف أرسل هديتي للعروس إلى دارك بالفسطاط، صباح يوم العرس.. مبارك.. ولكن خذ حذرك من النساء يا مطيع، وفرِّق بينهنَّ حتى لا يجتمعن عليك، فهن مجبولات على التآمر. واعملْ يا مطيع بنصيحة جدّي «المعز لدين الله» صلوات الله عليه، حين قال: الزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا، فحَسْبُ الرجل الواحد المرأةُ الواحدة.

ـ حاضر. وماذا عن إقامة ابن الهيثم بداري، مع حظره هناك عن الخروج؟

ـ لا مانع، خذه معك. فهذا فعلًا أوفق له، وأيسر لك.

* * *

أسكنتُ ابن الهيثم بأرحب غرفة على سطح داري، ولاحقًا ألحقتُ بها الحجرة المجاورة، كي يتسع المكان لكتبه. وفور وصوله أوصيتُ خادمتي «بان» بأن تتفرغ له، وتقوم بكل ما يلزمه. وهو على كل حالٍ لا يلزمه كثير، ويقنع بأي قليل من مأكل وملبس. وأوصيته بعدم الظهور يوم عرسي، فالتزم، ولما عدتُ بعد العرس مع «صفا» من داري بالجيزة، حيث قضينا أول أيام زواجنا وصنعنا خلالها أبهى الذكريات. كان ابن الهيثم قد استعاد حاله الأول وكفَّ عن إظهار الذهول والخبال، بعدما سكن وهدأت من حوله الأحوال. وهكذا أنقذه الجنون مرتين. ولم يُحوج إلى ثالثة فقد بقيتْ أمورنا في الدار هادئةً لسنواتٍ طوال، مع أن الحوادث كانت تضطرم خارجها وتضطرب، لكننا كنا في شبه عزلة عما يدور حولنا.. وبعد إقامة ابن الهيثم بداري، بشهرٍ وعدة أيام، أتانا صباحًا مرسالٌ من الأميرة «ستّ المُلك» يحمل صرة مالٍ أرادت إهداءها لابن الهيثم، فاستبقيتُ الرسول عند بوابة الدار وصعدتُ بالصُّرَّة إليه فرفض أخذها، بل لم ينظر فيها ليعرف مقدار ما بها. واكتفى بقوله: لا حاجة عندي إلى المال.

ـ يا سيدي، بالمال تحصل في النفوس الطمأنينة.

ـ ويحصل أيضًا الخوفُ من فقدانه، والرغبةُ في الإكثار

منه. يا مطيع، كل ما زاد عندك عن حاجة يومك، فهو عبءٌ عليك. وأنا عندي من الأعباء ما يكفيني.

ـ أعباء! أيُّ أعباءٍ تلك يا سيدي؟

ـ عبءُ الانتهاء من الكتاب الكبير في كيفية الرؤية وإدراك المناظر، وعبءُ حساب درجة انحراف شعاع الضوء إذا مرَّ في وسط شفيف، وعبءُ اكتشاف كيفية الغلط الواقع عند رصد النجوم. يا مطيع، أعد المال إلى صاحبته ودعني فيما أنا فيه.

ـ حاضر يا سيدي، حاضر.

اعتذرت للأميرة عبر المرسال، عن عدم قبول ابن الهيثم لما أهدته له. وعندما زارني «حسام» صديقي الذي صار صهري، في المساء، حكيتُ له ما حدث في الصباح فسألني إن كنت قد أخبرت «الحاكم» بذلك، فقلت: لا. قال: أخبره، ولا تُدخل نفسك في خلافٍ لست طرفًا فيه. أرسلتُ في الصباح التالي إلى الحاكم رقعةً بخطي فيها ما جرى بالأمس من «ستّ المُلك» ومن رفض ابن الهيثم للهدية، فكتب لي على ظهر الرقعة، بخطه: حسنًا فعل.

على أن «ستّ المُلك» لم تيأس ولم تحوجها الحيلة للوصول إلى ما تريده من مدِّ يد العون والمساعدة لابن الهيثم، ولو من بعيد، ومن وراء ستار. فمع انتصاف العام الموفى أربعمائة للهجرة النبوية، هدأت من حولنا الأمورُ العامة والخاصة إلى حين، وصارت داري بحضور «صفا» صِنْو الجنة الموعودة المتمناة.. وصار «الحاكم» كالزهاد من الصوفية، أو صار بالأحرى كالمنقطعين في الخَلْوات

الموز بالجَلْوات.. وصار «ابن الهيثم» مثلما كان يودُّ دومًا ويريد، فهو طيلة وقته متفرغٌ للعلم ومنكبٌّ على تأليف الكتب والرسائل.

وخلال شهور الهدأة الهانئة هذه، وفي يوم ربيعيٍّ بديع الطقس، جاءنا رجل قال إنه كُتُبي وطلب من ابن الهيثم أن يكتب له بخط يده ثلاثة كتب، ويدفع له مقابل ذلك مائةً وخمسين دينارًا. أخبرتُ ابن الهيثم بالأمر، فنزل معي من سطح الدار إلى غرفة الضيوف، وسأل الرجل عن الكتب الثلاثة التي يريده أن ينسخها، فأجابه الرجلُ بأنها كتاب بطليموس السكندري «المجسطي» وهو الكتاب الكبير، العمدة عند الأوائل، في الفلك والرياضيات . وكتاب إقْليدس المعروف عند الرياضيين بعنوان «الأصول» وبعنوان «عناصر الهندسة» أو «مبادئ الهندسة» وهو كتاب جليل في قواعد الرياضيات من حيث الكم المتصل أي الهندسة، والكم المنفصل وهو الحساب. والكتابُ الثالثُ المطلوبُ هو المعروف عند العلماء باسم «المتوسطات» وهو يضم الرسائل والمباحث الرياضية الواجب درسها بعد كتاب إِقْليدس، وقبل كتاب بطليموس، ومنها رسالة مِنالاوس المعروفة بكتاب الأكر، أو الأشكال الكروية، وكتاب «المأخوذات» لأرشميدس.

ابتسم ابن الهيثم راضيًا وهو يقول للرجل: هذه والله اختيارات جيدة، فهل تشتغل بالرياضيات أم تريد الكتب لغيرك؟.. لم يتريث الرجل أو يفكر في الإجابة، وقال من فوره: هي لأحد مُحبِّي العلوم ولا يريد أن يعرفه أحد.. فلما سمع منه ابن الهيثم ذلك، أطرق حينًا ثم قال: أوافق.

أخرج الرجل الغريب من بين طيات ملابسه مائةً وخمسين دينارًا

وقدَّمها إليَّ وهو يقول: احفظ هذه معك يا سيد مطيع، وسأعود إليك في الربيع القادم، فإما أن أجد الكتب الثلاثة أو تعيد إليَّ المال. فتحيَّرتُ، ولم أدرِ ما أردّ به حتى قال لي ابن الهيثم وهو يومئ برأسه: لا بأس، خذها.. ولما انصرف الرجل، قال لي ابن الهيثم ممازحًا: ها هي أجرة إقامتي عندك، قد وصلتك من حيث لا نحتسب.

ـ يا سيدي، لو تعرف قدرك عندي، وأنك حقًّا وصدقًا مثل أبي، ما قلتَ لي ذلك.

ـ أمازحك يا مطيع، أمازحك. فلا تكن سريع الانفعال هكذا، هيا لتصعد بي إلى غرفتي فإن بين يديَّ رسالةً، أريد أن أكمل كتابتها.

ـ حاضر، هل يمكنني معرفة موضوع الرسالة.

ـ يمكنك.. هي شرح لبعض عبارات أرسطو في كتابه السماء والعالم.

ـ عجيب. كنتُ بالأمس في سوق الوراقين، ورأيت هناك رسالة في ذلك، كتبها حكيم مشرقي اسمه أبو علي الحسين بن سينا. هل سمعت به يا سيدي؟

ـ طبعا أعرفه، لكنني لم ألتقِ به.

ـ فلماذا تهتمون كثيرًا بما كتبه أرسطو؟

عاد ابنُ الهيثم بظهره إلى الوراء، وحدَّق لحظة في الجهة المقابلة ثم التفت نحوي، وأخبرني متمهِّلًا بأنه منذ صباه يتفكَّر في اختلاف الناس حول مسائل العقيدة وتفاصيل المذهب الديني، ويتأمل في

تعصب كل فرقة لما يعتقدون من الرأي: ورأيتُ كيف تنهار البلاد ويعاني العباد بسبب تلك المسائل والتفاصيل، سواء كانوا في أقاصي المشرق حيث يتصارع الغزنويون تحت راية السُّنة، مع البويهيين الشيعة. أو كانوا في العراق والشام، حيث يحتدم الخلاف ما بين السُّنة ببغداد والشيعة في الجنوب، وبين الشيعة في حلب والسُّنة في دمشق. وليس بعيدًا عن ذلك ما جرى بمصر قبل سنوات قليلة، أيام ثورة أبي ركوة.. وقد أمعنت النظر في هذا الأمر المعضل، ودرستُ المذاهب باستفاضةٍ، فوجدتني في خاتمة التطواف متشككًا بمذاهبهم جميعًا، وموقنًا بأن الحق واحدٌ، ولا يمكن الوصول إليه إلا بطريقٍ واحدٍ. هو الآراء التي يكون عنصرها الأمور الحسية، وصورتها الأمور العقلية، وعمادها المنطق. ولم أجد ذلك إلا فيما قرَّره أرسطو من علوم المنطق والطبيعيات والإلهيات، التي هي جوهر الفلسفة. ولابد أن ابن سينا وأمثاله في المشرق والمغرب، قد ساروا في الطريق ذاته، فانتهوا إلى ما انتهيتُ إليه.

بعد تلك الليلة بشهور، وبعد انتقال سُكنى ابن الهيثم من سطح الدار إلى المنزل الملاصق لجدارها الخلفي، مررتُ عليه في ليلة صيفية فوجدته منكبًّا على الكتابة، ولما سألته عما يشتغل به أجابني بعدما تنهد بارتياح، بأن عمله في نسخ الكتب الثلاثة، المتون، كان له فيه فائدة عظيمة. إذ أتاح له تأمُّل النصوص على مهلٍ، وإعادة النظر فيها، وهذا كتابٌ جديد بدأ فيه اليوم ويعتقد أنه سيكون مفيدًا. وسوف يجعل عنوانه: «الشكوك على بطليموس».

سألته إن كان بإمكاني قراءة ما كتب، فقال وهو يمدُّ نحوي الأوراق التي أمامه: يمكنك، لكنها مسوَّدة المقدمة فقط، وسأعاود

تبييضها لاحقًا.. نظرتُ بشغفٍ في الورقتين، فكان مكتوبًا فيهما بخطٍّ جميل:

الحَقُّ مَطْلُوبٌ لِذَاتِه، وكُلُّ مَطْلُوبٍ لِذَاتِهِ فَلَيْسَ يَعْنِي طَالِبُهُ غَيْرَ وُجُودِهِ. ووُجُودُ الحَقِّ صَعْبٌ، والطَّرِيقُ إليهِ وَعْرٌ. والحَقَائِقُ مُنْغَمِسَةٌ في الشُّبُهَات، وحُسْنُ الظَّنِّ بِالعُلَمَاءِ في طِبَاعِ جَمِيعِ النَّاسِ. فَالنَّاظِرُ في كُتُبِ العُلَمَاءِ، إِذَا اسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ، وجَعَلَ غَرَضَهُ فَهْمَ مَا ذَكَرُوهُ وغَايَةَ مَا أَوْرَدُوهُ، حَصَلَتْ عِنْدَهُ المَعَانِي التي قَصَدُوا لَهَا، والغَايَاتُ التي أَشَارُوا إِليهَا. ومَا عَصَمَ اللَّهُ العُلَمَاءَ مِنَ الزَّلَلِ، ولَا حَمَى عِلْمَهُمْ مِنَ التَّقْصِيرِ والخَلَلِ. ولَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لَمَا اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ في شَيءٍ مِنَ العُلُومِ، ولَا تَفَرَّقَتْ آرَاؤُهُمْ في شَيءٍ مِنْ حَقَائِقِ الأُمُورِ. والمَوْجُودُ، بِخِلَافِ ذَلِكَ. فَطَالِبُ الحَقِّ لَيْسَ هُوَ النَّاظِرَ في كُتُبِ المُتَقَدِّمِينَ والسَّابِقِينَ، أو المُسْتَرْسِلَ مَعَ طَبْعِهِ في حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ. بَلْ طَالِبُ الحَقِّ هُوَ المُتَّهِمُ لظَنِّهِ فِيهِمْ، المُتَوَقِّفُ فِيمَا يَفْهَمُهُ عَنْهُم، المُتَّبِعُ الحُجَّةَ والبُرْهَانَ، لا قَوْلَ القَائِلِ الَّذِي هُوَ إِنْسَانٌ مَخْصُوصٌ في جِبِلَّتِهِ بِضُرُوبِ الخَلَلِ والنُّقْصَانِ. والواجِبُ عَلَى النَّاظِرِ في كُتُبِ العُلُومِ، إِذَا كَانَ غَرَضُهُ مَعْرِفَةَ الحَقَائِقِ، أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ خَصْمًا لِكُلِّ مَا يَنْظُرُ فِيهِ، ويُجِيلَ فِكْرَهُ في

مَتْنِهِ وفي جَمِيعِ حَوَاشِيهِ. وَيَتَّهِم أَيْضًا نَفْسَهُ، عِنْدَ خِصَامِهِ، فَلا يَتَحَامَلُ عَلَيهِ ولَا يَتَمَسَّحُ فِيه. فَإِنْ سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقة، انْكَشَفَتْ لَهُ الحَقَائِقُ، وظَهَرَ مَا عَسَاهُ قَدْ وَقَعَ في كَلَامِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ التَّقصِير والشُّبَهِ. ولمَّا نَظَرْنَا في كُتُبِ الرجُلِ المَشْهُورِ بالفَضِيلَةِ، المُتَفَنِّنِ في المَعَاني الرِّيَاضِيةِ، المُشَارِ إليه في العُلُومِ الحَقِيقيَّةِ؛ أَعْنِي بَطْلَيْمُوسَ القَلُوذِيَّ، المُسَمَّى باللِّسَانِ اليُونَانيِّ قُلُودِيوس بَطْلَمْيُوس. وَجَدْنا فيها عُلُومًا كَثِيرةً، ومَعَانِيَ غَزِيرةً، كَثِيرةَ الفَوَائِدِ عَظِيمَةَ المنَافِعِ. ولمَّا خَصَمْنَاها ومَيَّزْنَاهَا، وتَحَرَّيْنَا إِنْصَافَهُ وإِنْصَافَ الحَقِّ مِنْهُ. وَجَدْنَا فِيها مَوَاضِعَ مُشْبَهَةً، وأَلفَاظًا بَشِعَةً، ومَعَانِيَ مُتَنَاقِضَةً، إِلَّا أَنَّهَا يَسِيرةٌ في جَنْبِ ما أَصَابَ فِيه.. ولَسْنَا نَذْكُرُ في هَذِهِ المَقَالَةِ جَمِيعَ الشُّكُوكِ.

قلتُ لابن الهيثم إنها مقدمةٌ قويةٌ ناصعةُ البيان، ولكن كيف أخطأ «بطليموس» يا سيدي، وأين مواضع هذه الأخطاء؟ قال: في ثنايا كتبه كلها، وهي أغلاط عديدة ولكن السبب فيها واحد.. سألته: وما هو يا سيدي؟ فقال:

ـ كان الفاضل «بطليموس القلوذي» يتوهَّم أن الأرض هي مركز الكون، وكل الأفلاك تدور حولها. فقال إن الشمس وقت الظهيرة تكون أكبر حجمًا لأنها أقرب للأرض، وتكون في الغروب أصغر لأنها أبعد. وهذا

غلط كبير، لأن الأرض كُرية الشكل. وما هو ظهيرةٌ هنا، قد يكون غروبًا أو فجرًا هناك. وعند النظر إلى الشمس أثناء الغروب من أيِّ موضع كان، تكون بالأفق سُحب أو رطوبات، فينحرف شعاع الشمس ويتقوَّس، فتبدو للناظر أبعد.

ـ عجيب. لكن الأرض يا سيدي يجب أن تكون مركَزْ الكون، ويكون الإنسان مركز الأرض، ولهذا نظر الله إليها وإليه، فأرسل الأنبياء والرسل بالديانات.

ـ قُمْ يا مطيع إلى عيالك فقد تأخر الوقت، وعندي عملٌ كثير.

في الربيع التالي جاء الرجلُ الذي طلب نَسْخ الكتب الثلاثة، وكان يرتدي الملابس ذاتها التي رأيناه بها قبل سنة. وهذا غريب. أخذته إلى ابن الهيثم فأعطاه الكتب فأخرج الرجل مائة وخمسين دينارًا أخرى، وقال إنها لنسخة أخرى من الكتب سوف يأتي العام المقبل لأخذها! تحيَّرنا لحظةً، وحسم ابن الهيثم الأمر بأن قال: حسنًا، سأكتب نسخة أخرى.. وظل الرجل يأتي لطلب الكتب الثلاثة كل عام، على المنوال ذاته، ومن دون أن تتغير هيئته ومن دون انقطاع، حتى بعد أن انتقل ابن الهيثم للإقامة بالقاهرة بعد اختفاء «الحاكم» سنة إحدى عشرة وأربعمائة. وبقي الرجل على منواله هذا أعوامًا، فلم يكف عن المجيء إلا سنة خمس عشرة وأربعمائة، وهي سنة وفاة الأميرة ستّ المُلك. فبدا لي أنها التي كانت ترسله طيلة الأعوام الخمسة عشر.

وكنتُ قد أخبرت الأمير المُسبِّحي بقصة هذا الرجل، حين التقيت في عزاء نقيب الطالبيين الشيخ «عليّ الرَّسِّي» في خريف سنة أربعمائة، فابتسم بوقار وقال إنه سيرسل لي في الصباح هدية. وأرسل صباحًا حمل بعيرين، أحبارًا متقنة الصنع وأوراقًا بيضاء من الصنف الفاخر. فبدا لي أنه هو الذي يرسل في طلب الكتب كل عام. غير أن «المُسبِّحي» تُوفي بعد وفاة «ستّ المُلك» وانقطاع مجيء الرجل بخمسة أعوام، فقد توفي، رحمه الله، سنة عشرين وأربعمائة. فضعف عندي الدليل على أنه هو، والله أعلم بالحقيقة.

* * *

بقي ابن الهيثم مقيمًا على سطح داري شهورًا، حتى كانت ليلة الأربعاء التي يسفر صباحها عن اليوم الثاني من الشهر الثاني من سنة إحدى وأربعمائة، إذ أخبرتني «صفا» في تلك الليلة ونحن نتسامر وحدنا على سرير السرور، بأنها مشفقةٌ على ابن الهيثم وحزينةٌ من أجله، بسبب حبسه هذا. فهو لا يخرج من باب غرفته، إلا حين أجلسُ إليه أحيانًا في الأمسيات. وفيما عدا ذلك من الأوقات، يغلق عليه بابه ولا يفتح النافذة مهما كان الحرُّ شديدًا. ربما ليخفت عنده صخب عيالي الذين يلعبون طيلة النهار على سطح الدار، وربما خجلًا من نسوة الدار. سكتتْ وسكتُّ، ثم عادتْ فأضافتْ: هو شيخٌ بالغ الحياء كثير الخجل، وخلال الشهور الماضية لم يتحدث إليَّ مرةً، ولم يرفع عينيه نحوي. وأظنه لم يعرف حتى اليوم ملامحي، ولا شكل وملامح نسائك الأخريات..

ـ نسائي! أنتِ زوجتي الوحيدة، المتفرِّدة.

ـ دعك من ذلك يا مطيع، هنَّ أيضًا نساؤك وأمهات أولادك، وحَرَمك وحلالك.

ـ ألا تغارين!

قالت إن خواطر الغيرة تمرُّ بها أحيانًا، لكنها تطردها بعيدًا عنها كي لا تتكدَّر روحها. وقد أعلمتها أمها بأن التعدُّد طبعٌ في الرجال، ومن العبث غير المجدي معاندة الطبيعة.. ضحكتُ عاليًا وامتدحتُ حكمة أمها، فابتسمت برفق وأردفت: وهناك يا مطيع سببٌ آخر، هذه الدار رحبة وتتسع لعائلةٍ فيها مائة رجل، وليس عندك من الولدان إلا قليل، وهم من أمهات أولاد.. ولا أريد لنسلك أن ينقطع.

مَسَّت عبارتها الأخيرة أوتار قلبي فحدَّقتُ فيها، ومن دون قصدٍ سالت مني في لحظة ذهولي وغَرَقي بذكرياتي الحزينة، الدموع. فزعتْ «صفا» وأخذتني في حضنها العميم، واعتذرتْ بحرقة عما قالته فآلمني. قلت لها: لا بأس، هي الذكريات.. فهَمَسَتْ بحنوٍّ رحيب: آه، تقصد «تمنّي».. معك حق، هي تستحق فعلًا البكاء على فقدانها.

كنتُ في بداية زواجنا قد قصصتُ على «صفا» ما كان سابقًا مع «تمنّي» بكل صدق، فترحَّمت عليها أيامها، ولم نعاود الحديث عنها. فلما خطرت ذكراها، تفهَّمتْ. ضمتني إليها بقوة فبقيت ساكنًا في حضنها، حتى راحت بعد حين تمرُّ بشفتيها وأنفاسها، على رأسي وجبهتي ووجنتيَّ، فاسترحتُ إلى ذلك. وعندما مسَّت شفتاها الشهيتان شفتيَّ، احتدم الحال وتحرَّكت البراكينُ التي كانت خامدة، فأدخلتني باسمةً بستانها الساحر الأخَّاذ.. أرقتُ فجرًا فخرجت إلى رحبة الدار أستروح النسمات المبكرة، ودُرتُ حول الدار بخُطى

هادئة. وخلال سيري لمحتُ من بعيد «الحاكم» وهو ينزل منفردًا من المقطم، ومن خلفه بمسافةٍ كبيرة، عددٌ قليلٌ من الحراس. بُعدهم عنه على هذا النحو، لفت نظري. ولكن لم ألتفت إلى ذلك، وأسرعت لملاقاة «الحاكم» على الطريق الصحراوي القريب من داري، أعني المؤدِّي من المقطم إلى القاهرة. حين اقتربت منه رأيته يركب حمارًا، ويضع على رأسه فوطة من قماش فقير، لا عمامة. توقف حين رآني مقبلًا، فألقيتُ عليه السلام وقلتُ له إنه من لطائف المقادير أن ألقاه الآن، فقد كنت أفكر في كتابة رسالة إليه، ألتمس فيها منه مطلبًا..

ـ مطلب! أنت يا مطيع لم تطلب شيئًا منذ عرفتك. خير، ماذا تريد؟

ـ يا أمير المؤمنين، العلّامة «ابن الهيثم» حبيس غرفته فوق السطح منذ شهور، ولا يكاد يخرج من بابها أو يطل من النافذة. وإذا وافقت، فإن خلف داري حجرات كنا سابقًا نؤجِّرها ليعمر المكان، والآن هي خاوية. فلو جعلتُ من اثنتين منها منزلًا له حديقة صغيرة، وأحطتُ حول ذلك بسورٍ.

ـ لا بأس. ولكن بشرط أن يلزم منزله ولا يخرج من السور، ولو للصلاة..

ـ طبعًا يا أمير المؤمنين، لن يخرج منه إلا بإذنك.

ـ طيب، يمكنك تنفيذ ذلك.. لكنني الآن أريدك أن تناديني باسمي، فقد اشتقتُ إلى سماعه من بعد وفاة أبي.

ـ حفظك الله يا منصور، يا أخي الحبيب.

ـ بارك الله فيك..

أسْرَع «الحاكم» حماره بنكزة من كعبيه ووخزة بالمنخس، وأسرعت بحماسة الفرحة إلى داري مهرولًا. أيقظت «صفا» لأحكي لها ما جرى. هي نؤوم الضحى تنعس فجرًا وتصحو ظهرًا، وهذا عيبها الوحيد إن صحَّ أنه عيب، وما عدا ذلك فإن كل ما فيها وكل ما تفعله جميل.. قامت من نومها مندهشةً من إيقاظي لها، ومع ذلك كان وجهها مبهجًا ومشرقًا مثل بدر الربيع. وتمطَّت بدلالٍ مطبوع فيها، فكأنها حشايا حرير، حناياها ملفوفة بحرير. مازحتها، وفي المزاح قَدْرٌ من الصدق، بقولي: كيف تكونين فاتنة قبل النوم، وساحرةً عند الصحو؟.. قالت: يا مطيع، إليك عني، أريد أن أنام.

«قابلتُ الحاكم بأمر الله، قبل قليل».. قلتُ ذلك، فقامت من استلقائها الكسول واستوت جالسةً على السرير، وفي عينيها شغفٌ لمعرفة ما جرى. حكيتُ لها ما كان ففرحتْ وتحمَّستْ، واقترحتْ عليَّ أن أعطي لابن الهيثم الحُجرتين اللتين بطرف جدار الدار من خلف، لأن بينهما مساحة خالية. وتفكَّرت لحظةً ثم أضافت: يمكن بناء جدار يوصل بينهما ويكون فيه باب، فيكونان منزلًا مناسبًا. ونجعل له سور يضم إليه الرحبة التي أمامه، ونُصلحها للزرع فتكون حديقة سوف تتولَّى هي تنسيقها وتشجيرها.

داعبتها بقولي: المهندسة صفا.. فابتسمتْ وقالت إنها متعاطفة مع حال هذا الرجل العلَّامة منذ فترة، فقد سمعت أخاها «حسام» وهو يحكي لأمهما كيف أقنع ابن الهيثم بالمجيء إلى مصر، وكيف ظل فترةً متردِّدًا في القبول، وقلقًا منه، لأنه كان مستريحًا لإقامته

بأطراف الشام. ولمَّا جاء ثم عجز عن إقامة السدِّ، توقعتْ أمها أن يقتله الحاكم. ففزعت «صفا» عليه وهي لا تعرفه، مع أنها لم تكن قد التقتْ به. وحين حكيتُ لها عن رحلتنا إلى الجنوب وما جرى فيها وما حدث بعدها، عرفتْ مكانة هذا العلَّامة المسكين، المهاجر من وطنه مضطرًّا، الحائر بين البلاد فلا يكاد يجد لنفسه منزلًا آمنًا.. وخلال الشهور الماضية، كانت ترقبه من حيث لا يراها، على السطح. وترى جلوسه الساكن وشرود خواطره وهو ينظر نحو السماء، فشعرتْ بوحدته وتذكرتْ أباها الذي كان ينفرد بنفسه فوق سطح منزلهم بناحية «برقة» فيجلس هذه الجلسة الساكنة الحزينة، ويتأمل في السماء البعيدة متحير الخواطر مثلما يفعل ابن الهيثم. قالت: ظل أبي على تلك الحالة الشبيهة بما عليه «ابن الهيثم» الآن، حتى قتلوه بهذه الطريقة المريعة..

سال دمعهًا فأخذتها في حضني ومسحت عن خديها الدموع بطرف عمامتي.. هدأت رويدًا ثم استعادت ما كانت فيه من حماسة، وأخذتْ تتخيَّل شكل المنزل الجديد لابن الهيثم، وكيفية التشجير الواجب لحديقته. وأخذتُ أتأمَّلها وأنا أنصتُ إليها راضيًا عما تقول.. هي هدية لي من السماء، ولا عجب في أن اسمها «صفا» فمنها يُشتق صفاءُ الروح، وصفوُ الوقت، ونقاءُ القلب.

قامت من جواري فجأةً إلى الخزانة الحائطية، وأخرجتْ منها قِطعًا من الحلوى وضعتها في طبقٍ وغطَّته بمنديلٍ مزركش الحواف، وقالت لي: خذه إلى «ابن الهيثم» وأفرحه بالخبر، وقل له إنني سوف أسأله بعد الانتهاء من منزله، عن شيء يحيرني منذ فترة.. ذهبتُ إليه

بالطبق وطرقتُ على بابه ففتحه مستغربًا من زيارتي وقت الضحى، إذ كان المعتاد أن أجالسه في الأمسيات.. قلتُ له إن عندي خبرًا طيبًا فابتسم من قبل أن يسمعه، ولما أخبرته بما جرى مع «الحاكم» فرح به واستغرب مثلي حال «الحاكم» الذي أخبرته به، وسأل مندهشًا: لماذا يسير بعيدًا عن حراسه في تلك الأيام المضطربة، ويركب حمارًا، وبلا عمامة الخلافة! ماذا دهاه؟

ـ لا أدري يا سيدي، ربما سلك طريق الصوفية.

ـ لا، هذا بعيد. أظنها يا مطيع حالة مؤقتة سوف يتحوَّل عنها بعد حين، فطريق التصوف عسيرٌ على الغارق في مخاضة الحكم والمال والسلطة.

ـ عسيرٌ.. لماذا؟

ـ لأن التصوف من وجوه الحكمة، وهذه الأمور معوِّقةٌ عنه ومبعدة. وغالبًا ما تقود صاحبها إلى الهوس بها، وهذا يؤدي إلى الافتتان التام، المؤدي بدوره إلى الجنون.

ـ إلا الجنون يا سيدي. اللهم أبعدنا عنه، ولا تضطرنا إليه.

ضحك ابن الهيثم بهدوء وخرجتُ به من الغرفة لأريه من فوق السطح، الحُجرتين اللتين ستكونان نواة منزله. وكيف سنضمُّ إليهما ما بينهما من مساحة خالية، وما أمامهما في حدود نصف فدان، ستكون حديقة محاطة بسور. وكانت «صفا» ترقبنا من الناحية الأخرى من سور السطح، باسمةً، واقتربت منا حتى وقفت بجانبي، وقالت لابن الهيثم إنها ستجعل حديقة منزله مثل المتنزهات الغنَّاء

بالقاهرة.. شكرها وهو خجلٌ منها، واستكملت كلامها بحماسةٍ قائلة لي: اجعل بوابة المنزل يا مطيع كبيرة، كي تسمح بدخول الدواب، وباب المنزل الذي بالجدار الواصل بين الحُجرتين بحجم أصغر، واجعل بينهما سقفًا مقبَّبًا، فتكون حديقة المنزل مثل الجناحين.

لم أفهم مقصودها، فداعبتها بقولي: أتريدين للمنزل أن يطير فوق الأرض! فوكزتني بلطفٍ في زندي، وتدخل ابن الهيثم موضحًا أنها تقصد أن يكون الممر بين البوابة والباب كالمخروط، وحوله من الجانبين الحديقة على هيئة مُثلثين، قاعدة كل منهما عند الباب، ورأساهما عند البوابة. قلتُ: فهمتُ. فقالت صفا: فهمت الكلام المعقد ولم تفهم كلامي البسيط.. فقال لها ابن الهيثم: كلامكِ لم يكن بسيطًا، بالعكس، فيه خيالٌ واسع.

ضحكنا، ثلاثتنا، وتركنا «ابن الهيثم» بعدما أخبرته بأن «صفا» لديها سؤال له، مؤجل.. أوصلتها لغرفتها وخرجتُ من الدار لإعداد المطلوب وكراء البنائين وإعطاء بعض المال لساويرس، لشراء الأخشاب اللازمة لنجارة المنزل الجديد. وخلال الطريق، كنتُ أفكر في وصف ابن الهيثم لكلام «صفا» بأن فيه خيالًا واسعًا. صحيحٌ أنه كان يجاملها بلطف، لكن واقع حالها يتلخَّص فعلًا في الخيال الواسع. ولعل ذلك ينبع من شغفها بالرسم بالحرير على الحرير، وهو الملجأ الذي هربت إليه بعدما شاهدت مصرع أبيها ببرقة. وهي من فرط رقَّتها، ترى الوجود جميلًا والناس، وتريد دومًا الأجمل. عندما جاءت بعد زواجنا للسكنى بداري قالت لي إن الناحية قاحلة وتحتاج اللون الأخضر، ومازالت بي حتى قمتُ بتشجير الرحبة والنواحي المحيطة. حتى تلك الواقعة أمام منازل

الجيران، وكانت تستهين في سبيل ذلك بأي نفقات. بل كانت ترجوني أن أزيد من غرس النخلات، حتى في المواضع البعيدة عن دارنا، وتقول إن أطفالنا حين يكبرون وأطفالهم من بعد، سوف يُذكرهم بنا النخل.

قالت لي مرةً إن حياتها تتلخص في أربعة أمور: الرسمُ بالحرير على الحرير، وتشجير وتزهير الأرض الجرداء، وصناعةُ الحلوى لتُفرِح بها أطفالي الذين سرعان ما مالوا إليها وأنسوا، لاسيما ابنتي «تمنّي» التي صارت تسكن إليها وتتبعها مثل ظلها. قلت لها: هذه ثلاثة، فما هو الأمر الرابع؟ قالت بدلالٍ رقيقٍ، راقٍ: هو الأول لا الرابع، هو أنت يا مطيع.

* * *

استغرق بناء منزل ابن الهيثم وتأثيثه وتشجير حديقته قرابة شهرين، جرت فيهما بعض الأمور التي حدث أهمُّها يوم كان العمل بالمنزل قد قارب على الانتهاء، وساعة الضحى، أثناء انهماك «ساويرس» في تركيب بوابته. لمحه «الحاكم» من بعيد وهو في طريقه من القاهرة إلى الجيزة، فجاء نحوه وهو غافلٌ عنه حتى وصل بدابته إليه فرآه «ساويرس» فوق رأسه. سأله الحاكم: ماذا تفعل؟ لماذا تعمل في النهار؟ ألا تعرف أنني منعت العمل إلا في الليل؟ فقال ساويرس بلسان الاضطراب وهو يرتجف: أنا يا سيدي سهران.

ضحك منه «الحاكم» وانصرف، وتصادف أنه في الصباح ذاته، حين كان يعبر القنطرة الواصلة بين الفسطاط التحتانية والجيزة، وجد أمامه «صفوان» ومعه قنينة خمر يجتهد في إخفائها بين طيات ملابسه، وكان «الحاكم» قد منع على الناس جميع أنواع الخمور. سأله: من

أين، وإلى أين؟ فقال صفوان وقد حضرته البديهة المرحة: لا شيء يا أمير المؤمنين، أسعى في أرض الله الضيقة.

ـ ماذا تقول يا رجل، أرض الله ضيقة!

ـ لو لم تكن ضيقة ما جمعتني بك الآن في هذا المكان الذي لا مهرب منه.

ابتسم الحاكم من دعابته، وقبلها منه وانصرف عنه فهرول «صفوان» إلى مسكنه والتقى هناك بساويرس، فقصا القصص أحدهما للآخر وهما يلهثان.. العجيب أن «صفوان» بعد ساعتين جمع على عجل حاجياته، ورحل فجأةً وقت الظهيرة، ولم يخبر إلى أين. رآه «ساويرس» وهو يهرب فسأله عما يفعل، فأجابه بأنه يخشى أن يتذكر «الحاكم» اللقاء العابر، فيستخبر عنه.. قلتُ لساويرس حين حكى لي ما جرى: وماذا يضير صفوان إذا استخبر عنه الحاكم؟ فأجابني وهو يتلعثم: لا أدري يا سيدي، ولكن ربما كان كلام الناس عن «صفوان» صحيحًا. لا أدري.

ـ تقصد قولهم بأنه جاسوس للعباسيين؟ هل رأيت منه ما يريب؟

ـ لا. أقصد، نعم يا سيدي. لاحظتُ خلال الشهور الماضية أنه في منتصف الليلة التي يكتمل فيها البدر، يأتي إليه رجلان فيبقيان معه ساعة ثم ينصرفان من عنده مثلما جاءا، مُتسلِّلَين.

ـ وكيف تكتم عني أمرًا كهذا، طيلة هذه الشهور؟

ـ ظننتُ يا سيدي أنه غير مهم، وقد سألته عنه فقال إنهما

يأتيان إليه بالخمر خفيةً، خوفًا من العسس والشرطة، فصدَّقت.

ـ أخطأت..

هممتُ بالذهاب، فلحق بي وقال إن لديه أمرًا آخر يؤرِّقه، فوقفتُ معقود الحاجبين غضبًا منه وقلت: ماذا بعد؟ فأدهشني بسؤاله: هل يصح في شريعة الإسلام أن أدخل فيه، وتبقى زوجتي وذريتي على النصرانية؟.. قلت: يصح، ولكن لماذا تسأل عن ذلك؟

ـ خائفٌ يا سيدي عليهم، وعلى نفسي. وسوف أنزع اليوم هذا الصليب الخشبي، المبثوث في الجدار فوق باب بيتي..

بعد كلامنا هذا بأسابيع، فوجئتُ بساويرس ساعة خروجي من داري يوم الجمعة لأداء الصلاة الجامعة، يرتدي جلبابًا أبيض ويلف فوطة بيضاء حول رأسه. وكان «الحاكم» قد ألزم النصارى واليهود، بألا يضعوا على رءوسهم إلا العمائم السوداء. استغربتُ هيئته وسألته عن الخبر، فقال إنه سيُعلن اليوم إسلامه مثلما فعل كثيرٌ من النصارى، ليتخلَّص من المضايقات التي لا تنتهي. وهو يريد أن يصلي اليوم معي في الجامع العتيق ليشهد الناس إسلامه، وقد تعلَّم طريقة الوضوء وحركات الصلاة.. وابتسم وهو يقول: وأنت يا سيدي تعلم من قبل، أن الديانات كلها عندي سواء.

.. يوم استقر ابن الهيثم بمنزله الجديد أولمتُ بشاةٍ، وأهدى إليه «حسام بن يانس» مجموعة كبيرة من الكتب المجلدة المشتراة من أكبر دكاكين الوراقين. واجتمعنا عنده في المساء ومعنا «صفا» وبعد

العشاء سألها ابن الهيثم عن سؤالها المؤجَّل، فقالت إنها حين تتأمل القمر ليلة اكتماله بدرًا، وحين ترسمه على الحرير، تكون فيه أشكالٌ كالغبش الأقل ضوءًا من بقيَّته. فلماذا؟.. ساد الصمتُ لحظة ورفع ابن الهيثم إليها عينيه المستغربتين، لأول مرة، وقال: هذا سؤال جيد، لكن القمر لا ضوء له فهو جِرْمٌ مُعتمٌ، والنور الذي نراه فيه هو انعكاسٌ لضوء الشمس. فإن توسَّطت الأرض بينهما حجبتْ عن القمر ضوء الشمس، فيحدث الخسوف. ولأن سطح القمر غير صقيل، وليس مستويًا، فهو يعكس ضوء الشمس بشكل متفاوت فتظهر فيه تلك الظلال الشبيهة بالغبش. هل فهمتِ ذلك؟

ـ نعم، لكن هذه الأشكال تتغير.

ـ صحيح. وهذا بحسب موضعه من الأرض، وبحسب استقباله لضوء الشمس. وهذا الموضوع يحتاج مقالةً مفردة.

بعد شهور، في أواخر العام الأول بعد الأربعمائة، وبعدما كنتُ قد نسيتُ السؤال والإجابة في غمرة الانشغالات التي أهمها إنجاب «صفا» لولدي «الحسن».. أرسل لي ابن الهيثم ظهرًا، الخادمة «بان» لتخبرني بأنه يريد مني المرور عليه وقتما أستطيع، فذهبت من فوري. أعطاني مقالةً كتبها بخط يده، وقال وهو مبتهجٌ إنها هدية لزوجتي بمناسبة ولادتها سَميَّه، نظرتُ في بدايتها فوجدتها بعنوان «مقالة في ماهية الأثر الذي يبدو على وجه القمر».. شكرته وأكَّدتُ أنها ستفرح كثيرًا بهذه الهدية، وسوف أذهب بها الآن إلى سوق الورَّاقين لنَنْسَخها. قال بهدوء: عندي منها نسخةٌ أخرى فقد كتبتها مرتين. قلتُ: إذن

سأنسخ منها نسختين إحداهما لدار الحكمة، والأخرى سأرسلها هديةً للحاكم ليودعها بخزانة القصر الكبير، وأعطي نسخة الأصل لزوجتي.. ليلتها، قرأتُ الرسالة على ضوء القنديل ويقربي «صفا» ولما انتهيت من القراءة سمعتني أقولُ من فرط الإعجاب بما قرأتُ: لله درُّك يا ابن الهيثم، ألم يجعل اللهُ حدودًا لعبقريتك.. فضحكتْ «صفا» وهي تقول الآية ملاطفة ﴿ويرزق مَنْ يشاء بغير حساب﴾.

مرَّت علينا الأيام والأعوامُ هادئةً بعدما استقر ابن الهيثم بمنزله الجديد، واستراح لحبسه فيه. إذ تفرَّغ للنظر في المتون القديمة وإعادة النظر فيها، ولم يعد يشغله إلى جانب ذلك إلا التأليف وممارسة هوايته في رعاية شجيرات منزله نهارًا، وتأمل السماء في الأمسيات. وكانت تطفر بذهنه الأفكارُ أثناء الأحاديث بيننا والمسامرات، فيُمليها عليَّ مسوَّدةً ريثما يعود إليها فيضمُّها إلى ما يؤلِّفه من الرسائل والكتب، ويكتبها بخطِّه. وكان يعيد إليَّ الوريقات التي أملاها عليَّ سابقًا، فأحتفظ بها لحفظ الذكرى. كان من ذلك ورقةٌ كتبتُ فيها قوله: إنْ وَجَدْتَ كَلَامًا حَسَنًا لِغَيْرِكَ فَلَا تَنْسِبْهُ إِلى نَفْسِكَ، فَالْوَلَدُ لَا يَصِحُّ أَنْ يُلْحَق إلا بأَبِيهِ، وكَذَلِكَ الكَلَامُ لِصَاحِبِهِ، وإِنْ نَسَبْتَ إِلى نَفْسِكَ الكَلَامَ الحَسَنَ الذِي قَالَهُ غَيْرِكَ، نَسَبَ غَيْرُكَ إليكَ النَّقَائِصَ والرَّذَائِلَ.

وأملى عليَّ في أخرى: تَخيَّلْتُ أَوْضَاعًا مُلَائِمَةً لِحَرَكَةِ الأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّة، وتَخيَّلْتُ أَوْضَاعًا أُخْرَى لَهَا، مُلَائِمَةً أَيْضًا لِتِلْكَ الحركَةِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَانِعٌ مِنَ التَّخيُّلِ المُفْتَرَضِ، مَادَامَ لَمْ يَقُم البُرْهَانُ عَلَى أَحَدِ الأَوْضَاعِ.. ولمَّا لم أفهم إملاءه هذا، سألته فأجابني بأنه سيوضح مراده من ذلك في كتابه الكبير، وملخصه أن حركة الأفلاك والأجرام السماوية تتخذ أشكالًا إهليليجية لها هيئة القطوع على أحد هذه

الأشكال، فلنا أن نفترض شكلًا بعد آخر.. كان «حسام بن يانس» يجلس معنا ساعتها، ولا يستطيع فهم كلام ابن الهيثم ولا شرحه، فأخذ ينصت مذهولًا، ثم أخذته نوبةٌ من الضحك استدامت حتى أضحكنا معه.

وقد تحسَّنت صحة ابن الهيثم واعتدل مزاجه مع مرور الأيام، وصفتْ نفسه رويدًا فتوهَّج ذهنه الوقاد. وكنتُ كلما زرته ابتدرني بالسؤال عما أقرؤه هذه الأيام من الكتب، وأجيبه فيشرع في مناقشة هذا الكتاب أو تلك الرسالة، مستمتعًا، حتى وإن ابتعد موضوع المقروء عن الفلك والهندسة، إلى اللغة أو التاريخ أو غيرهما. وكان له شغف بالشعر وخصوصًا قصائد «المتنبي» وشاعر آخر شاب، التقى به ابن الهيثم في بلاد الشام اسمه أبو العلاء أحمد المعرّي. أعجبه في قصائده وقار اللغة والميل إلى الحكمة، وأنه بدأ تأليفها وهو في الحادية عشرة من عمره. وأخبرني ابن الهيثم بأن هذا الشاعر الضرير شغوف بالفلسفة، ويعتزل الناس اليوم بمنزله الكائن في بلدة شامية تسمى معرة النعمان. قلت له: أراك أيضًا يا سيدي سعيدًا بمحبسك! فضحك ثم قال إن الحبوس أنواع، أجملها ما يكون باختيار المحبوس، ويليها في الدرجة الأقل الحبسُ مع مَنْ يحبه المحبوسُ إن كان متيمًا بها، أو مع أدواتٍ لرصد النجوم إن كان فلكيا. قلت: أو الكتب يا سيدي، إن كان محبًّا للمعارف.. وسألته: على ذكر الكتب، أما آن أوانُ شروعك في كتابك الكبير؟ فأجابني بأنه يُعمل فيه ذهنه ويتفكر في مباحثه دومًا، ولم يأتِ بعد وقت الكتابة والتدوين.. أثار كلامه شغفي واستزدتُ، فأضاف كأنه يحادث نفسه: لابد أن أبدأه بحسم الخلاف مع أصحاب الشعاع..

نظرتُ نحوه مستفهمًا، وسألته عما يقصده بالشعاع وبأصحابه، فشرح بما خلاصته أن فريقًا من العلماء الأوائل توهَّم أن العين يصدر عنها شعاعُ ضوء، يكون به الإبصار. وهؤلاء هم المقصودون بأصحاب الشعاع. وقد انسرب هذا الوهم إلى بعض المحدثين من المشتغلين بالعلوم، واشتهر أيضًا على ألسنة العوام حتى صاروا يقولون «نور العين» وليس للعيون أنوار، فهي آلاتٌ حاسّةٌ تستقبل ولا ترسل.

ـ فكيف يكون الإبصار يا سيدي؟

ـ يكون بالعكس مما يتوهمون. أعني بانعكاس شعاع الضوء من المصدر المنير، كالشمعة بالليل أو الشمس بالنهار، فيقع على المرئي ثم ينعكس إلى العين، فتتم بذلك الرؤية.

ـ هذا يحتاج كلامًا عن تشريح العين. أليس كذلك؟

ـ بلى، ولكن بأقل قدر، فقد كفانا السابقون مئونة الإفاضة في ذلك. فهناك كتاب «دغل العين» ليوحنا بن ماسويه النسطوري، وكتاب «العشر مقالات في العين» لحنين بن إسحاق النسطوري أيضًا، وفي هذين الكتابين كفاية.

قلتُ ممازحًا: وكتاب العين للفراهيدي؛ الخليل بن أحمد.. فابتسم وهو يقول: لا، هذا في اللغة، رحم الله مؤلِّفه. وخطرت ببال ابن الهيثم فكرة مفاجئة، فعاد إلى الكلام عن الشعر والشعراء، وقال: انظر إلى المتنبي رحمه الله، وهذا الشاب «المعري» وكلاهما شاعر، سوف ترى أن الأول عاش حرًّا طليقًا في الظاهر لكنه كان حبيس

أمنياته التي ظل يطاردها وظلت تطارده حتى هلك، لكن «المعري» اختار التخلي عن الأمنيات فصار حرًّا، مع أنه من حيث الظاهر بحبس نفسه.. سألته مستفسرًا: وماذا كانت أمنيات المتنبي يا سيدي؟ فأجابني بأنها كانت بلا حدود أو هي تلامس سقف المستحيل، لقد كان المتنبي يريد أن يمتلك الضياع الواسعة والمتاع الدنيوي، وأن يتزوج الأميرة «خولة» أخت سيف الدولة، وأن يكون أفصح المتحدثين بالعربية بل ويصير بالشعر نبيًّا.. وهذه مطالب مستحيلة.

شاغبته وشغبتُ عليه بمحبةٍ، فقلتُ مبتسمًا: ولك أيضًا يا سيدي أمنيات، منها الانتهاء من كتابك الكبير في الفلك، مع أنك لم تبدأ فيه بعد.. قال: أولًا، هو ليس كتابًا في الفلك وإنما في العلم المسمى عند اليونان «أوبطيقي» وسوف أسميه بالعربية «المناظر». وثانيًا، هناك أيها المتحذلق اللطيف فارقٌ بين الرجاء وهو الممكن تحقيقه والوصول إليه، مثل تأليفي الكتاب، وبين التمني وهو ما يصعب وقوعه ويبعد عن الحصول، مع التعلق به. وبين الأمل المستحيل، الذي يراود الذهن كالحلم، بلا أيِّ احتمالٍ لحدوثه.

ـ فهل لديك يا سيدي أمنياتٌ وأحلامٌ مستحيلة؟

ـ عندي، لكنني لن أبوح لك بها..

ـ أرجوك يا سيدي، أخبرني بها. فالشغف يعصف بي. وسوف أكتمها تمامًا ولن أحدث بها أحدًا، أبدًا. أرجوك.

ـ هي ليست سرًّا. وليست خطيرة. حسنًا، سأخبرك. أحيانًا، أحلم في صحوي بأن الزمان صار كريمًا معي وسمح لي بالعيش في جزيرة نائية عن البشر، وليس فيها حكامٌ أو

متحكمون، ويجاورني فيها نخبة من الأولين وقليل من الآخرين.

ـ وأين تكون مثل تلك الجزيرة يا سيدي!

ـ في «ناكجاآباد».

فاه ابنُ الهيثم بهذه الكلمة التي لم أفهمها، وهو يضحك، ثم قام ليسقي شجيرات حديقته مستمتعًا بما يفعل. فلم أشأ أن أشوِّش عليه حاله أو أطيل الكلام الذي قطعه، بسؤاله عن معنى الكلمة، وأرجأتُ ذلك يومين حتى سنحت الفرصة فاستفهمتُ منه عن دلالتها. أخبرني بأنه كان يمازحني بها، وبأنها كلمةٌ فارسيةٌ لا توجد مفردةٌ عربية تقابلها، وتعني «المكان الذي لا موضع له» أو «حيث لا أين».. فعدتُ به إلى رحابة الأمنيات والأحلام المستحيلة، وسألته مُتلطِّفًا:

ـ ومَنْ الذين تريدهم جيرانك في الجزيرة التي لا أين لها؟

ـ فيثاغورث وأرسطوطاليس وإقليدس وبطليموس..

ـ هؤلاء الأوّلون، فمن الآخِرون؟

ـ أبو بكر الرازي والبيروني وابن سينا. كفى يا مطيع، وأخبرني أنت: هل يراودك أملٌ مستحيل؟

ـ ماذا. نعم يا سيدي، يراودني.. أن تُبعث من الموت محبوبتي «تمنّي».

* * *

في بعض الأيـام، كان يحضر مجلسنا «ساويرس النجار»

و«حسام بن يانس» وكان ابن الهيثم يأنس إليهما، لكنه في وجودهما لا يفيض في الكلام ويفضل الإنصات والصمت، خصوصًا أنهما لا يهتمان بما يهمُّه ويشغل ذهنه من موضوعات العلوم. ومعظم كلام «حسام» يكون من أخبار الحاكم وما يجري في القاهرة، وغالب كلام «ساويرس» عن محاسن الإسلام، وسعادته به. ذلك لأنه بعدما أشهر إسلامه، رأت زوجته العجوز أنها ستكون كافرة بالنصرانية إذا ظلت زوجةً له وهي على ديانة المسيح، فكان الحلُّ أن تُسلم هي الأخرى حفاظًا على البيت الذي لا تملك بديلًا له، واحتفاظًا بأولادهما الذين ليس لديها غالٍ غيرهم. ثم أمعن ساويرس في إظهار الإسلام، وأقنع أحد معارفه من النصارى الذين أسلموا، بأن يزوجه ابنته. وهي امرأة عاهل وصفها ساويرس بأنها جميلة، مع أنني لم أر فيها أيَّ جمالٍ ظاهر. المهم أنه صار زوجًا لاثنتين، وأبقى القديمة منهما بمكانها واستأجر للجديدة الحجرة المجاورة، الخاوية منذ فرار صفوان الكحَّال. قال له حسام، ممازحًا: الحمد لله الذي هداك للإيمان.. فأجابه ساويرس بين الجد والهزل، على طريقته المعتادة: وفَّقني للشريعة المُمتعة، في الدنيا وفي الآخرة.

ـ وفي الآخرة.. كيف؟

ـ كان القساوسة يقولون لنا إن أجسادنا يوم الدينونة ستكون بلا أطراف، جسدٌ سرمدي عبارة عن كتلة واحدة! وكنت أقول في نفسي متعجبًا: وماذا سنفعل هناك بلا أطراف؟.. أما جنة المسلمين، فهي المتعة التامة.

لم يكن ابن الهيثم يميل إلى الخوض في مثل هذه الأحاديث،

وكان يكتفي بابتسامةٍ باهتة ونظرةٍ شاردة. لكنه كان يهتم أحيانًا ببعض الأخبار، مثلما جرى في ذلك اليوم بمنتصف العام الثالث بعد الأربعمائة للهجرة، إذ جاءنا «حسام» بورقة مكتوب فيها بعض أوامر «الحاكم» وقرأها علينا، وبعدما انتهى أخذها منه ابن الهيثم وراح يتأمل الأوامر الحاكمية المكتوبة ويومئ مرات برأسه. ثم أعادها إلى يد «حسام» الورقة من دون أن يعلّق عليها بأي شيء. كان المكتوب فيها كلامًا طويلًا، خلاصته أن الحاكم يأمر بأن يعلّق النصارى الصلبان في أعناقهم، ولا يسمح لهم بركوب الخيل ولا الحمير بالسروج، ولابد لهم من شد الزُّنّار على أوساطهم، ويمنع عليهم شراء العبيد والإماء، واستخدام مسلم لأي عمل بما في ذلك عبور النيل مع النواتية المسلمين. ومن أراد منهم الخروج إلى بلاد الروم، بما يملك من المال، فليخرج. هذا عن النصارى، أما المسلمون فلا يسمح لهم بالصلاة على الحاكم في المكاتبات، ويكتفون بديباجة قصيرة يكون نصها: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته» ويمتنع عليهم تقبيل الأرض للحاكم، أو الانحناء له مثلما يفعل الروم أمام ملوكهم. أما النساء، جميعهنَّ، فممنوعٌ عليهن الخروج إلى المقابر والجلوس في الطرقات، ولو أمام بيوتهن، ومَنْ تفعل ذلك تُعاقب بالقتل.

ليلتها، عندما استأذن «حسام» سبقني ابن الهيثم وسألني عن سِرِّ انقطاعي عن مقابلة الحاكم في الفترة السابقة، فاستغربتُ أنه لاحظ ذلك، وصارحته بأن في نفسي شيئًا منه، منذ علمتُ بهدمه لمسجد جدّي «عمرو بن العاص» بالإسكندرية، فقد صعب عليَّ قبول ذلك لما فيه من إنكار لفضل الصحابي الذي فتح البلاد.. أطرق ابن الهيثم برهةً ثم رفع عينيه نحوي وقال: يا مليح، تلك أمّةٌ قد خلت، فلا تطاوع

سهول نفسك وأهوائها، فهي مهلكة، ولكن لا بأس في ابتعادك عن الحاكم، فهذا أسلم لك.

ـ هل تتوقع منه السوء يا سيدي؟

ـ أتوقع عواصف هوجاء، فهذا التضييقُ على النصارى بلا جُرم جَنَوه، وصَبُّ جام الانتقام على رجال الدواوين وعلى عموم النساء، ومعاودة هدم الكنائس. يُفقده الأعوان ويثير ضده ملوك الروم، وعموم النصارى، كما أنه يؤجِّج الصدام بينه وبين أخته الخطيرة. ومثل هذه المصادمات تكون في العادة مروِّعة، ويصعب وقوفها عند حد.. وكفانا كلامًا في ذلك.

وصدق ابن الهيثم، فقد ابتدأتْ عواصفُ «الحاكم» الهوجاءُ في الهبوب، ثم اشتدتْ خلال الشهور التالية والأعوام، وتعاظمتْ آثارُها. واحتدم الصراع وتصاعد تدريجيًا بينه وبين الأميرة «ستّ المُلك» عندما منعها من المشاركة في أمور الحكم، ولو بالرأي والمشورة. فمنعت عنه ابنَه وليَّ عهده وأمَّه، فلم يعد يراهما. فنقم الحاكم على ثلاثتهم واختار لولاية عهده رجلًا من أقاربه، شبه مجهول، اسمه «عبد الرحيم» وأشهر أمره، بل وأسند إليه النظر في رقاع الناس وشكاواهم، وفوَّضه في التوقيع عنه. وفي الوقت ذاته، حرص الحاكم على استرضاء المسلمين واستمالتهم إليه، فتشدَّد في منع مظاهر المنازعات المذهبية، وصلى بالناس في الجامع العتيق بالفسطاط، وفي بقية الجوامع كالأزهر وراشدة وجامعه الجديد، خارج السور، بلا تفرقة بين ما هو للشيعة منها وما هو لأهل السنة. وأبطل مجالس الدعوة للمذهب الإسماعيلي، وبسخاءٍ أنفق المال

على فقراء الناس وعلى أغنيائهم، وبالغ في الإغداق على رجال الدولة ليضمن بذلك ولاءهم له، وردَّ المظالم والأوقاف المحبوسة عن أصحابها. بل ألَّف أبيات الشعر، ونشرها على الناس بخطه مستميلًا خواطرهم، فكان من ذلك قوله:

أصبحتُ لا أرجو ولا أتَّقي
سوى إلهي، وله الفضلُ
جدّي نبيٌّي، وإمامي أبي
وديني، الإخلاصُ والعدلُ

لكن كل ذلك لم يُجدِ نفعًا، فقد استعلن خلافُ الحاكم مع ستّ المُلك حتى تناقلته ألسنة الناس، وابتُذل في مجالسهم، خصوصًا عند ابتداء العام الخامس بعد الأربعمائة. ولم يطمئن رجال الدولة على حيواتهم، بعدما قتل الحاكم قاضي القضاة «مالك بن سعيد» في ذلك العام، لأنه كان يتواصل بالرسائل مع ستّ المُلك. وكان الحاكم قد قتل قبله بشهور «الجَرْجَرَائي» الكاتب، للسبب ذاته. وبلا سبب معروف، قتل جارنا «فضل بن جعفر بن الفرات» بعدما قرَّبه وأسند إليه أمور الوساطة، ثم أفجعنا بقتله بعد خمسة أيامٍ فقط من إسناد المنصب إليه.

كما تشدَّد الحاكم في تلك الفترة، بل بالغ وبلغ المدى، فأمر بحظر تجوال النساء خارج بيوتهن لأيِّ سبب كان. فذهبت مجموعةٌ من العجائز والقواعد من النساء للتعزية في جارةٍ لهن، ظنًّا منهنَّ أن أوامر «الحاكم» مقصودٌ بها النسوة اللواتي تُخشى منهنَّ الفتنة، وهو ما لا ينطبق عليهن لأنهن تخطَّين من أعمارهن الستين سنة ولامسنَ

السبعين. فقبض عليهن العسسُ وأرسلوا يسألون «الحاكم» عمَّا يجب فعله معهنَّ من العقوبة، فأمر بإغراقهن فورًا. كلهنَّ. فكان أمره هذا عجيبًا وعصيًّا على القبول، ويستحيل فهمه.

ولِما سبق، وجدتُ الأسلم لي الابتعاد تمامًا عن «الحاكم» وإبعاد ابن الهيثم عن تلك الأحوال المتقلِّبة، حتى إنني كنت أحيانًا ألمح «الحاكم» فجرًا وهو ينزل بحماره من المقطم، فأتوارى.

وكان مما دعاني للانصراف عن مجريات الأمور العامة، انشغالي بأحوال عيالي وأمور داري. ففي هذه السنة المذكورة، صار عندي من الذرية تسعةً، خمسةُ ذكور وأربع إناث. وكنت أتولَّى بنفسي تحفيظهم القرآن وتعليمهم مبادئ العلوم، لأجنِّبهم التردُّد على الجامع العتيق للدرس، فأبعدهم بذلك عما يصطخب فيه وحوله.. وكانت «صفا» قد أنجبت لي ولدنا الثاني «الحسين» فور فطامها لأخيه الحسن. وحين أخبرتُ بذلك ابن الهيثم، بارك المولود ثم مازحني بقوله: عليكما إنجاب ولد ثالث وتسمونه «عمر» حتى لا تحدث فتنة.

لكن عكوفنا على أمورنا المحدودة بنا، وقَصْرُ اهتمامنا على ما يخصنا، لم يدم طويلًا. فما لبثت الأمورُ العمومية أن التهبتْ، ثم استطالت منها ألسنةُ اللهب حتى وصلت إلينا وأحرقتنا. وكان ابتداء ذلك، في الشهور الوسطى من العام الثامن بعد الأربعمائة، مع ظهور وانتشار الأخبار عن وصول واحدٍ من دعاة المذهب الشيعي الإسماعيلي إلى القاهرة، اسمه محمد بن إسماعيل الدَّرَزي، ويُعرف بلقب «فُشْتَكِين». هذا الرجل دعا بدعوةٍ عجيبة لم تعهدها الأسماع، مُلخصها أن الألوهية تتجلى في هذا الكون بنسبٍ متفاوتة، ويمكن

أن تظهر في البشرية. وقد ظهرت بتمامها في شخص «الحاكم» فهو الواحد الأحد، الرحمن الرحيم! والواجب على الناس أجمعين، عبادته! وتلك الديانة الجديدة قديمةٌ لكنها استعلنت اليوم على يد الحاكم بأمر الله، فهو الله! وكل ما سبق من الشرائع والديانات، صار الآن في حكم المنسوخ..

حينما أخبرني «حسام» بهذا الكلام أول مرة، لم أكترث. وعددتُ هذه الدعوة بمثابة نوع من الهرج معتاد الظهور بين الأيام الحافلة بالأزمات، وسرعان ما سوف يختفي. مثلما اختفت من قبل دعواتٌ مماثلة، منها دعوى «المقنَّع الخراساني» وعديد من دعاوى القرامطة، ومن قبلهم بقرونٍ من الزمان فِرَقٌ كثيرة من أهل المذاهب والنِّحَل والديانات.. لمَّا سمع «ساويرس» بهذه الدعوة المبتدعة، قال بطريقته الساخرة: فلماذا إذن التضييق على النصارى، وهم يقولون مثل ذلك على يسوع المسيح.. ولما أخبرتُ بها ابن الهيثم، أنصت مطولًا ثم قام من أمامي ليروي شجيراته العطشى بعدما تمتم، وهو متبرمٌ، بالآية ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾.. أما زوجتي «صفا» فنظرت نحوي مندهشة حين حكى أخوها هذا الكلام، وضحكت، ولم تعلِّق أو تعقِّب بأي شيء.. وإن كان الضحك، أبلغ تعليق وتعقيب.

ومع أنني في مبتدأ الأمر كنتُ أتجاهل هذا الكلام جملةً وتفصيلًا، إلا أن خواطري كانت تشرد أحيانًا وتغوص في تلك المخاضة، فتتقاذف ذهني الأفكارُ المتفرقات، المتضادات: لماذا يقبل «منصور» بهذا التأليه، وكيف يصحُّ أن يكون هو الله.. هل كنتُ قبل سنواتٍ ألعب مع الله في بستان التين والعناب، ونتسلق معًا الأشجار الكبار..

أنا إذن خليلُ الله.. أستغفر الله. لكن منصور «الحاكم بأمر الله» منع الناس قبل سنوات من مناداته بلقب «مولانا» أو الكتابة إليه بذلك، مع أن القرآن يقول ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾.. ولكنه كان، من الناحية الأخرى، يفخر بعد تولِّيه الخلافة، ويردِّد كثيرًا قول «الوصيِّ» يقصد جده الإمام عليّ بن أبي طالب: إنَّا مخلوقون، وعبادٌ مربوبون، ولكن لنا من ربنا منزلةٌ لم ينزلها أحدٌ غيرنا، ولا تصلح إلا لنا، نحن نور الله وشيعتنا من الله، وسائرُ مَنْ خالفنا من الخلق في النار! فهل قاده هذا، لذاك؟ على أنني لم يصح عندي أن علي بن أبي طالب، قال هذه العبارة، ولم يثبت عنه ذلك بأي وجه من الوجوه. ماذا جرى لك يا منصور؟

راحت الحيرةُ تغمرني.. والخوف.

ذاعت مقولة «الدَّرَزي» وانتشرت بين الناس واستمالت منهم فريقًا، وقيل إن «الحاكم» يرعاها ويعمل على تعميمها. أخبرنا «حسام بن يانس» أنهم كتبوا في القاهرة سجلًا بأسماء الذين آمنوا بألوهية الحاكم، فكان عددهم ستة عشر ألف شخص! وقال إنه يفكر في اعتناق هذه العقيدة، فأثار قوله اندهاشي واستغراب أخته صفا، لكننا لم نعلِّق عليه بشيء.

وانتشرت بين الناس في تلك الفترة، وريقاتٌ مكتوب فيها صيغة ما يسمونه «العهد الإسماعيلي» وهو النصُّ العقائدي الذي يتلوه المسلم، فيصير على هذا المذهب الشيعي. ولم أجد في نصِّ هذا «العهد» ما يمكن لمسلم أن يعترض عليه، فهو لا يزيد عن الآتي:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا

عبده ورسوله، وأشهد أن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأن الموت حقٌّ، وأن البعث حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور. وأقيمُ الصلاة لوقتها، وأؤتي الزكاة لحقِّها، وأصوم رمضان، وأحجُّ إلى البيت الحرام، وأجاهد في سبيل الله حقَّ جهاده على ما أَمَرَ الله به ورسولُه، وأوالي أولياء الله وأعادي أعداء الله، وأقوم بفرائض الله وسننه وسُنن رسول الله ﷺ وعلى آله الطاهرين.

وتزامن ذلك مع فيضان عارم للنيل، لم يُعهد مثله من قبل، وتزايد حتى أغرق الماءُ أنحاء الفسطاط وعموم البلدات والقرى، وقطع الطرق. فهلكت الزروع ونشب الغلاء أنيابه في عموم البلاد، حتى إنني اشتريتُ تلِّيس القمح بدينار. وهذا يماثل ستة أضعاف ثمنه المعتاد. ومع طفرة الغلاء واحتدام الحال، آمن كثيرٌ من الناس بأن الدعوة الكُفرية للدرزي وأصحابه، هي السبب في غضب الله على العباد.مع أن الله فيما أظن، لا يزر وازرةً وزْرَ أخرى. وما لبث أصحاب الدرزي أن اختلفوا فيما بينهم، فانشق عنه بعض الدعاة الذين كانوا معه، وحاولوا قتله، وتزعَّم هؤلاء المنشقين داعٍ اسمه «حمزة بن عليّ الزَّوْزَني» المسمى على لسان تابعيه «سيدي حمزة، الهادي».

أخبرنا «حسام بن يانس» أن «حمزة الزوزني» هذا كان ممن يتابعون «الدرزي» لكنه انقلب عليه وصار يدعوه «الغطريس» لأنه رآه قد استسلم للغطرسة وتجبَّر، فانتكس وضَلَّ عن سواء السبيل. ومن هنا قال حمزة بضرورة قتل الدرزي، أو بالأدق قرَّر ذلك وشرع فيه لولا تدخل الحاكم بأمر الله.. لكن «الدرزي» مالبث أن قُتل، وقُتل قاتله، فقد وثب شابٌّ تركيٌّ على «الدرزي» وهو يسير في ركاب

الحاكم، فطعنه طعناتٍ قاتلة وهرب، وبعد أيام قُبض عليه وقُتل. فثار غبارُ الفِتَن وهجم أتباع حمزة على أتباع الدرزي، وقتلوهم ونهبوا بيوتهم. وعمَّت الأنحاء الفوضى وساد الاضطراب مع بداية العام العاشر بعد الأربعمائة، وزاد من بلَّة الطين، انتشار أشعار ركيكة منسوبة للحاكم، يتوعد فيها الناسَ بالويل الذي تجلَّت علاماته في عدة مظاهر، منها أن الحاكم قام ببناء محرقة في أطراف الفسطاط وملأها بالقش وبالأخشاب سريعة الاشتعال، سمَّاها الناس جهنم. ومنها انتشار رعاعٍ مُسلحين في الأنحاء، معظمهم من السودان والزنج. ويدل قبحُ منظرهم على سوء مخبرهم وخبث نواياهم، وكلما تزايد عددهم حول البيوت ازداد قلق الساكنين فيها.. وفي غمرة هذا الترقب المقيت دعوتُ «ابن الهيثم» للعودة بسُكناه من منزله الملاصق للدار، إلى الحُجرة السطوحية التي كان فيها سابقًا، خوفًا عليه. في البداية اعترض، فرجوته حتى وافق على مضضٍ وقال: نفعل ذلك إن شاء الله غدًا.

ـ لا يا سيدي، الآن. أتوسَّل إليك.

ـ ماذا بك يا مطيع؟ سوف تغيب الشمس بعد ساعة، فكيف سنأخذ الكتب والأوراق الآن إلى فوق؟!

ـ اتركها يا سيدي، وغدًا نأخذها. أنت أهم من كل الكتب والأوراق. وقد رأيتُ من سطح الدار أناسًا سُودًا يحومون حول النواحي، مثل الضباع، ولن أستأمن عليك المبيت هنا الليلة. في الصباح، نأتي بمن يأتونك بالكتب وبكل ما تريد. أرجوك.

ـ لله الأمر. سآخذ فقط هذه المسوَّدة والمحبرة والأقلام، وهذه الأوراق.

ـ دعني أحملها عنك..

ونحن ندخل بوابة الدار رأينا «حسام» مُقبلًا نحونا بسرعةٍ، على فرسٍ، وخلفه على البغال المسرجة سبعة أو ثمانيةُ رجال لهم هيئة الجند، وكلهم مدججون بالأسلحة. توقفنا عند البوابة انتظارًا لوصوله وعندما اقترب رأيتُ معه أمه، وقد بدت عليهما علامات الانزعاج: خير يا حسام، ماذا جاء الآن بكما وقد تأخر الوقت؟ أجابني متعجلًا بأن أمامي اختيارين، لا ثالث لهما، فإما أن أعود معه فورًا إلى القاهرة، ومعنا عيالي وكل أهل بيتي. وإما أن نذهب جميعًا على عجلٍ إلى داري بالجيزة، ومعنا أمه، فهي لن تبيت الليلة بعيدًا عن «صفا» بأي حال من الأحوال.

عرفت أن طامةً كبرى على وشك الوقوع، فقلت: نذهب إلى الجيزة. قال حسام: جيد. وقالت أمه: عرفت أنك ستختار الذهاب إلى الجيزة، سآتي معكم، والآن أسرعوا ولا تتركوا بالدار شيئًا يؤسَف على فقدانه.

انتحيتُ جانبًا بحسام وسألته: وماذا عن ابن الهيثم، تعرف أن الحاكم يحظر خروجه؟ قال لا أدري، ولكن يمكنك أن تكتب إلى «مولانا الحاكم» رسالة تستأذنه فيها أن يذهب ابن الهيثم معكم، وسوف أحملها إليه، اكتبها الآن واجعلها قصيرة بقدر المستطاع.

ـ يا حسام، غدًا الجمعة، والحاكم كفَّ عن الخروج لإمامة الصلوات الجامعة. فكيف ستوصل إليه الرسالة؟

ـ سأوصلها له الليلة، الآن. أعرف مكانه وسآتيك منه بالرد، فلا تضيع مزيدًا من الوقت.

همستُ إليه بأنني أدفن في حجرة الكتب مالًا، فقال: أخرجه وخله معك، ولكن اترك الكتب فلن يتسع الوقت لنَقْلها.. كتبتُ رقعةً إلى الحاكم فيها سطران: السلام عليك يا أمير المؤمنين، بعد إذنكم سأذهب بأهلي للسكنى بالجيزة ونبقى هناك أيامًا، فأرجوك أن تأذن لنا بأخذ ابن الهيثم معنا، على الرسم السابق المطاع، فلا يخرج من الدار.

ملهوفًا، أخذ حسام الرسالة وانطلق بفرسه في قلب الظلام، إذ كانت نجوم ليلة هذا الخميس المريب، محجوبة بالضباب.. مع الحراس أرسلتُ إلى الجيزة أهلي كلهم وخدم الدار، ومعهما العبدان سعيد ويرقوق، وقلت لهما أن يبقيا مع عيالي هناك، ويغلقا الأبواب باستحكام. ويعود الحراسُ الثمانية ليكونوا معنا، إلى حين اللحاق بهم. وقلت لزوجتي همسًا، إن عليها مساعدتي في استخراج المال المدفون، فأتت معي ولحقتْ بنا أمها وساعدتنا على غير المتوقع منها، فاستخرجنا من أرضية الحجرة الرقاب العشرين المملوءة بالدنانير، وقمنا بوضعها على أربعة بغالٍ وغطَّيتُ ظهورها بخرقٍ وأسمالٍ تصرف الأنظار عن قيمة ما تحمله. وخلال انهماكي في ذلك، كنتُ أفكر فيما قاله لي ابن الهيثم قبل سنوات، من أن كل ما زاد عن مئونة يومك من مالٍ أو متاع، فهو عبءٌ، عليك.. والله يا حكيم، عبءٌ عظيم المقدار عسيرُ الاحتمال.

كان ابن الهيثم في حجرة الضيوف يكتب. وعندما عدتُ إليه، بعدما ذهبت «صفا» وأمها لجمع ما خفَّ حمله وغلا ثمنه، استغربتُ

سكونه وعكوفه على الكتابة، وكأن كل ما يجري من حوله، لا يجري من حوله. سألته عما يكتب، فقال وهو هادئُ الظاهر: أقومُ بتبييض مقدمة كتابي الكبير «المناظر».

قبل انتصاف الليلة الليلاء، عاد الحراسُ من الجيزة وجاء بعدهم بقليل «حسام بن يانس» وبيده إجابة «الحاكم» على سؤالي واستجابته لرجائي بكلمةٍ واحدة، كتبها بخطه على ظهر رسالتي إليه: لا بأس.. قبل مفارقتنا الدار بكل ما استطعنا حَمله على الدواب، وفور خروجي من البوابة، رأيتُ في العتمة امرأتين تتشحان بالاسوداد. نادتني إحداهما بنبرةٍ ترتجف: سيد مطيع، يا سيد مطيع، انتظرْ.

استربتُ منهما، فقد كان كل ما في تلك الليلة يريب، واقتربتُ خطواتٍ من المنادية فوجدتها امرأةً نحيلة هزيلة البنيان، تظهر عليها جميع علامات البؤس. قالت: ألا تعرفني، أنا «نصرة» حفيدة الوزير ابن الفرات، جارتك، جاءتني قبل سنوات عمتك «تمنّي».. قلت: نعم نعم عرفتكِ، خير يا «نصرة» ماذا تريدين؟

ـ هذه العجوز أمي، ولا أحد غيرنا الآن في الدار، والأشرار يحومون في الأنحاء. خذونا معكم.

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث تذهبون.. إلى أي مكان.. أرجوك.

أجهشت العاهلُ، وكانت أمها من خلفها تنتحب. الأمرُ محيِّر. لم أنتبه في غمرة التشوُّش واضطراب البال، إلى أن زوجتي «صفا» تقف خلفي، ولم أشعر بها حتى سمعتها تقول قرب أذني: خذهما

معنا يا مطيع، لا تترك جاراتك للهول.. سألتُ الخائفة إن كان لديهما في الدار ركائب، فقالت: نعم يا سيدي، عندنا حماران، سأحضرهما حالًا.. وهكذا ذهبتْ معنا حفيدةُ ابن الفرات وأمها، وبقول أدق وأصدق: هربتا معنا مما كان يخفيه لنا الليل خلف سدول العتمة والرعب.

عملًا بنصح «حسام» أسرى بنا الحراسُ المسلحون، المتجهِّمون، عبر الطريق الصحراوي الدائر من سفح المقطم وشرق الفسطاط، إلى أسوار القاهرة. هذا الطريق أطول، لكنه أكثر أمانًا. عند باب بني زويلة تركَنا حسام ودخل القاهرة، وسرنا غربًا حتى عبرنا النيل بعشارية. وعند وصولنا إلى الضفة الأخرى، الأقرب إلى داري بالجيزة، أطل الهولُ والفزع قبل وقت الفجر. لم يُرفع الأذانُ في تلك الليلة، في مبتدأ الأمر سمعنا أصداء صرخات تأتي من نَواحٍ متفرقة، وتعلو رويدًا، ورأينا قبل وصولنا إلى بوابة دارنا ألسنة نارٍ تتراقص في الظلام، حول حواف الفسطاط والعساكر والقطائع. وفي غبش الفجر رأيت من فوق سطح الدار «ساويرس» وزوجتيه وعياله، وعليهم أسمالُ البؤس. جاءوا جميعًا ليحتموا بنا، ولا حماية لنا، وكانوا كلهم يبكون.. كانت تلك الليلة وما تلاها من ليلاتٍ حالكاتٍ، مهلكات، في منتصف شهر ذي القعدة، وهو الشهر قبل الأخير من السنة الهجرية المشئومة مؤلمة الذكرى، العاشرة بعد الأربعمائة.. لا أستطيع الإكمال.. سأكفُّ عن الكتابة الآن.. الآن.. الهواء هنا صار ثقيلًا. يا رحمن، يا رحيم. سبحانك. قلتَ في قرآنك ﴿ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع﴾ شيءٍ، يعني قليل. لكن ما عشناه من الخوف في تلك السنة كان كثيرًا. والجوع فيها، وفي العام السابق

عليها، استبدَّ بالناس وعتا، حتى مات مائتا ألفِ إنسان من فرط الجوع وفتك المرض. هذا بلاءٌ كثير. ولماذا تبلونا أصلًا؟ لا..

* * *

ونحن نفرُّ من الفسطاط إلى الجيزة، كنتُ أظن أننا سنقضي هناك أيامًا معدودات، ونعود، لكننا مكثنا أكثر من عام وثلاثة أشهر، تلاحقت خلالها طواحنُ الأحوال حتى بدا لنا أن العالم خرُب، وأن العالمين قامت قيامتهم.. لن أسرد هنا ما جرى تفصيلًا، فهذا مما لا أقدر عليه ولا أميل إليه. فليس من السهل على أيِّ إنسان كتابة نَعْي الإسلام والمسلمين، بل إن هذه الطامة طالت أيضًا غير المسلمين.. ولكن.. حسنًا.. سوف أكتفي بذكر المجملات.

لم ينم عند وصولنا الجيزة إلا الصغار من أطفالي، أما الباقون فقد بقوا على سطح الدار يترقبون بوجلٍ ما سيأتي، ويراقبون بفزعٍ ألسنة النار التي تعالت من نواحي الفسطاط حتى ألقت بظلال تتراقص كالأشباح على جوانب المقطم. ولم تقتصر هذه الدواهي على تلك الليلة المرعبة، بل امتدت لليالي تالياتٍ صارت أكثر رعبًا وفزعًا.

كان شرارُ الخلق والمجرمون السودان مسلحين، ولا أحد يدري من أين حصلوا على الأسلحة، ولا لدى أحد يقين. قيل إن الحاكم اغتاظ من المصريين لأنهم رفضوا دعوة الدرزية إلى تأليهه، فانتقم منهم. وقيل بل غاظته تلك الأشعار المتوعِّدة المنسوبة إليه، وعدَّها من قبيل السخرية منه، فأفرط في معاقبة الناس حتى انفرط من بين يديه العقد. وقيل إنه لم يعلم بأمر هؤلاء الأشرار، المسلحين، ولم يدرك في بداية الأمر مقدار خطرهم ولا مصدرِ أسلحتهم، فلم يهتم

عند ظهورهم بقَمْعهم. وقيل بل هو الذي أمر سرًّا بانسحاب رجال الشرطة والعسس، ليسقط الأمن وتسنح الفرصة لوحوش البشر كي يفتكوا بالآمنين، ويُشعلوا الحرائق بالدور والمنازل. وقيل بل ارتاع المسؤولون عن الأمن من عتوِّ الهجمة، وتفاجئوا بها، فهربوا وتركوا لحم الحملان لأنياب الذئاب.. قبيل الفجر، وعقب هروبنا من الفسطاط، اندفع المسلحون المجهولون في جماعاتٍ كبيرة، هجمت على البيوت واقتحمتها عنوةً. نهبوها. وقتلوا الرجال. وتناوبوا على اغتصاب النساء. ومثّلوا بجثث الأطفال. وأخذوا من الصبايا مَنْ تطيق النكاح، وافترسوهنَّ في العراء.. هرب الناس من منازل الفسطاط والعسكر والقطائع، ولجئوا إلى جامع جدّي العتيق ظنًّا منهم أنه مثابة للناس وأمنٌ، وأن جوانب الجامع سوف تعصمهم من السفاحين الفاتكين. فلم يكن لذلك فائدة ولا عصمة ولا حرمة، فقد اقتحم المسلحون عليهم المأوى الجامع وفعلوا فيهم وبهم، ما كانوا يفعلونه بهم من ويلات بالدور والبيوت. وحتى في النهارات، حين كان المفترسون يستريحون استعدادًا لهول الليل، لم يجرؤ أحد من الناس على إطفاء النيران المشتعلة بالمنازل، لظنهم أن ذلك سوف يزيد من غضب «الحاكم» عليهم، فتركوا النار تأكل المكان بعد المكان. ثم اتصلت الفوضى ليلًا ونهارًا، وتزايد النهب والفتك والاغتصاب، حتى إن نسوةً كثيرات ذبحن أعناقهنَّ بأيديهنَّ، فرارًا من العار، وحَبَلِ السِّفاح بعد اغتصاب السفاحين لهن، فتناثرت في الأنحاء جثث المنتحرات العاريات والممزقة ملابسهن.. واحترقت أنحاء داري بالفسطاط، وما جاورها من الدور والمنازل، وما بعُد عنها.. وكان..

كفى.. كفى.

ولما عمَّت الطامةُ حتى لامست أسوار القاهرة، علا نحيبُ المتوسِّلين للحاكم بالتدخل لإدراك البلاد قبل الانهيار التام، وانحاز كثيرٌ من الجند الأتراك للمصريين بعدما ضجُّوا وجأروا بالشكوى، فبكت عليهم الأرضُ وناحت السماء. وعندئذ، لم يجد الحاكم بُدًّا من التدخل، وأرسل الجيش بقيادة «غادي الصقلبي» صديق صِهْري «حسام بن يانس» فقام بقطع شأفة الأشرار والمجرمين من الزنج والسودان، وقتلهم جميعًا بلا هوادة أو استثناء. ولما حاولت فلولهم الهرب، طاردهم وقطع رقابهم بحزمٍ وحسمٍ، وبلا تردُّدٍ أو إبقاء معتقلين. فقد هاله ما رآه من إجرامهم، وراعته مظاهر الفتك والسفك والتحريق والاغتصاب وبقية البلايا التي اقترفها هؤلاء المجرمون بالناس الآمنين، فلم تأخذه مع مجرمٍ منهم شفقةٌ ولا رحمة. ولما عاد بالجيش إلى القاهرة، ودخل على «الحاكم» بعدما أتمَّ المهمة الموكولة إليه، لم يملك نفسه من فرط الغضب مما رآه في الأيام السابقة، والهول الذي كان في الأيام الأسبق.. قال له الحاكم أمام رجال الديوان: صِفْ لي ما رأيت. فقال له «غادي الصقلبي» رحمه الله: رأيت فظائع يصعب وصفها، واللهِ لو أن باسيل ملك الروم اقتحم مصر، لما فعل بها وبأهلها مثل ذلك.

اغتاظ «الحاكم» من جرأته ومن إحراجه له أمام رجال دولته، واهتاج غيظُه، بل بلغ به الغلُّ غايته فطعن عنق «غادي» بحربةٍ حادة النصل كانت بيده، فقتله.. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد «حسام بن يانس» يطيق «الحاكم» بل ولم ينطق من بعد ذلك اسمه، قط. حزنًا على صاحبه، وأسفًا على الأبرياء من الناس الذين كانوا آمنين مسالمين،

فذهبت سُدى أرواحهم وأموالهم وثقتهم بما يعبدون. وظل «حسام» يتوارى من الحاكم ومن عموم الناس، بحجة أنه قعيدٌ بمنزله وملازم الفراش بسبب المرض وسقوط القوى. وما كان به إلا مرضُ الروح وأسفُ النفس. وبقي على ذلك حتى كانت ليلة الاثنين الأخير من شهر شوال، سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وهي الليلة التي اختفى فيها منصور الحاكم بأمر الله.. ولم يظهر من بعدها أبدًا.

* * *

كان منصور «الحاكم» بأمر الله، قد اعتاد الخروج من القاهرة في الليل، بلا حراس، والإسراء بحماره في مفاوز المقطم وما خلفه من أنحاء. وفي تلك الليلة خرج في جوف الليل متعجلًا، ولم يعد، فكُتم أيامًا أمر اختفائه حتى تمكنت «ستّ المُلك» من إعلان موته، وقتلت الذين قالت إنهم هم قاتلوه، ونصبت مكانه في الخلافة ابنه «عليّ» وأعطته لقب: الظاهر لإعزاز دين الله.

وقد قيل إن الأميرة «ستّ المُلك» حين رأت أن الزمام ينفلت، وأن «الحاكم» صار أمره فُرُطا، وعرفتْ أن ذلك نذيرٌ أخير وعلامةٌ على قُرب ضياع البلاد وتشريد العباد واندثار مجد الفاطميين إلى الأبد. تآمرت مع أحد شيوخ كتامة الكبار هو «الحسين بن دوَّاس» وكان الرجل يتوجَّس من بطش «الحاكم» به. وأمدته بعبدين عملاقين من أشد حراسها قسوة، فترصَّدوا سريان الحاكم في الليل وحده، حتى سنحت لهم الفرصة فوثبوا عليه وقتلوه، وقطعوا ساق حماره ليمنعوه من العودة إلى القاهرة. ثم عاد العبدان إلى «ستّ المُلك» فكان عندها من الحرس القصرية الأشداء الذين قاموا بقتلهما، ودعت «ابن

دوّاس» للاحتفال بانزياح الهم عنهما، فلما دخل القصر في القاهرة زعقت: هذا قاتل الحاكم بأمر الله.. فطعنه الحراسُ وأثخنوه حتى قضى نحبه.

وقيل، إن ستّ المُلك حذَّرت الحاكم مرارًا من المصير الذي ينتظره، وقالت له في آخر لقاء وقع بينهما، قبل القطيعة التامة معه: يا أخي، احذرْ أن يكون خراب هذا البيت على يديك. فلما تمادى «الحاكم» في غيِّه، واستهان، لم تجد «ستّ المُلك» بُدًّا من التآمر ضده.

وقيل إن الحاكم حين أهان أخته الأميرة أمام حراسها، على نحو لا يحتمل، قررت أن تنتقم منه. ذلك أنه كان قد مَرَّ من أمام قصرها الغربي، منيع الحراسة، ونادى عليها حتى خرجت إليه. فقال لها أمام الملأ، وهي البتول التي بلغت من عمرها الخامسة والخمسين: بلغني أنكِ تستقبلين بقصركِ رجالًا، وأنكِ الآن حبلى، وسوف أرسل القابلات للكشف عن عذريتك.. أستغفر الله، ما كان يجب عليَّ ذِكْر هذه الوقائع الفاضحة، لكن الجميع عرف بها فما عاد كَتْمُها يُجدي.. كما قيل أيضًا، إن اثنين من العيَّارين قتلا الحاكم وهما لا يعرفانه، فلما ظهرت لهما حقيقة أمره، دفناه وهربا. وقد قبض عليهما بعد فترة، واعترفا بما اقترفاه، فقُتلا.. لكن هذا القول، عندي، يصعب قبوله والتصديق به.

ومثلما فعلت «ستّ المُلك» فور وفاة أبيها، من إسناد الخلافة لأخيها «منصور» بحزم وحسم واقتدار، فعلت الشيء ذاته بعد اختفاء الحاكم، وجعلت مكانه في الخلافة ابنه «عليّ» الذي كانت تحتاط عليه وترعاه.. وتلطفت بالحيلة حتى أحضرت من الشام، الفاطمي

المنصوص من الحاكم على ولاية عهده، وهو «عبد الرحيم بن إلياس».. ولما وصل الرجل إلى مصر، مات. يُقال إنها قتلته، ويُقال إنه انتحر، ويُقال قضى قضاءً وقَدَرًا.. والله أعلم بحقيقة ما جرى له، وصحة ما وقع معه.

* * *

وكان «الحكيم» ابن الهيثم قد اعتاد منذ وصولنا إلى الجيزة، وبالأحرى هروبنا إليها، على العكوف العجيب على الكتابة. كأن كل الذي يجري على الضفة الأخرى للنيل من ويلات، إنما يحدث في مكانٍ وزمانٍ آخرين، أو كأنه يسكن في كوكب بعيد في الكون فلا يدري بالهرج الجاري في عالمنا هذا.. كنتُ أخبره بما يستجد من الأحوال، فينصت باهتمام ثم لا يقول شيئًا ويعود إلى الكتابة، فسألته: ألا تقلق يا سيدي؟

- أقلقُ من عدم استطاعتي استكمال كتاب «المناظر»..

- لكن الأمور تدهورت من حولنا، وتُنذر بالانفجار التام.

- مهما انفجرت، ستهدأ ويزول أثرها، ثم تنطوي ذكراها، ويبقى الكتاب.. وما يجري اليوم بمصر من أهوالٍ تدمي القلوب وتفجع الأفئدة، ليس جديدًا. فقد حدث مثله بالعراق، ورأيتُه في صباي حين اقتحم القرامطة البصرة وما حولها.

كان القرامطةُ، بزعم نشر الدين الحق، قد اقتحموا جنوب العراق مرات ونشروا هناك الفظائع والويلات. وحينما كان ابن الهيثم في

الخامسة من عمره، حاصروا البصرة ومنعوا عنها القوافل فترةً، وفي هذه المحنة التي كانت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة للهجرة، فَقد ابن الهيثم أباه الذي كان واحدًا من ضحايا الاقتحام القرمطي. ثم عادوا عقب وفاة الأمير «عضد الدولة البويهي» لاقتحام البصرة وما حولها، سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وكان ابن الهيثم آنذاك في التاسعة عشرة من عمره. وبعد انتقاله من العراق إلى الشام، مضطرًّا ومدعيًا خَبَال العقل، عاد القرامطة للهجوم على البصرة وجنوب العراق سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.

أردتُ الابتعاد بالحديث مع ابن الهيثم، عن تلك الدواهي والجرائم القرمطية وما يشبهها من الأمور الفاجعة التي تجري بمصر، فسألته عن موعد انتهائه من كتاب «المناظر» فأجابني بأنه لم يبدأ فيه بعد. وبالكاد أتم كتابة مقدمته، لتكون منهاجًا لكل عملٍ أو بحث في مجالات العلم. استأذنته في الاطلاع على المقدمة فأذن، واستأذنته بعدما قرأتها أن أجعلها مما أُعلِّمه لعيالي، فتفكر قليلًا ثم أذن لي بذلك. كان يعجبه جلوسي بصحن الدار كل عصر للتدريس بنفسي لعيالي، فيجلس على مقربة منا ويراقب الدرس، ويشرد أحيانًا بنظره كأنه يستشرف مقبل الأيام، أو كان يتذكر زمانه الأول. وأعجبه أنني أجمع في الدرس بين البنين من أبنائي والبنات، بلا تفرقة. وكان ولدي «الحسن» حين يراه جالسًا بالقرب منه، يتزحف إليه ويظل يعبث بشعر لحيته، وبعمامته. ويضحك ابن الهيثم وينهاني إذا نهيت الصغير وأمه عن إزعاجه، مؤكدًا أنه مستمتعٌ غير منزعج. وفي مرةٍ قال: هذا يعيدني للوراء عشرات السنين.. ولم أفهم مقصده من تلك العبارة الأخيرة، إلا بعد سنوات طوال.

اخترت من مقدمة كتاب «المناظر» ومن مقدمات كتب ابن الهيثم الأخرى فقراتٍ جعلتها لعيالي، من المقرَّر عليهم حفظه مع آيات القرآن الكريم وأبيات القصائد الخالدة.. فكان من جملة هذه الفقرات التي حفظها عيالي عن ظهر قلب، قوله في مقدمة «المناظر» التي ابتدأها بلا حمدلة! ما نصه:

لَمَّا وَقَعَ الخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ النَّظَرِ، وكَانَتْ كَيْفِيَّةُ الإِبْصَارِ غَيْرَ مُتَيَقَّنَةٍ. رَأَيْنَا أَنْ نَصْرِف الاهْتِمَامَ إِلى هَذَا المَعْنَى بِغَايَةِ الإِمْكَان، ونُخْلِصَ العِنَايَةَ بِهِ، وَنَتَأَمَّلَهُ، ونَسْتأنِفَ النَّظَرَ فِي مَبَادِئِهِ ومُقَدِّمَاتِهِ، وَنَبْتَدِئَ فِي البَحْثِ، باسْتِقْرَاءِ المَوْجُودَاتِ وتَصَفُّحِ أَحْوَالِ المُبصَرَاتِ، ونُمَيِّزَ خَوَاصَّ الجُزْئِياتِ. ونَلْتَقِطَ بالاسْتِقْرَاءِ، مَا يَخُصُّ البَصَرَ في حَالِ الإِبْصَارِ، وَمَا هو مُطَّرِدٌ لا يَتَغَيَّرُ وظَاهِرٌ لا يَشْتَبِهُ، مِنْ كَيْفِيَّةِ الإِحْسَاسِ. ثُمَّ نَترَقَّى في البَحْثِ والمَقَايِيسِ، عَلَى التَّدْرِيجِ والتَّرْتِيبِ. مَعَ انْتِقَادِ المُقَدِّمَاتِ، والتَّحَفُّظِ فِي النَّتَائِجِ، ونَجْعَل غَرَضَنَا في جَمِيعِ مَا نَسْتَقْرِئهُ ونَتَصَفَّحهُ، اسْتِعْمَالَ العَدْلِ لا اتِّبَاعَ الهَوَى. وَنتَحَرَّى في سَائِرِ مَا نُمَيِّزُهُ وَنَنْتَقِدهُ، طَلَبَ الحَقِّ لَا المَيْلَ مَعَ الآرَاءِ. فَلَعَلَّنَا نَنْتَهِي بهَذَا الطَّرِيق، إلى الحَقِّ الَّذِي بِهِ يَثْلُجُ الصَّدْرُ، ونَصِلُ بِالتدَرُّجِ والتَّلَطُّفِ، إِلى الغَايَةِ الَّتِي عِنْدَهَا يَقَعُ اليَقِينُ. ونَظفرُ مَعَ النَّقْدِ والتَّحَفُّظِ، بالحَقِيقَةِ التي يَزُولُ مَعَهَا الخِلَافُ وَتنحسِمُ بِهَا مَوَادُّ الشُّبُهَاتِ. وَمَا نَحْنُ، مَعَ جَمِيعِ ذَلِكَ، بُرَآءَ مِما هُوَ في

طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ مِنْ كَدَرِ البَشَرِيَّةِ. ولَكِنَّنَا نَجْتَهِدُ، بِقَدْرِ مَا هُوَ لَنَا مِنَ القُوَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَمِنَ اللَّهِ نَسْتَمِدُّ المَعُونَةَ فِي جَمِيعِ الأُمورِ..

* * *

عصرَ يوم عيد الأضحى، سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وهو اليوم الذي جرت فيه صباحًا مبايعة الخليفة «عليّ، الظاهر لإعزاز دين الله» عوضًا عن أبيه المفقود، المقتول في قول، الغائب المستتر في قول آخر. في ذاك اليوم، جلس ابن الهيثم بجواري بعد الغداء وصمت طويلًا، وبدا لي كأنه يريد أمرًا ويتردَّد في التصريح. سألته ممازحًا له وملاطفًا، إن كان ذهنه مشغولًا في مسألةٍ هندسية، أم تراه يفكر في الزواج؟ قال: لا هذا ولا ذاك، لكنني أود الخروج ليلًا إلى خلف الدار، لعمل بعض الاختبارات على مسار الشعاع وانعكاسه على المرآة، وإذا كان ممكنًا، أريد أن أخرج في الصباح لاختبار مسائل تتعلَّق بانعكاس ضوء الشمس على المرايا المحرقة.

- هذا وذاك، ممكن يا سيدي. لماذا لم تخبرني بما تريد، من قبل؟

- ما أردتُ الوقوع فيما يثير حفيظة الحاكم.

- لا أظن أنه كان سيعترض على ذلك، أو يغضب بسببه، فليس خلف هذه الدار إلا صحراء غير مأهولة. عمومًا، ذهب الحاكم ولن يعود، سأكون معك ليلًا ونهارًا أثناء إجراء التجارب والاختبارات.

ـ سلمتَ من كل سوءٍ يا مطيع.

وبعدما تولّى «الظاهر» الخلافة، اتّبعتْ «ستّ المُلك» سياسة معاوية بن أبي سفيان، أعني المراوحة بين العنف واللطف على قاعدة: لو كانت بيني وبين الناس شعرةٌ ما تركتها تنقطع. وهذا، حسبما دلت تجارب الأمم، من الدلائل القوية على أن الحكم السياسي لا دين له ولا مذهب، لكنه قد يستعمل الدين والمذهب. ففي الوقت الذي احتدم فيه القتلُ وموتُ الفجاءة، للخلاص ممن يهدِّدون استقرار الحكم، كانت «ستّ المُلك» تلاطف رجال الدولة بالعطايا وتستميل قلوب نسائهم بإرسال الخُلَع والهدايا، وبدعوتهنَّ لمآدب تقيمها بقصرها الغربي، لا تحضرها إلا النسوة. وفي اليوم الثالث من الشهر الثالث من سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وكان يوم جمعة، دعت ستّ المُلك زوجتي «صفا» لمأدبة من تلك المآدب. فرأيت أن الوقت يناسب طرح مطلبي، فكتبت للأميرة رسالةً موجزة ليس فيها إلا عبارة: أما آن للحكيم الحبيس أن يُطلق سراحه؟

عندما عادت «صفا» عصرًا من مأدبة الأميرة، كنت عند بوابة الدار أترقب وصولها ملهوفًا لمعرفة الرد على رسالتي، أخبرتني «صفا» بأن الأميرة نظرت في رسالتي ثم أومأت برأسها موافقة، ودست الرسالة في كُمّ ردائها وقالت لزوجتي: إن كان يقصد «ابن الهيثم» فهو حرٌّ في الذهاب إلى حيث يشاء، وقولي لمطيع أن يُصلح داركم بالفسطاط، فليس من اللائق أن تسكنوا منفردين على هذا النحو في الصحراء، وسأرسل من القصر صباح يوم الأحد بنائين وأخشابًا لترميم داركم، ودار المرحوم ابن الفرات.

فرح ابن الهيثم حين أخبرته بجواب ستّ المُلك، وأردتُ زيادة فرحته فسألته إن كان يحب أن نركب الآن ونطوف حول الأنحاء، احتفالًا بالحرية. فقال إن الغروب اقترب موعده، والأفضل أن نفعل ذلك صباح غدٍ.. وضحك كالأطفال.

خرجنا في الصباح على بغلتين فطوّفنا حول الأهرامات، ثم عرجنا إلى جهة الشرق وعبرنا النيل؛ سِرنا أحرارًا في دروب القاهرة، ومررنا على «حسام بن يانس» الذي كفَّ عن التمارُض ولزوم داره، وتناولنا معه الغداء. وبعد الانتهاء من الغداء قال لي ابن الهيثم إن من الواجب الآن أن نرى داري بالفسطاط، فسوف يأتي البناءون غدًا.

خرجنا من القاهرة قاصدين الفسطاط، وقبل خروجنا من البوابة القبلية للسور، توقف ابن الهيثم عند الساحة الفسيحة المطل عليها جامع القاهرة المسمى «الأزهر» وأشار إلى القباب، أقصد البيوت الصغيرة، المطلة على ساحة الجامع، من الجانب الأيمن، وسألني: هل هذه القباب برسم الإيجار؟ فقلت له: إن كنت تريد السكنى هنا، أوجدتُ لك قبةً بالشراء أو بالكراء.. قال: نستأجر إحداها يا مطيع، فلا داعي لدفع مالٍ كثير فيما لن يورَّث.

ـ لا تشغل بالك بذلك يا سيدي، لك عندي مال كثيرٌ مُدَّخر.

ـ دعه مدَّخرًا، وهيا نكتري قُبَّةً.

دخلنا خمس قبابٍ أو ستًّا، حتى وجد واحدة استراح إليها فاستأجرتها له، ثم عدنا إلى مسارنا قاصدين الفسطاط.. كان منظر داري المخرَّبة المحترقة، هي وما حولها، مؤلمًا. ومع ذلك فقد كان

ابن الهيثم يحدِّق في جوانب الدار غير منزعج، أو لعله أراد بعدم إظهار انزعاجه، التخفيف عني. وعندما رآني أستغربُ حاله، ضحك بمرحٍ وهو يقول: هذه الدار يا مطيع لم تكن متقنة التقسيم ولا جيدة الشكل من الداخل، وجدرانها الخارجية هي فقط الجيدة، فدعني أصنع لك بيتًا أجمل. قلتُ: ألن تذهب للسكنى في القاهرة؟ فقال: بعد الانتهاء من العمل في إصلاح دارك.

في طريق عودتنا إلى داري بأطراف الجيزة، قبيل الغروب، أشار ابن الهيثم إلى رءوس الأهرامات البادية لأعيننا من بعيدٍ، وقال إن هذا الشكل الهرمي هو أنسب الهيئات لإقامة سدٍّ في مجرى النيل، لو استؤمن من غرق ما خلفه في زمن الفيضان.. كان لا يزال يفكر فيما مضى! وفي الغد جاء ابن الهيثم معي إلى هنا، ومعه أوراق رسمها في الليل بدقة. وحين رآه رئيسُ البنائين، أسرع نحوه لمصافحته وقام بتقبيل يده تقديرًا لفضله، فأعطاه ابن الهيثم الرسومات وأفهمه كيفية التعديل المطلوب عند عمل الترميم.. جعل الحجرات التحتانية أصغر مساحةً وفيها نوافذ عالية للتهوية، عدا خزانة الكتب تركها على ما كانت عليه، فاتسع بذلك الصحن الداخلي للدار. وقال لي: أولادك كبروا يا مطيع، فيجب أن يجمعهم صحنُ الدار مع أمهاتهم ومعك، بدلًا من عزلهم بحجرات رحبة رديئة التهوية، كالحبوس، ومنفصلة.

وجعل الحجرات الفوقانية واسعة النوافذ، ومطابقة المساحة للتحتانية وأقل منها ارتفاعًا وسُمك حوائط، وقال إن هذا أوثق لقواعد الدار وأساسها وأمتن للبنيان. وجعل فوق الطابق العلوي سطحًا مستويًا فيه غرف مسقوفة بالجريد وليست كاملة الجدران، لتكون

تهويتها في الصيف أفضل.. فصارت الدار أوسع وأعلى وأبهى، وأجمل إطلالًا على ما حولها.

استغرق العمل في إصلاح الدار شهرين، وبعدهما انتقل ابن الهيثم للسكنى في القبة المُكتراة بالقاهرة، وسعد بها واستراح لها وفيها، وعاد لانهماكه في الكتابة. وكنت خلال السنوات التالية، أتردَّد عليه في يومَي الجمعة والاثنين من كل أسبوع، وجعلت معه الخادمة «بان» لتقوم باحتياجاته. وسألته: ألا تحب اقتناء جارية حسناء؟ قال وهو يبتسم: أحب أن أنتهي من كتاب «المناظر» فوقتي قد صار ضيقًا.. كان نادرًا ما يخرج من منزله الصغير هذا، لكنني كل شهر أو نحو ذلك، آخذه إلى سوق الوراقين، لنرى ما وصل إلى هناك من جديد الكتب والرسائل. رأيتُ بهذا السوق مرةً رسالةً منسوبةً إليه، عنوانها «مقالة في مشاكلة العالم الجزئي وهو الإنسان للعالم الكلي» فأريته الرسالة وقلتُ له إنني قرأت مؤخرًا في «رسائل إخوان الصفا» مجهولة المؤلفين، رسالةً تطابقها، عنوانها «كيف نُضد العالم بأسره».. فقال إن هذه الفكرة ابتكرها حكماء اليونان القدماء، وهذه الرسالة المنسوبة إليه ليست له. كان ذلك في منتصف السنة الخامسة عشرة بعد الأربعمائة. وبعد ذلك بقرابة خمسة أعوام، رأيتُ في سوق الوراقين مجلدةً فيها كتابٌ منسوبٌ لابن الهيثم عنوانه «مقالة في تقصير أبي علي الجُبَّائي في نقضه بعض كتب ابن الراوندي» وملحق به رسالة بعنوان: جواب محمد بن الحسن عن مسألة سُئل عنها ببغداد في شهور سنة ثماني عشرة وأربعمائة!

اشتريت من الورَّاق المجلدة وذهبتُ بها إلى ابن الهيثم، فوضعتها بين يديه وقلت له ممازحًا: كيف يا سيدي كنت ببغداد قبل عامين،

وأنت لم تفارق القاهرة؟ قال وهو يبتسم: ألا ترى اسم المؤلف المكتوب على الغلاف؟ هذا ابنُ عم لي يعيش بالعراق ويشتغل بالطبيعيات والطب، اسمه محمد بن الحسن، وأنا «الحسن بن الحسن».. وضحك وهو يقول: معظمُ الأسماء في عائلتي خلال الأجيال الأربعة السابقة، والجيل الحالي، إما «الحسن» أو «الحسين» أو «محمد» فنحن نعيش هناك في ظل الأمراء البويهيين، وهم كما تعلم شيعة.

استغربتُ أن له بالعراق عائلةً، وعددها كبير، لكنه لم يتحدث عنها من قبل قط. وبعد ذلك بعدة سنوات، في أواخر سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة للهجرة، يعني قبل وفاة ابن الهيثم بعامين، زاره رجل من العراق اسمه «محمد بن جعفر العسكري» وقد أخبرني هذا الرجل بأنه صهر ابن الهيثم. فاندهشتُ وراجعته في ذلك كي أتأكد، فقال ابن الهيثم: وما سبب اندهاشك؟! نعم يا مطيع، عندي في العراق عائلة كبيرة، وأسرة صغيرة وابنة كانت في صغرها تعبث بشعر لحيتي مثلما كان يفعل ابنك «الحسن» في صغره.

كان زوَّار كثيرون يأتون لرؤية ابن الهيثم في القاهرة، وكان بعضهم يأتي من بلاد بعيدة وليس له غرضٌ إلا مقابلة العلّامة الذي حلّقت شهرته في الآفاق، والحصول على كتبه من سوق الوراقين وصار له بعض التلامذة الذين يتردَّدون بانتظام عليه لفترةٍ قد تطول شهورًا يقرءون عليه فيها مُتون الكتب، ثم يعودونه بين الأيام محبةً له وتقديرًا. فمن هؤلاء أميرٌ عربيٌّ بديع العقل والهيئة، غير فاطمي، اسمه «المبشِّر بن فاتك» كان كالحواري لابن الهيثم، وكانت معه دائمًا كراسةٌ يكتب فيها فصوص النصوص المنسوبة للحكماء القدماء،

تمهيدًا لجمعها في كتاب يقول إنه سيجعله بعنوان: مختار الحِكم ومحاسن الكلم. وكان هذا الأمير شغوفًا بمتابعة أخبار ومؤلفات الحكماء والعلماء المعاصرين، وهو الذي أخبرنا سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة بوفاة الشيخ الرئيس «ابن سينا» فتأسَّف عليه ابن الهيثم وظهر على وجهه الأسى، وتركنا جالسين ودخل حجرة نومه بخطو الحَزاني وهو يقول، مرتين: «انطفأ مبكرًا هذا المصباح المنير للعقول». جرى ذلك قبلُ وفاة ابن الهيثم بعامين.

ومع كثرة الزوار، وكي لا يتشوَّش ذهن ابن الهيثم ويضيع وقته في غير التأليف، رسمنا أن تقتصر الزيارات على يوم الجمعة.. وكان «المُسبِّحي» رحمه الله، يأتي كثيرًا لمجالسة ابن الهيثم بعد الصلاة الجامعة، فكنت ألتقي به ويؤنسني الجلوس معهما والاستماع إلى حديثهما الذي كان أكثره، كلامهما عن كتابيهما الكبيرين. يحكي المُسبِّحي عن كتابه «فضائل مصر» وهو تاريخ ضخم يقع في أكثر من أربعين مجلدًا، يصل عدد صفحاتها قرابة الثلاثة عشر ألف ورقة، ويحكي ابن الهيثم عن كتابه «المناظر» المؤلَّف من سبعة مقالات أو مجلدات، يزيد عدد صفحاتها عن الألف، فيها رسومٌ دقيقة، عديدة، توضِّح موضوعاته التي تنوَّعت بين كيفية الإبصار وانعكاس صورة المرئي على المرآة، وانقلابها عند ارتسامها على جدار الصندوق الأسود، وأغلاط البصر، والخيالات، وانعطاف شعاع الضوء عند مروره بالأوساط المشفَّة، وكيفية الانعطاف، والوسط المشف المخالف لشفيف الهواء.. وكان هذا الكتاب قد استغرقت كتابته من ابن الهيثم أكثر من عشر سنوات؛ لأنه كان يقوم لضبط محتوياته بعمل تجارب عديدة واختبارات دقيقة، صعبة، كما كان يستريح

من عناء الانهماك فيه، بكتابة بعض مؤلفاته الأخرى مثل رسالته في الأصول الهندسية عند إقليدس وأبلونيوس، ومقالته في استخراج المسائل الحسابية بالتحليل الهندسي وبالصيغة الجبرية، وكتابه في المرايا المحرقة.

وكان من ألطف الزوَّار الذين رأيتهم عند ابن الهيثم، أميرٌ من الشام اسمه «سرخاب السمناني».. جاء إلى القاهرة خصيصًا لمقابلة ابن الهيثم، وجاءت معه حاشيةٌ من ثمانية رجال، وكان ذلك قبل شهور قليلة من وفاة ابن الهيثم. ففي ظهيرة يوم الأربعاء الموافق للعاشر من الشهر العاشر (شوال) من سنة ثلاثين وأربعمائة للهجرة، وقد انتصف ذلك الصيف. كنتُ جالسًا مع ابن الهيثم في القبة القاهرية وقد صارت مقصدًا لنبلاء العلماء والمتعلمين، وسألته إن كان يريد أن نشتري له دارًا فسيحة تتسع لضيوفه، فقد صار ما أدَّخِره عندي من ماله يقترب من أربعة عشر ألف دينار. فأجابني بحسم: لا، لن أذهب إلى مكان آخر، إلا المقابر! قلت: وماذا يا سيدي عن مالك المدَّخر عندي؟

- ماذا عنه! أنت تنفقه فيما أحتاجه. وما يتبقى لديك منه بعد موتي، وزِّعه على الفقراء بعد دفني، صدقات. ولا تراجعني مرةً أخرى في هذا الأمر.

عقب قول ابن الهيثم ذلك، تهلل فجأةً إذ دخل علينا الضيفُ مهيبُ الطلعة أنيقُ المظهر، فرحَّب به ابن الهيثم بعبارة غريبة. قال: أهلا بالأمير الأحمراني.. لحظتها لم أعرف سبب فرحة ابن الهيثم بضيفه، ولم أدرك أن كلمة أحمر أو محمر الوجه، هي ترجمة حرفية لاسمه

الفارسي «سرخاب». وكان ابن الهيثم يُجيد الفارسية والسُّريانية واليونانية. أما «السمناني» فمعروفٌ أنها نسبةٌ إلى ناحية بشمال بلاد فارس اسمها: سمنان. وقد كان هذا الرجل من أسرة انحدرت من سمنان إلى الشام، وصار منها أمراءُ وولاة.

مسرعًا، قام «سرخاب» بتقبيل كفِّ ابن الهيثم اليمنى، وقدمه. ثم جلس بملابسه الفاخرة على الأرض. دعاه ابن الهيثم للجلوس على الكرسي المجاور، أو يجاوره على الأريكة، فقال الأمير الشامي: والله لا أجلس إلا مثلما تعوَّدت الجلوس في حضرتك.

ـ كنتَ وقتها شابًا يا أمير..

ـ ولا زلتُ يا سيدي، ها ها ها، لا تقلق عليّ.

ـ وما الذي جاء بك يا سرخاب إلى القاهرة؟

ـ جئت لأراك يا سيدي، فمَن غيرك من الناس يستحق اليوم أن تُشدَّ إليه الرحال. وقد قرأت كتابك «المناظر» وظني أنه سيخلد بعدنا للأبد.

ـ وما يتبع أكثرهم إلا ظنًّا، إن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

ـ صدق الله العظيم، ولكن لم يصدُق وجهُ الاستشهاد.

ـ طيب يا فصيح، ههه، وكيف رأيتَ مباحث الكتاب؟

ـ كلها يا سيدي عظيمة القيمة والقدر، ولكن غمض عليَّ أمرُ انعطاف الضوء، وأمر الصلة بين العلوم الطبيعية والتعليمية.

ـ آه.. نعم، ربما يحتاج هذا إلى رسالة مفردة.

ـ لو تمليها عليَّ يا سيدي، سيكون ذلك من وافر فضلك، ودواعي افتخاري.

ـ لا بأس. هات يا مطيع الكاغد والمحبرة.

من فوره، وبلا بسملة أو حمدلة أو تمهيد، أملى ابن الهيثم على سرخاب السمناني الرسالة من خاطره، دون مراجعة كتاب أو توقف عند التدفق. وقال له مرتين خلال الإملاء: اترك هنا مساحة بيضاء، سوف أرسم فيها شكلًا هندسيًّا.. وكان مما أملاه، ما يلي:

الْكَلَامُ فِي مَاهِيَّةِ الضَّوْءِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ، والكَلَامُ فِي كَيْفِيَّةِ إِشْرَاقِ الضَّوْءِ يَحْتَاجُ إِلى الْعُلُومِ التَّعْلِيمِيَّةِ مِنْ أَجْلِ الْخُطُوطِ التي يَمْتَدُّ عَلَيها الضَّوْءُ. وكَذَلِكَ الكَلَامُ فِي مَاهِيَّةِ الشُّعَاعِ، هُوَ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ. والكَلَامُ فِي شَكْلِهِ وهَيْئَتِهِ، هُوَ مِنَ الْعُلُومِ التَّعْلِيمِيَّةِ. وكَذَلِكَ الأَجْسَامُ الْمُشِفَّةِ التي يَنْفُذُ الضَّوْءُ فِيهَا، والكَلَامُ في مَاهِيَّةِ شَفِيفِهَا، هُوَ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ. والكَلَامُ في كَيْفِيَّةِ امْتِدَادِ الضَّوْءِ فِيها، هُوَ مِنَ الْعُلُومِ التَّعْلِيمِيَّةِ. فَالكَلَامُ في الضَّوْءِ وفي الشُّعَاعِ وفي الشَّفِيفِ، يَجِبُ أَنْ يَكونَ مُرَكَّبًا مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ والْعُلُومِ التَّعْلِيمِيَّةِ..

..فَأَمَّا كَيْفَ يَكُونُ نُفُوذُ الضَّوْءِ في الأَجْسَامِ الْمُشِفَّةِ، فَهُوَ أَنَّ الضَّوْءَ يَمْتَدُّ في الأَجْسَامِ الْمُشِفَّةِ عَلَى سُمُوتِ خُطُوطٍ مُسْتَقِيمَةٍ، ولَا يَمْتَدُّ إِلَّا عَلَى سُمُوتِ الخُطُوطِ

المُسْتَقِيمَةِ. ويَمْتَدُّ مِنْ كُلِّ نُقْطَةٍ مِنَ الجِسْمِ المُضِيء، عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ. ويَصِحُّ أَنْ يَمْتَدَّ مِنَ تِلْكَ النُّقْطَةِ، في الجِسْمِ المُشِفِّ المُجَاوِرِ للجِسْمِ المُضِيء. وهَذَا المَعْنَى قَدْ بَيَّنَّاهُ في كِتَابِنَا «المَنَاظِرِ» بَيَانًا مُسْتَقْصِيًا، ولكِنَّنَا نَذْكُرُ الآنَ مِنْهُ طَرَفًا يَنْفَعُ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ، فَنَقُولُ إِنَّ امْتِدَادَ الضَّوْءِ عَلَى سُمُوتِ خُطُوطٍ مُسْتَقِيمَةٍ، يَظْهَرُ ظُهُورًا بَيِّنًا مِن الأَضْوَاءِ التي تَدْخُلُ مِنْ ثُقُوبٍ إِلَى البُيُوتِ المُظلمةِ، فَإِنْ كَانَ في البَيْتِ غُبَارٌ فَإِنَّ الضَّوْءَ يَظْهَرُ في الغُبَارِ المُمَازِجِ للهَوَاءِ.. والضَّوْءُ المُمْتَدُّ في الأَجْسَامِ المُشِفَّةِ عَلَى سُمُوتِ الخُطُوطِ المُسْتَقِيمَةِ، هُوَ الذي يُسَمَّى شُعَاعًا.. وكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الأَجْسَامِ المُشِفَّةِ، فَفِيهِ كَثَافَةٌ مَا. فَإِنَّ اخْتِلَافَ الشَّفِيفِ الَّذي في هَذه الأَجْسَامِ المُشِفَّةِ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ الكَثَافَةِ التي فِيهَا. وكُلُّ مَا فِيهِ كَثَافَةٌ أكثر، كَانَ شَفِيفُهُ أقلَّ. فَأَمَّا شَفِيفُ الفَلَكِ، فَرَأَى أَصْحَابُ المَنْطِقِ أَنَّ شَفِيفَهُ أَصْفَى مِنْ شَفِيفِ جَمِيعِ الأَجْسَامِ المُشِفَّةِ، وَهُوَ غَايَةُ الشَّفِيفِ، وأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ أَشَدَّ شَفِيفًا مِنَ الفَلَكِ. وأَمَّا أَصْحَابُ التَّعَالِيمِ، فَيَرونَ أَنَّ الشَّفِيفَ لَيْسَ لَهُ غَايَة. وقَدْ بَيَّنَ هَذَا المَعْنَى بَعْضُ أَصْحَابِ التَّعَالِيمِ المُتَأَخِّرِينَ، وهو أَبُو سَعْد العَلَاءُ بنُ سهَيْل، فإِنَّ لَهُ مَقَالَةً بَيَّنَ فِيها ذَلِكَ ببرهَانٍ هَنْدَسِيٍّ.. وإِذَا امْتَدَّ الضَّوْءُ في الجِسْمِ المُشِفِّ، وانْتَهَى إِلَى جِسْمٍ آخر مُشِفٍّ،

مُخَالِفِ الشَّفِيفِ للجِسْمِ الأوَّلِ الَّذي امتدَّ فيه، انْعَطَفَ الضَّوْءُ وَلَمْ يَنفُذْ عَلَى اسْتِقَامَةٍ.

* * *

انتهى ابن الهيثم من الإملاء مساءً، ثم طلب مني المسطرة والأدوات، ورسم في المساحة الخالية شكلين هندسيين. وخلال ذلك امتلأت نفسُ الأمير «سرخاب» بالحماسة والفرح، حتى إنه أراد الذهاب بالرسالة من فوره إلى حارة الوراقين لنسخها، فاستمهلته حتى الصباح. ومبكرًا مررت عليه في الفندق الفخم وذهبنا معًا إلى الوراقين واخترنا أفضل النساخ وأشهرهم بدقة النقل، فكتبوا لنا عدة نسخ من الرسالة التي أعطاها ابن الهيثم عنوانًا عامًّا، هو: «مقالة في الضوء».

أقام «سرخاب السمناني» بالقاهرة أسبوعًا، وكان يقيم مع حاشيته على مقربة من القبة التي يسكنها ابن الهيثم، وظل يزوره في كل يوم ساعة أو ساعتين. وقبل عودته إلى الشام بيوم، حكى لي ساعة العصر واقعةً طريفة تفسِّر تعلُّقه القلبي بابن الهيثم. قال لي إنه في شبابه ذهب إلى ابن الهيثم أيام كان يعيش بالشام، وطلب منه أن يتتلمذ على يديه ويقرأ عليه المتون الهندسية والحسابية، فقال له ابن الهيثم إن ذلك سوف يكلفه في كل شهر مائة دينار. وهو مبلغ كبير. فارتضى بذلك «سرخاب» إذ كانت أسرته ثرية، وظل طيلة السنوات الثلاث التي قضاها تلميذًا له، يؤدي إليه شهريًّا المائة دينار بانتظام. ولما انتهت فترة الدراسة وهَمَّ «سرخاب» بالرحيل مفارقًا أستاذه، استوقفه ابن الهيثم وأعطاه الثلاثة آلاف وستمائة دينار التي دفعها له سابقًا، بأكياسها، وقال له: قَدْ جَرَّبْتُكَ بِهَذِهِ الأُجْرَة، فَخُذ مَالَكَ، واعْلَمْ أَنَّ العِلْمَ لَا أُجْرَةَ لَهُ، وَلَا رَشْوَةَ وَلَا هَدِيَّة..

ماتَ ابنُ الهيثم العام الماضي، بعدما عانى أسبوعًا من إسهالٍ دمويٍّ حاد.. كنت أزوره في أيام مرضه، كل يوم. وفي آخر يوم قال لي بآخر النهار: قُمْ يا مُطيع إلى دارك، قُمْ، فقد ضاعت الهندسة وبطلت المعالجات وعلوم الطب، ولم يبقَ أمامي إلا تسليم النفس إلى بارئها.. ومات مساءً.. انزويتُ بداري بعد وفاته، فما عدتُ أحتمل صحبة الناس، ولا حتى رفقة بناتي وأبنائي وأحفادي.

رحم اللهُ ابنَ الهيثم.. ورحم الله جميع المسلمين والنصارى واليهود وأهل المِلل والمذاهب والديانات.

فالرحمن الرحيم، لا محالة يرحم.. الرحمة.. الحاكم بأمره.. أين عمتي «تمنّي».. وأين ذهب الجميع؟

لابد لي من تبييض هذه المسوَّدة.. لابد.. الهواء ثقيل.

سأنادي ابنتي «تمني».. لا أستطيع، أين ذهب ولدي عبد الله.. أنا.. لا أقدر على القيام من مكاني.

كل شيء أبيض.

والعبد عصفور، صار أبيض..

ما هذا الصمت..

أين أنا، وأين الجميع..

آه، إنه الموت.

أعمال د. يوسف زيدان

الكتب المنشورة

- المقدمة فى التصوف، لأبى عبد الرحمن السلمى «تقديم وتحقيق». دار مدارك (دبى).
- عبد الكريم الجيلى فيلسوف الصوفية «تأليف». الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة أعلام العرب).
- الفكر الصوفى عند عبد الكريم الجيلى «تأليف». دار مدارك (دبى).
- شرح فصول أبقراط لابن النفيس «دراسة وتحقيق». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).
- شعراء الصوفية المجهولون «تأليف». دار مدارك (دبى).
- ديوان عبد القادر الجيلانى «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).
- ديوان عفيف الدين التلمسانى «دراسة وتحقيق». دار الشروق (القاهرة).
- قصيدة النادرات العينية للجيلى مع شرح النابلسى «دراسة وتحقيق». دار الجيل (بيروت).
- الطريق الصوفى وفروع القادرية بمصر «تأليف». دار مدارك (دبى).
- عبد القادر الجيلانى، باز الله الأشهب «تأليف». دار الجيل (بيروت).
- رسالة الأعضاء، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).

١٢ ـ المختصر فى علم الحديث النبوى، لابن النفيس «دراسة وتحقيق» الدار المصرية اللبنانية (القاهرة).

١٣ ـ المختار من الأغذية، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).

١٤ ـ شرح مشكلات الفتوحات المكية، لعبد الكريم الجيلى «دراسة وتحقيق». دار ن للنشر (القاهرة).

١٥ ـ فوائح الجمال وفواتح الجلال، لنجم الدين كُبْرى «دراسة وتحقيق». دار سعاد الصباح (القاهرة).

١٦ ـ التُّراث المجهول، إطلالة على عالم المخطوطات «تأليف». دار الأمين (القاهرة).

١٧ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية «الجزء الأول». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).

١٨ ـ فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية «الجزء الثانى». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).

١٩ ـ نوادر مخطوطات بلدية الإسكندرية «كتالوج مصوَّر». برنامج الأمم المتحدة للتنمية (مكتبة الإسكندرية).

٢٠ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوى «الجزء الأول». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).

٢١ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوى «الجزء الثانى». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).

٢٢ ـ فهرس مخطوطات رِفَاعَة الطهطاوى «الجزء الثالث». معهد المخطوطات العربية (القاهرة).

٢٣ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المخطوطات العلمية». (مكتبة الإسكندرية).

٢١ ـ بدائع المخطوطات القرآنية بالإسكندرية «كتالوج مصوَّر». (مكتبة الإسكندرية).

٢٥ ـ التقاء البحرين «نصوص نقدية». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).

٢٦ ـ فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى (التصوف، التفسير، السيرة، الحديث). (مكتبة الإسكندرية).

٢٧ ـ حَىّ بن يقظان، النصوص الأربعة ومبدعوها. دار مدارك (دبى).

٢٨ ـ المتواليات «دراسات فى التصوف». الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).

٢٩ ـ المتواليات (فصول فى المتصل التُّراثى المعاصر). الدار المصرية اللبنانية (القاهرة، بيروت).

٣٠ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التصوف وملحقاته». (مكتبة الإسكندرية).

٣١ ـ فهرس مخطوطات رشيد ودمنهور. مؤسسة الفرقان (لندن).

٣٢ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «التاريخ والجغرافيا». (مكتبة الإسكندرية).

٣٣ ـ ابن النفيس، إعادة اكتشاف «تأليف». دار الشروق (القاهرة).

٣٤ ـ فهرس مخطوطات شبين الكوم. مؤسسة الفرقان (لندن).

٣٥ ـ فهرس مخطوطات المعهد الدينى بسموحة. (مكتبة الإسكندرية).

٣٦ ـ فهرس مخطوطات أبى العباس المرسى «أصول الفقه وفروعه». (مكتبة الإسكندرية).

٣٧ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «المنطق». (مكتبة الإسكندرية).

٣٨ ـ فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية «الحديث الشريف». (مكتبة الإسكندرية).

٣٩ـ فهرس مخطوطات دار الكتب بطنطا. معهد المخطوطات العربية (القاهرة).

٤٠ ـ فهرس مخطوطات دير الإسكوريال. (مكتبة الإسكندرية).

٤١ ـ ماهية الأثر الذى فى وجه القمر، لابن الهيثم «دراسة وتحقيق». (مكتبة الإسكندرية).

٤٢ ـ مقالة فى النقرس، للرازى «دراسة وتحقيق». (مكتبة الإسكندرية).

٤٣ ـ مختارات من نوادر مقتنيات مكتبة الإسكندرية. (مكتبة الإسكندرية).

٤٤ ـ التصوف «تأليف». دار نهضة مصر، (القاهرة)

٤٥ ـ المخطوطات الألفية «تأليف». دار ن للنشر (القاهرة).

٤٦ ـ الشامل فى الصناعة الطبية، لابن النفيس «دراسة وتحقيق». ثلاثون جزءًا. المجمع الثقافى (أبو ظبى).

٤٧ ـ ظِل الأفعى «رواية». دار الشروق (القاهرة).

٤٨ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الألفية «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).

٤٩ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الموقَّعة «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).

٥٠ ـ كلمات: التقاط الألماس من كلام الناس «تأليف». دار نهضة مصر (القاهرة).

٥١ ـ عزازيل «رواية» دار الشروق، (القاهرة).

٥٢ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات الشارحة «تقديم وتحرير» (مكتبة الإسكندرية).

٥٣ ـ اللاهوت العربى وأصول العنف الدينى «تأليف». دار الشروق (القاهرة).

٥١ ـ النبطي «رواية». دار الشروق (القاهرة).

٥٥ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المترجمة «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).

٥٦ ـ بحوث مؤتمر المخطوطات المطوية «تقديم وتحرير». (مكتبة الإسكندرية).

٥٧ ـ محال «رواية». دار الشروق (القاهرة).

٥٨ ـ متاهات الوهم «تأليف». دار الشروق (القاهرة).

٥٩ ـ دوامات التديُّن «تأليف». دار الشروق (القاهرة).

٦٠ ـ فقه الثورة «تأليف». دار الشروق (القاهرة).

٦١ ـ جونتنامو «رواية». دار الشروق (القاهرة).

٦٢ ـ فقه الحب «تأليف» دار الرواق (القاهرة).

٦٣ ـ شجون مصرية. دار ن للنشر (القاهرة).

٦٤ ـ شجون عربية. دار ن للنشر (القاهرة).

٦٥ ـ شجون تراثية. دار ن للنشر (القاهرة).

٦٦ ـ شجون فكرية. دار ن للنشر (القاهرة).

٦٧ ـ نور «رواية». دار الشروق (القاهرة).

٦٨ ـ حل وترحال (مجموعة قصصية).

٦٩ ـ فوات الحيوات (مجموعة قصصية).

٧٠ ـ فردقان «رواية». دار الشروق (القاهرة).

٧١ ـ أهل الحي (مجموعة قصصية) دار الشروق (القاهرة).

٧٢ ـ غُربة عرب (مجموعة قصصية).

* * *



ترتحل هذه الرواية بقارئها، ذهابًا وإيابًا، من زماننا الحالي المضطرب إلى الزمن الفاطمي، الذي كان قبل ألف عام أكثر اضطرابًا.. ويبدو لنا الحاضرُ والماضي، مثل مرايا متقابلة ينعكس على وجوهها جوهرُ الإنسان في كل الأحيان، مهما اختلفت الأماكن وتعددت الأزمان.

في هذه الرواية نرى الحارة المصرية الحالية، ونرى بهاء القاهرة الفاطمية.. حيرة المعاصرين، ونزق السابقين.. قسوة العقل، أحيانًا، وجمال الجنون.. أُمنية، وتمنّي.. راضي، ومطيع.. الحاكم بأمر الله، وابن الهيثم. ونرى أيضًا الأميرة الخطيرة: ست الملك.

وفي هذه الرواية، نرانا على نحوٍ حاد الوضوح شديد السطوع.



هذه الرواية، هي الكتابُ الخامس والسبعون في قائمة مؤلفات الدكتور يوسف زيدان، الأديب العالمي الذي تُرجمت أعماله إلى معظم اللغات الأجنبية، وتتصدَّر طبعاتُها العربيةُ قوائم الكتب الأعلى توزيعًا. هو الروائي والفيلسوف الذي حصلت إبداعاته المنشورة المشهورة على أعلى الجوائز الأدبية والأكاديمية، وأثارت آراؤه ورؤاه العواصف الفكرية في عقول وأذهان المعاصرين.



